سلسلة مؤلفات محمد ديب

سلسلة
التراث

محمد ديب

مثل طنين النحل

رواية



الجزائر 2007
عاصمة الثقافة العربية

منشورات ANEP

مثل طنين النحل

Mohammed Dib

comme un bruit d'abeilles

ROMAN

Albin Michel

محمد ديب

مثل طنين النحل

رواية

ترجمة : ديالا طوق

عاصمة الثقافة العربية

منشورات ANEP

الكتاب : **مثل طنين النحل**

المؤلف : **محمد ديب**

المترجم : **ديالا طوق**

الناشر : **منشورات** ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة - الجزائر

الهاتف : 213 21 23 64 85/86

الفاكس : 213 21 23 64 90

Site-web : www.anep.com.dz

الطبعة 2007

ISBN : **9947-21-228-9**

المحتويات

ابتسامة الأيقونة

ماذا؟ ماذا سبق أن قلت؟ ربما قلت إنّ، ولكن ماذا؟ ربما فكرت أنا المدعوّ راسّك أني أسمع تلك الأصوات داخل رأسي، أصوات القرقعة الهائلة تلك وصراخ الأطفال المضني ذاك وأغاني الإذاعة المكرّرة المبتذلة تلك التي تتقاذفها النوافذ؟ أهي بالفعل نوافذ؟ إنها بالأحرى عيون تحدّق بنا. تودّون أن تشيحوا بوجوهكم عنها، حاولوا القيام بذلك إن استطعتم؛ تودون أن تغضوا الطرف عنها: حاولوا، فلن تضرّكم المحاولة. وماذا عن عمليات تنظيف الأدوات الصحية المتتابعة بطرّادات المياه تلك التي نود ألاّ نسمعها مجدداً، وكل ذلك الضجيج الذي يخترق الهواء ويخترق الجدران كفرق نحل مهاجرة وأفواج من النحل الطنّان امتزجت معاً؟ إنما حاولوا، حاولوا لنرى. وكل ذلك الضجيج المتصاعد بعد سلوكه الطريق العام وصعوده إلينا مصحوباً بهدير ذلك الطريق؟ بإمكانكم دوماً أن تحاولوا. وماذا عن الطريق العام، ذلك الشلال؟ قل إنه النياغارا مع عدته الموضوعة

بكاملها، هنا مقابل المبنى كي تعمل ليلاً نهاراً. ولكنكم لن تتمكنوا. فكل ذلك الضجيج المنتقل إليكم يصدع رأسكم ويفلقه بالكامل. وتتساءلون محتارين عن مصدر الطرطقة الإضافية تلك الشبيهة بقرع الطبول وهدير المحركات وصليل المعادن. لا ندري، حائرين بأمرنا، وكأن الأصوات تتنادى تتجاذب في ما بينها، وأن بعضاً منها يقوم بنقل البعض الآخر من إجل إيصاله إلى برّ هذه الجدران ولكن توقفها عند تلك الجدران لن يمنعها من متابعة صخبها وإزعاجكم. فأينما جلسنا أنا ونينا: إن كان في هذه الغرفة أو في الغرفة المجاورة، طاردتنا باستمرار ضوضاء فظيعة، ضجيج مستمر، فرق نحل مهاجرة وأمواج طنين هادرة. ولكنها لا تزعج على الإطلاق أصحاب الصور المقتضبي الحواجب والمصرّين على أسنانهم. فهؤلاء ما يبدو على عيونهم لدى رؤيتهم تحت الزجاج الذي يغطيهم محتجزين ضمن إطار. مثل مجموعة الحبش والنعاج والأبقار تلك المضطجعة على أحجار ملوّنة ضمن المجموعات المعلّقة على الجدار ـ وذلك يشمل سجادة بخارى تلك ببهائها الفظ والمعروضة على الجدار هي أيضاً. ففي السابق، كان تعليق الأغراض على الجدران هوساً تعاني منه نينا ولكنها تخطته الآن. كما يبدو الآن أن نينا ليست منزعجة من تلك الضجة، فهي ليست منزعجة من الملائكة الصغار المريعين ولا من أمّهاتهم المريعات المصابين جميعاً ببحة لشدة صراخهنّ في كل ناحية. حتى أنها لا تستاء ولا ترمش لها عين عند سماعها أولئك الجارات وصغارهنّ الأعزاء، أقصد حين ينتحب هؤلاء، وتصرخ أولئك؛ ولا تلك الإذاعات التي لا تتوقف يوماً عن البث. أضف إلى ذلك أنها لا

تسمع إطلاقاً الصمت، هوّة صمتٍ يحفرها صوت شحيح عندما يلتمس ويتوسّل منادياً على دفعات منتظمة: «أبي! أبي!».

يا لذاك النداء أبي! أبي! الذي يخفي وراءه عذوبة العالم كلّها! فحين يعلو ذاك الصوت المنقطع النظير وينطلق بهتافه أبي! أبي!، يتملّكني ذلك الأمل وذلك اليأس الخالدان منذ ما قبل الزمان. أما نينا، فمواء هرّة صغيرة ضائعة لن يحرّك على الإطلاق مشاعرها الباردة كلوح من زجاج.

إن سنونوة واحدة ليست كفيلة بالتبشير بقدوم الربيع. أما
قطار الضاحية فكفيل بهزكم شرّ هزّ، وقطاران مفعولهما أكبر
وليس أقلّ. ولكني في الربيع سأذهب حتى جبال غوروبيزفي
سأذهب سيراً على الأقدام لأتنزّه.

والأيقونة مصنوعة من زجاج هي الأخرى، وكنت قد لممتها بنفسي من مزبلة مهجورة. ولكنها ليست سوى فضالة، غرض قديم قمت بتعليقه في إحدى زوايا الغرفة في ما مضى. علّقتها في تلك الفترة تحديداً تحت أنظار نينا التهكمية، فلم تعترض بل تركتني أقوم بذلك قبل أن ترسلني لأختبر حياة المعتقل.

ولكني في الربيع سأذهب حتى جبال غوروبيزفي سأذهب
سيراً على الأقدام لأتنزه.

ها هو يبدأ من جديد ويعاود الكرّة. لا ينطق بكلمة ولا ينبس ببنت شفة، ولكن حين يفتح فاه، ما الذي يتفوّه به؟ يتفوّه بتلك المعزوفة الرهيبة، تلك الطقوس الغنائية. وسوف يستمر طويلاً في ترديد معزوفته. سيستمر إلى متى؟ لا أدري تحديداً: سيستمر لساعات، أجل لساعات، ربما حتى يرمي له أحدهم بقطعة نقانق أو برغيف خبز أو بكُوبك. ولكن يا للعجب، فالوضع كان مختلفاً هذه المرة. إذ أوقف هراءه ما

إن بدأ به وبقي على حاله. إنه يبقى على حاله هذه طوال الوقت: يمدّ ذراعيه على مسندي مقعده، ويلقي بكامل نحافته وبكامل انهياره على هذا المقعد المنهار مثله تماماً والنحيف مثله. ويبقى هناك ككتلة غسيل متّسخة لا تنتظر سوى الذهاب إلى المغسل. ولا يمكننا أن نتكهّن ماذا يفعل، أهو في حالة تأمّل أم ماذا؟ ربما، فلا أحد يعرف تحديداً. ولا يمكن لأحد أن يتأكد من حقيقة ما يفعله أو يعرف ماذا عليه أن يتوقع منه هو في حالته تلك. لا بد أنه يروي لنفسه حكايات داخل رأسه. فهو خبير في تأليف الروايات. إنه كتلة غسيل متسخة تنظر إليّ، تنظر إليّ وترفع ذراعها في بعض الأحيان. فيقوم بهذه الحركة بذراعه أو على الأقل يحاول القيام بها. ولكنه يخادع، فهو عاجز كلياً عن اتمام أي مهمة. لقد كان يخادع طوال هذا الوقت. ثم تراه رغم ذلك يصفق حافة المسند القصوى بقبضته المغلقة. ومع ذلك فهو لا يقوم إلّا بالمخادعة. إذ لا معنى لحركته تلك. وهو لا يقوم إلّا بحركات مماثلة لا معنى لها على الإطلاق. هكذا عاد إليّ وهو خَرِف أبله. فهذا كل ما تحوّل إليه، وهذا ما أصبح عليه اليوم. كما أنه لا يزال غير نافع، علماً أنه لم يكن يوماً نافعاً. لقد سعى إلى ذلك. وهكذا فما أراده دوماً استطاع أن يحصل عليه. وبعد خمس عشرة سنة عاد يصيح كمن كشف عن نفسه فجأةً في لعبة التخفّي: ها أنا من جديد. ولكنه صراحةً ليس سوى ميت حيّ لدى عودته بعد كل تلك السنوات، فيما ظل كثيرون غيره هناك ولم ينفذوا بجلدهم. ولكي يطفح الكيل، أعطوه لقب أكاديمي في أكاديمية العلوم كمكافأة على مهاراته. إني أتساءل عن ماهية تلك المهارات. ولكنه عبثاً عاد وعبثاً

أصبح أكاديمياً فإني لا أتعرّفه. إن تلك الهيئة الصفراء المتآكلة تحت شعره الكثّ الأبيض الأقرب الآن إلى الفرشاة الطويلة المقبض لم تُكسب وجهه تعبيراً متألقاً على الإطلاق. آه! لقد طفح الكيل. إني لا أتعرّفه ولست حريصةً على تعرّفه. كنت قد انتهيت منه في السابق حين كان حطاماً ينتن الجو حوله. وقد لا يكون حتى حياً بقدر ما يبدو عليه. إنه يبدو نصف حيّ، لا بل ربع حيّ إن كان ذلك ممكناً! وهو جالس على هذا المقعد حيث لن يخلّف إلّا صِنفه! إنه زوجي ممن يعودون حتى ولو ماتوا لأنهم حسب ما يُقال لم يجدوا أي راحة حيث يجدر بهم أن يبقوا، ولكنهم مكان لا يستطيعون أن يبقوا فيه. وفي أي حال، فإن قد يترك لحمه في ذلك المكان، فهو لم يترك فيه عظامه في النهاية، إذ تراه قد عاد غير حاملٍ فوق عظامه إلّا جلده ذاك. فهو لم يجد له مكاناً بين من ماتوا في ذلك المكان، إذ كان لديه دائماً ما يفعله ويشاهده في مكان آخر، وضالّة عليه أن يجدها ولكنه لم يجدها يوماً حتى وجد نفسه هنا ثانيةً عوضاً من أن يبقى هناك. ما كان عليه أن يعود من هناك ولكن ها هو يعيد تدفئة مكانه هذا ويروي لنفسه حكايات داخل رأسه. يرويها كما رأيته يفعل على الدوام، وكما أراه الآن في هذه اللحظة حيث يبدو كما لو كان في مكان آخر، كما لو أنه لا يستطيع أن يتذكر ما ينقصه ولا يتمكن من استعادته. ولكن ماذا تُراه يستعيد؟ أهو ما جناه من هناك؟ أهي تلك الهيئة التي عاد بها ولا يعيرها أي أهمية؟ تلك الهيئة المغطّاة بالندوب إثر ضربات مخالب يظن المرء أن حيواناً متوحشاً تسبب له بها؟ أهو ذاك التشنج العضلي المضحك الذي يجذب له خدّه الأيسر في الاتجاهات كافة؟ ولا أبالغ في

وصفي حيث أقول: لكأنّ الشيطان بورولباش يختار في كل مرة اللحظة غير المناسبة ليمرّر له خيطاً يبقي وجهه مرتقاً إلى حد ما. ولكنه لا يعير كل ذلك أي أهمية. وإن كان قادراً على استعادة هيئة ما، فأنا مستعدة أن أفدي بروحي إذا لم تكن هيئته وهو يرقص الغوباك الأوكرانية.

ومن أعمق أعماقي صرخت لها:

ـ نينا، نينا، بحق الجحيم، أتسمعينني؟! لستِ محتجزة على الإطلاق، لست محتجزة أو مهجورة إطلاقاً. فأنتِ هنا ولست في مكان لا تعرفينه. إذ يبدو أنه مهما كانت عيناك مفتوحتين، فهما لا تريان إلّا جدراناً؛ جدراناً من جميع الجهات. ويبدو أنهما لا تريان إلّا وراءهما. فلمَ لا تريان أمامهما؟ أنت هنا، فلا تنظري وراءك إنما أمامك يا نينا. أنتِ قادرة على ذلك. أنظري ولا تنتظري أن يفوتك الأوان. أقنعي نفسك بأنك قادرة على ذلك يا ماتيوشكا. وقبل أن يفوت الأوان، أنظري وبالعينين نفسيهما أصغي. أنظري وأصغي ليس هناك في البعيد وفي الماضي الغابر. إنما استديري نحو الحاضر، هنا، فهذا مكان لا يمر فيه الحاضر بسرعة قصوى لا تمكّنك من التقاط بعض الحفنات. إسمعي ما أقوله. إسمعي ولو حتى جملة أو كلمة. قد تكون عيناك ما زالتا تحدّقان بتلك الوليمة هناك في الماضي البعيد، ولكنك مع ذلك لا تتذكرين لمَ أو حتى عمَّ تبحثين هناك. ومع ذلك، فأنت ما عدت تتذكرين بأي مناسبة كنا نحتفل هناك ونسيت وجود الشاعر بين الضيوف. هذا الأمر لا يجوز. فماذا تعنين بعودتك إلى هناك، إلى منزل الحفلات الناصع البياض ذاك؟ وما الذي يجول في رأسك؟ إني متأكد أنه قصر ضيافة قديم مؤلف بكامله من قرميد

وجسور خشبية وصقالات بيضاء مذهلة، ومنصوب تماماً وسط بحيرة، إذا كان ذلك ما تفكرين فيه: فهو نصب عينيّ أيضاً. أراه بوضوح تام كما أراك. ولكن عمّ تبحثين هناك وماذا تحسبين أنك ستجدين؟ أمِن أمرٍ يتعدّى ما حصل هناك بكل بساطة. أقصد تلك الوليمة التي أقيمت هناك. أرى مسكناً واسعاً كأنه سوق في بلدة كبيرة، إلَّا أنه ليس قائماً وسط بلدة إنما وسط الماء. ويحتل جزيرة بكاملها تقريباً، جزيرة لا تتعدى مساحتها بالتأكيد مساحة المسكن قائمة وسط تلك البحيرة وتغطي تلك الشيء بكاملها تقريباً. إنه منزل مطوّق بالماء، ساطع البياض. حوله مساحة صغيرة من الأرض تكفيه ليحيط نفسه بحزام من الصنوبر والحور والبتولات والأزهار. تلك الأزهار ورود دغلية عجيبة اللون. أتتذكرينها يا نينا؟ كانت تعلو فوق متكآت النوافذ فتعطر الجو هناك إلى حدّ أنها تسبب الدوار، فيما تضيء قاعات واسعة في الداخل. كما لو كانت الإضاءة وقفاً على تلك الورود. كما لو لم يكن ذلك يفوق طاقتها. أوشك العشاء الذي جمعنا، من بين عدد كبير من الناس أن ينتهي والطاولات بدأت بتقديم عرضها المميز: إذ تحولت إلى ساحات معارك مع بقايا طعام تملأ الصحون وبقايا نبيذ في قعر الكؤوس والقناني المقلوبة. على هذا النحو انتهى العشاء. وفي تلك اللحظة علت النغمات المتعاقبة المتسارعة من جهات مختلفة، فبدأنا نسمع شيئاً من الموسيقى. ولكن من تراه تنبه لها؟ من لاحظ أن ضيفاً من الضيوف، رجلاً ناضجاً يدير لنا ظهره، يجلس أمام البيانو ويعزف عليه؟ لا أحد، أقسم بذلك، لا أحد. فالضوضاء كانت عارمة إلى حدّ أن تلك الارتجالات، تلك

الأنغام التجريبية غرقت وسطها. وما كان باستطاعتِكِ بكل بساطة أن تسمعي شخصاً بالقرب منك يكلّمك، ولا تسمعين إجاباتك، ذلك إن تسنّى لك أن تجيبي. وعلى ما يبدو، كان القسم المخصص للرقص مهيئاً في جناح إلى جانب قاعتنا، بالقرب منها تحديداً، ولم يكن أوسع من الجناح حيث مكثنا طويلاً على الطاولات. وتم إخلاء جناح الرقص ذاك كلياً من الأثاث ما خلا بيانو يجلس أمامه منذ بضع لحظات ذلك الرجل يعزف عليه تلك النوتات المتواترة العاجزة تماماً عن اختراق الجلبة السائدة. ولكن يبدو أنه تنبه للأمر سريعاً. فغيّر الموسيقيّ سجل عزفه وارتأى أن يطرق على الآلة من دون أي شفقة: إنما بجنون محرِّر ومنتصر إن لم يكن انتقامياً، وأطلق أنغاماً سرعان ما تتابعت لتطلق لحن فالسٍ، لحناً شيطانياً هو الآخر. إلّا أنه حيوي بما يكفي في كل حال ليطغى على الاحتفال المجاور، الاحتفال المحتجز في الداخل والمنتشي من الصراخ. وهكذا انطلق عازف البيانو بحماسة بعدما أصبح مأخوذاً ومثاراً بطريقة العزف هذه الشبيهة بضربات مطرقة! وبناءً عليه، دعوتك إلى الرقص يا أنطونينا. لم أكن أناديك بعد نينا في الفترة الأولى تلك، إنما ألفظ اسمك بالكامل لشدة لباقتي وخجلي. ولم أكن أعرف في السابق أكثر مما أعرف في الحاضر كيف أضع رجلاً أمام الأخرى، إلّا أنني تجرأت أن أدعوك إلى رقص تلك الفالس. فحينذاك، لم أكن على طبيعتي. إذ شربت كلماتك والنبيذ معاً فانسابوا في حلقي كما لو كان مصدرهم كأس قربان. يا له من نبيذ قداس عجيب! فتراني أثرثر وأدّعي المكر والذكاء مفيضاً في إيماءاتي أكثر مما أستمع

إليك. أجل، فثمالة وجودك كانت تعصف في ثمالة الحفلة داخل رأسي ودمي يغلي. حينذاك، لم تكن تنطبق علينا إلّا الصفة التالية: مجرد عاشقين فتيّين. وكان لا بدّ من التقيد بنزوات الشباب. لا، لم أكن على طبيعتي، لم يكن ذلك الشخص أنا. لا سيما أنك يا نينا كنت فائقة الجمال! وعيناك السودوان المحاطتان بنضارة وجهك، يا لعينيك! كيف كانتا تنظران إليّ ببريقهما المتألّق! تشعّان عمقاً أكثر مما توزعان ابتسامات، ولكنهما في الوقت نفسه تبتسمان بطريقة لا يمكن التعبير عنها، بطريقة البحيرة المتعذّر سبر أعماقها في الخارج، نبع أستمد منه نوري الخاص. آه لعينيك، كيف كانتا تنظران إليّ ولا تنظران إلّا إليّ! أراهن أنك ما كنت تجهلين ذلك. أقصد أنك ما كنت تجهلين أني لم أُجِدِ الرقص يوماً بقدر ما كنت تعلمين كم أنك جميلة. وهكذا نهضتِ فوراً من دون التلفظ بأي كلمة، منتصبةً تماماً. فكنا أول ثنائي يرقص. ورغم صمتك الدائم، لم تكفّي عن الابتسام لي، ولكن لم تكن عيناك المبتسمتين بقدر ما كان سحراً مختلفاً يشع ويبتسم لي، ولم تشيحي نظرك عني إطلاقاً. وهكذا رقصتُ، لا بل تمكنت من الرقص وأحسنت الرقص. كنت أحيطك بذراعيّ أو بالأحرى أسندك، ولكن من دون أن أحملك فما من داعٍ لقيامي بذلك، أو على الأقل هكذا كان انطباعي أم تُراكِ أردتني أن أظن ذلك؟ بطبيعة الحال! فأنت بالأحرى من كان يقودني: مستقيمةً واثقةً، مطمئنةً ومسترخيةً في آن. وإن كان من أحدٍ مسترخٍ وصل إلى حد الاستسلام الكامل، فذلك الشخص كان أنا في نهاية المطاف. ويبدو أنه لدى رؤيتنا نرقص، قرر

الآخرون أن يتحركوا وينهضوا. وكان الأكثر حيويةً بينهم الشاعر المدعو يفغيني غيلفيكوف القصير القامة، لكأنه قزم الأساطير الألمانية المحافظ على كنوز الأرض بشخصه مع لحية تغطي عنقه بالكامل، إلّا أنه يخبىء وراء هذه اللحية عبقرية الإلهام. وما الدليل على ما أدّعيه؟ إنها عبارة وقعت عليها في أحد كتبه فحفظتها غيباً، ومفادها: «إن أصغر زهرة، أذن الفأر، تشهد للإنسان بالحياة الأبدية». لا أستطيع أن أشرح، حتى اليوم، كيف تصرّف مع المدعوين كافة من دون استثناء. فسعى وراء كل من لم يشكل ثنائياً وجرّه إلى الرقص مقدّماً يده أولاً إلى أحدهم، أظنها رفيقته أو المرأة الجالسة إلى الطاولة إلى جنبه. أو قد تكون أول امرأة لمحها، ثم شجعها على الامساك بيد أحد المحتفلين، المراقص الأقرب إليها، وهو من دون شك شخص لا تعرفه، ويعيد الكرة مجدداً فيجعل هذا الشخص يمسك في الوقت نفسه بيد شخص آخر ـ وهكذا جرّهم بهذه الطريقة وصفّهم حتى ألّفوا سلسلة قوامها خمسون إلى ستين شخصاً وشكلوا في النهاية دائرةً حولنا. يا إلّهي، حولنا نحن، أنا وأنتِ يا نينا! إبتداءً من تلك اللحظة بدأت لحظة تفوق الخيال. حزام حماسة يحيط بنا، سياج حيّ يدور في اتجاه فيما نحن في الوسط ندور في الاتجاه المعاكس ونستمر في الرقص. كان الشاعر يقودهم فيزيد عددهم باستمرار، فيما نحن محتجزان في وسطهم وأنت في ثوبك الواسع الشفاف يا نينا، فاستمرينا نرقص وحدنا.

إنه لا يُظهر حضوره ولا يذكّر به إلّا عبر تربيتاته الطفيفة لمساند المقعد. وفي بعض الأحيان أيضاً تتملكه داخل حلقة رغبة في الكلام، فهذا ما يظهر عليه بشكل واضح. إلّا أنه

يعيد ابتلاعها. ثم يخفض رأسه وينظر، ويستمر في ذلك، فينظر إلى الأرض على بعد خطوات معدودة منه، ليس أبعد من ذلك على الإطلاق. ينظر وينظر، ولكن لا أحد يعرف إلَّامَ. ربما كان شيئاً ما سوف يخرج من الأرضية ويوجّه إليه الكلام، وهو وحده سيسمعه وسيرى ما هو. ولكنه يتوصل في النهاية إلى الكلام ويسأل من فوق الطاولة، من فوق الغطاء ذي المربعات البيضاء والحمراء كرقعة الضامة؛ ولكن ماذا سأل بالضبط؟ يكفيه أن يبدأ بالكلام حتى أكف عن سماعه. ولكن ها هو يبدأ من جديد، يجتر ويتقوّل ويستخدم صوتاً منقطعاً مجرداً، متردداً ومصحوباً في الوقت نفسه ببحة ليسأل:

ـ ألا ترغبين في الخروج لبعض الوقت؟

إنها كلمات يردّدها على نحو مثير للشفقة لمجرد أنها تسد حلقه:

ـ ألا ترغبين في الخروج لبعض الوقت؟

ولكن ماذا دهاه فجأةً؟ ففجأةً يضيف:

ـ لقد تعاملنا مع العالم وكأنه إحدى تلك الظواهر الفلكية المسماة الثقوب السوداء. أتعلمين أنها مراكز افتراس لا يفلت حتى الضوء منها؟ فما قولكِ في ذلك؟

ما قولي في ذلك؟ ما عليّ قوله له لو كان يستحق عناء الإجابة: «أنت على الأقل تفتح فاك، إنما لمجرد البصق في الجو». لو كان يستحق عناء الإجابة، وهو بهذه اللحية التي تغطي وجهه منذ ثلاثة أيام. أي جواب أعطيه؟ فما من جواب على لا شيء. الإجابة ستقدمها له تلك الأصوات، إن كان من إجابة تقدمها له. كل تلك الأصوات، إنما ليس أنا. كل تلك الأصوات المتابعة اجتياحها، وورق الجدران

المستمر في نفخ تجعداته إلى الأبد فيما الرطوبة ترفعه عن تلك الجدران، جدران تملأها إطارات بلاستيكية تسعى جهدها لتقلّد الخشب. لا أدري من سيعطيه جواباً شافياً، إنما المهم ألّا أكون أنا. الكلام؟ لمَ الكلام؟ لا حاجة إلى الكلام، وإلّا فما السبيل إلى النسيان؟ نسيان كل الماضي. أمّا هو، فسيصبر. إني أعرفه. سيصبر لدقيقة أو اثنتين أو اكثر. ولكنه لم يكن يتمتع بهذا الصبر في السابق. لقد تعلم ذلك هناك، أظن ذلك، هناك حيث كان... ثم لا يلبث أن يفقد قدرته على الاحتمال، فيعاود كلامه الفارغ:

ـ لا تقولين شيئاً. آه لا، طبعاً، بما أننا ما عدنا اليوم سوى ثقب أسود حيث...

غير أنه بعد وقت قصير، يعيد تكرار ما يلي:

ـ ألّا ترغبين في الخروج لبعض الوقت؟

وأعود لأجد الأغراض نفسها بعد الخمس عشرة سنة سجن مع أشغال شاقة تلك وأضيف إليها بضعة أشهر. وهذا وقت إضافي ليس جديراً الازدراء به. غير أنها لا تتعرفني وأظن أنها تأبى أن تتعرفني، أو بالأحرى تجهلني. تجهلني بكل بساطة، فأنا لم أعد أرِد على لوائحها كما لو لم أكن موجوداً يوماً بالنسبة إليها. والأمر سيان بالنسبة إلى الناس، الأصدقاء والآخرين المتحلين بقدراتهم الذهنية بما أني سافرت في رحلة طويلة يعرفون ألّا عودة منها. فالكل كان يعرف ذلك أكثر مني. ثم عدت وظهرت من جديد! إني أتفرسهم بالكامل. أحسبوا أني كُوبِك مسحوب من التداول استطعتم أن تتخلصوا منه ثم يدسه لكم أحدهم عند المنعطف التالي! عندما ترحل، عليك أن تذعن لرحيلك وتطوي الصفحة. أما إذا عدت، فالمكان الذي تحتله من جديد، هذا

المكان أنتَ تغتصبه. وماذا ينتج عن ذلك؟ ذلك يُنْتِن العالم بعدما أرهقَتْهُ قصصُ الأشخاص المفقودين تلك. وبأي حال، فقد كان مستحيلاً عليك أن تتخلص من ذلك، في حياتك أو في موتك يا راسّك. أما الموت فلقد لمستَه عن قرب ونظرتَ إلى عينيه مرات عديدة ولكنه في النهاية أدى لك خدمة غير منتظرة؛ فبعد الخمس عشرة سنة تلك بالإضافة إلى بعض الأشهر التي قضيتها بصحبته. إتفق أنه ملّ من رؤيتك فأرسلك إلى منزلك. إنها طريقته لتعليمك بأن الأسوأ ليس دائماً أمراً مؤكداً حتى وإن كان الأسوأ في بعض الحالات هو الأنسب. ولكن ما كانت حيلتي؟ علماً أنه منذ عودتي وقد مضى على ذلك ستة أسابيع، لم يبلغني أي خبر عنه. لا بدّ أنه مشغول في مكان آخر. فأنا رأيته وهو يعمل: إنه ليس ممن يتكاسلون أو يحبون اللهو. وفي نهاية المطاف أتساءل إذا لم يكن من الأفضل أن تأنف الأغراض والناس من تعرّفك، بل الناس من رجال طيبين ونساء طيبات أكثر من الأغراض لأنهم لا يرون فيك إلّا الهواء المستحيل تنشقه، ذاك الذي تأخرنا كثيراً حتى ملأنا رئتينا منه بما أن عدد السيارات في شوارعنا ليس كافياً لذلك حتى اليوم. والبعض في الحي كنا نعرفهم بشكل مقرّب وليس بمجرد الهيئة. أما اليوم، فحين نلتقي، يمرون ولا يحدث أي شيء. أو عندما نستقل المصعد مع جيران من المبنى: تراهم لا يأتون بحركة ولا يزعجون أنفسهم، بل يبقون واقفين هادئين ولا يحدث أي شيء حينذاك أيضاً. إن الاعتماد المفرط على الذاكرة لن يجلب لنا إلّا خيبات الأمل. فأين مضت جلسات شرب الفودكا في احتفالاتنا معاً؟ الواقع أن الجميع على حد سواء

مشغولون للغاية ومأخوذون للغاية في عملية استدراك الزمن الضائع وقول كل ما يخطر في بالهم من دون أن يجاذفوا في رؤية أنفسهم مُرَحَّلين، والقيام بكل ما يحلو لهم من دون أن ترتدّ أفعالهم على جلدهم. فما من سلطة تردعهم بعد اليوم. لذا، فكل ما كانوا يحتفظون به في داخلهم ولا يجرؤون حتى على التفكير فيه بصوت خافت، يبصقونه الآن عند كل مفترق طرق ويعرضونه في الأسواق التجارية. من السهل فهم الموضوع، فنحن نستأنف ارتكاب خطيئتنا الصغيرة: الاعتراف العلني، مما يعني ألّا أحد يحرم نفسه من الكلام على الإطلاق. أتتخيلون ما يلي: من دون الاضطرار إلى دفع الثمن؟! الأخذ بالثأر من صمت رقبنا لمدة أطول من حياتنا ونحن ملبودون كحشرة بنت وردان في جحرها. فكروا في ذلك قليلاً! إنهم لا يستطيعون تصديق ما يحصل. لا أحد يستطيع التصديق، علماً أنكم، من أجل كلمة واحدة لم تتلفظوا بها بعد، كنتم ترون أنفسكم منذ زمن غير بعيد تحصلون على علاج في سيبيريا! علاجٍ قد يستمر لبرهة، ولكن طالما هو مستمر، فالكلام هناك لا يزيدُ أهمية عن الصمت، ولا الحياة عن الموت، أو الموت عن الحياة. أما بالنسبة إلى معرفتكم السبب: لمَ تعيشون ولمَ تموتون، فذلك كان سراً محفوظاً بشكل ممتاز، سر دولة لا يجوز إفشاؤه. فأنا في وضع يمكّنني من قول كلمتين أو ثلاث حول الموضوع. ولكن ما الفائدة طالما أني شخصياً لا أفهم ماذا أفعل هنا اليوم، وما معنى أن أكون بنفسي في منزلي، أن أكون نفسي، أن أكون راسّك. أنا من يعتبر أن الروبل ما زال يساوي روبلاً أي دولارين، ومن لا يعتاد على فكرة بسط ستين روبلاً

مقابل دولار واحد، ومن لا ينسى كذلك المجد الذي كان، مجداً كنّا نجسّده في نظر العالم، مجداً تم استبداله بين ليلة وضحاها بمعاطف الزمن الغابر القذرة والرائجة فجأة من جديد، فيا لبهجتنا! المجد الذي كان، مجداً شَرَّفْنَا به الإنسان في ذلك الحلم الجميل، ثم استيقظنا ذات صباح باكر على مجرى النماء هذا، أضخم كارثة عرفتها الإنسانية. بمَ علينا أن نستند في دفعنا عن أنفسنا بعدما تعهّدنا أمام الكرة الأرضية بكاملها وبعدما أقسمنا: بأننا سكرنا لإفراطنا في شرب الفودكا المغشوشة، وبأننا هدهدنا العالم بقصص خرافية، وبأننا فجأةً أخذنا هدنة، لذا سامحونا. فمن الآن وصاعداً دقت ساعة القضايا الجدية؟ ولكن الغريب في المسألة أن مغنّي النظام المرحوم الصادحين الصيّاحين كانوا متنبهين للأمر على الأقل! إذ يدسون بإحدى يديهم ذاك النظام تحت مؤخراتهم، في حين أنهم كانوا ينشدون له المدائح. ويجنون بيدهم الأخرى نقداً مأموناً إن كان من وراء تهاوننا في السابق أو من شقائنا في الحاضر، فيما يكتشفون أن مزابل التاريخ مناجم ذهب فعلية. فمن واجب الآخرين، الحمير المجلّلين أن يحافظوا على إيمان جعل من الكذبة حقيقة ويصونوا ذكراه ويدافعوا عن سمعته! فالأغبياء المساكين الذين لم يعوا بعد ما فقدوه لا يملكون في الحياة إلّا ذاك الإيمان فيتمسكون به خلافاً لكل منطق. أيها المساكين ذوو الأيادي الفارغة، لا تستسلموا وتدفنوا الأمل الذي كان! فأي شرح تعطونه لملايين الرجال والنساء في كل أنحاء الأرض ممن آمنوا بنا نحن من لم نؤمن بأنفسنا؟ وبأي وجه تظهرون أمامهم لتقولوا لهم ذلك، لتعترفوا لهم

بأننا لم نكن سوى أشباه تشيتشيكوف نجوب القارات الخمس ونسدّد بالوعود المعسولة ثمن الأرواح التي ننوي بيعها؟ وإلّا فهل سنقول لهم، هل سنعترف لهم بأننا أول من دفع ثمناً غالياً بعدما أصبحنا نقداً راجحاً وفاقداً قيمته؟ وأي جبين نرفع لنلتمس منهم السماح في ظل انحطاطنا، انحطاط لا بدّ أن نبلغ منه القعر سواء أردنا ذلك أم لا؟ وماذا تراهم سيجنون من كل ذلك؟! فمن منا يهتم بعَوَزهم، عَوَز لا بدّ أن يكون بقدر بؤسنا؟... آل كاراخين ما عادوا هنا كما علمت لدى عودتي. إختفوا هم أيضاً. ذابوا في الطبيعة مثلما أوشكت أن أفعل، لا يتذكرهم أي إنسان طيب القلب ولا نسمع أحداً يلفظ اسمهم. وبالمقابل فآل كاسايف لم يبرحوا مكانهم. ما زالوا حتى يومنا هذا في المبنى. ولكن لا علاقة تربطنا بآل كاسايف. فنحن لم نهتم بالأمر. ولكن كانت تربطنا علاقة بآل كارامزين، وهذا كان سبب شقائهم. فنينا كانت مسؤولة والكل يعلم ما كان يحصل للمقرّبين من المسؤولين: تصيبهم الخسائر قبل الآخرين. وصلت إلى منصبها في الحكم مسدّدةً ثمنه بحياة آل كارامزين والكثيرين غيرهم. فماذا ستفعل الآن وكل هؤلاء العائدين يحيطون بها؟ ذلك إن حصل أن عادوا حتى آخر واحد منهم، فإثبات ذلك يُعدّ من رابع المستحيلات. أتراها تفكر في ذلك وهل استنظرت في السابق احتمالاً مماثلاً؟ أراهن بأنها لم تفعل. وأراهن بأنها أقل استعداداً لحدث مماثل من بين زملائها السابقين الأقل قساوةً. إنها لم تعد تبالي بأي شيء على الإطلاق! وأنا أفترض أنها سبقت أن فكرت في الأمر؟ بمَ كان عليها أن تصرّح حتى يتم إخلاء سبيلها؟ بأنها فعلت ما

كانوا هم ينتظرونه منها: ضمان أمن الأمة والدولة والاشتراكية ككلّ؟ ولكن هل سيفهم هذا الكلام من سيستمع إليها بمجرد أن الأمة والدولة والاشتراكية المشتعلة بدورها ما عادت بحاجة لأحد حتى يضمن أمنها؟ والأفضل من ذلك بعد: بمجرد أن العالم بأسره يحس بالأمن منذ انتفاء وجود مندوبين على الأمن؟ سنرى إذا ما حصل ذلك إن كانت ستتم محاسبتها، أو إن كان على عكس ذلك تماماً سيقوم كل امرىء طيب القلب باختلاق حجة كما اختلقت هي حجة لنفسها، وكما فعلتُ أنا كذلك تماماً كالآخرين. وربما كانت في هذه اللحظة أيضاً تجلف قدميها على دروب وعرة سلكها ضميرها المنسلخ بإتجاه سيبيريا الحميمة. وربما كانت تستنفد أيامها ولياليها في الهرب من لعنة بصرها فيما تجول في كل أنحاء هذا الكابوس الأبدي. مَن يعلم؟ ستتخطى الأمر وتتصالح مع الواقع. ويبقى أن الحقيقة... بالفعل... أن الحقيقة لن تكون يوماً مُغالياً في تقديرها. في الخارج يطرّي الجوَ اعتدالٌ خريفي: اعتدال تشتهر من خلاله فصول الخريف بالكرم في كييف. إني لا أعرف كييف، فالصحراء التي استضافتني لم تجادلني بطقس مماثل، لذا تراني أتلهّف للخروج بشدة... أخرج وأمشي... أذهب من هنا، من رويتوف حتى منزل تولستوي ما دام عليّ أن أفعل. أجل، إلى منزل تولستوي، إذ سيُعدّ ذلك في حالتي كإرادة الذهاب مشياً إلى أورشليم. وسأقوم بذلك لمجرد رؤية ثلاثة أغراض مرة ثانية: أولاً دراجة الرجل العظيم الثابتة العجلة؛ وثانياً طاولة السكافة التي استخدمها لصنع أحذية كان أقرباؤه يخشون انتعالها كما يخشون النار الأبدية؛ وثالثاً سريره:

سرير صبيّ صغير كامن في مضجعه يكشف عن أقل درجة ممكنة من الوقار. كنت أبلغ بالكاد الثانية عشرة من العمر حين رأيت ذلك السرير للمرة الأولى، إلّا أني ما كنت لآوي فيه، إذ لم يكن يناسب قامتي. هل كان الرجل العظيم يتمتع بحس من الدعابة؟ إني أتساءل طبعاً لا بالمقارنة مع غوغول وليسكوف. لا يهم. فالمرور أمام أغراض نبضت بحياة سرية بين يديه، ثمينةٍ بقدر ما تحمل من معانٍ وإشباع نظري بها هما احتمال كافٍ لجعلي بمنتهى السعادة طوال شهر بكامله. ولكن عليّ التفكير بنينا بالتأكيد. فماذا قد تفعل في غيابي؟ ونينا أقل استعداداً مني للخروج والسير في المدينة ومواجهة الناس. تظن أنها فقدت القدرة على استخدام رجليها. من الغريب أن تظن ذلك فيما أنه عار عن الصحة. ولكنه أصبح اقتناعاً لديها ولن تتراجع عنه. فتبقى جالسةً هامدةً بثقلها على كرسيها. ووجهها يُظهر برودة قناع بيّنة، كما يكشف في غموضه عن تعبير شبيه بتعبير قناع مضحك لشدة قسوته وعيناه مفتوحتان على العدم. ولكن، ما لبث أن وقع الحدث غير المنتظر، فهذا القناع تذكّر على ما يبدو بأن الكلمة ما زالت موجودة وأنه قادر على إصدار الأصوات. فلا يحرم نفسه من ذلك، وها هي نينا تتمتم من بعد قرار طويل بالتزام الصمت:

ـ الخروج الآن.

يبدو الصوت كصوت طفيف واهن أكثر مما هو استفهامي أو تقريري بالتحديد؛ فأردد بنفسي لأحاكيه وأؤكد من جديد:

ـ سيكون قد فات الأوان على الخروج في ما بعد يا عزيزتي. أجل، الآن أفضل.

عليها أن تتنزه في الهواء الطلق وتقارب كائنات أخرى وتستعلم عن نمط الحياة الحالي. كما أني مشتاق للتنزه أيضاً!

هل سمِعَتْني؟ أجل، لا بدّ بأنها سمعتني. إذ تنطق ثانية مع أنها تكتفي بالترداد بالنبرة نفسها:

ـ أجل، الآن.

إنها على بُعد أميال من الواقع.

فأقول لها:

ـ لأنه في ما بعد سيكون قد فات الأوان.

ثم ترى القناع بكامله يتصدع وينشق؛ وتبدأ شعلة صغيرة بالتمايل في ثغرة حجاج العين. إن البريق الخافت العائم في هاتين الحفرتين لم ينطفىء بحق الجحيم وإن لم يكن معدّاً لإنارة العالم! ولكن يا للأسف، فنينا لا تجيد سوى تقليد صوتي من جديد، إذ تكرّر:

ـ فات الأوان.

فأقلّدها بدوري بشكل آلي:

ـ أجل، فات الأوان.

ولكنها تفاجئني بسؤالها:

ـ فات الأوان عَلامَ؟

ـ علي الخروج!

ـ آه.

إنه تعجب لا يعبر عن أي تأثر جاء على لسانها ومات على شفتيها. ولكن نينا اكتفت بهذا الحد.

الإصرار على هذا النحو هو بالتأكيد من صفاته؛ فهذا شديد الشبه به. لا يستطيع إلّا أن يصرّ ويعيل صبر الناس.

إنها لذته. لعبة يقوم بها. فتراه يقلق ويتابع اللعبة نفسها. فيقول ليزيد الطين بلّة، يقول على سبيل المثال:

ـ ألست على ما يرام؟ إن صدق أنك لست على ما يرام. . . .

هو من يسأل ذلك! هو بحالته السيئة للغاية. هو من لا ينهي جمله لأن الهواء لا يكفيه أبداً حيثما كان، فيتنفس مُصدِراً خرخرةً تشق الصدر ولكنه لا يقدر يوماً على التوصل إلى إسلام الروح. فليشفق على نفسه! إنه مضحك لو كان من داعٍ للضحك. فأقول له:

ـ أنا؟ لا.

ولكني أراه يحرّك شفتيه، يحرّك فكّيه ويتكلم ويتكلم، فيسيل هراء كلمات كالشراب من بين بقايا أسنانه ويتدفق على شكل كبش القرنفل.

ـ فأصرخ حينذاك أو تراني أصرخ لنفسي:

ـ تباً! هذا يكفي!

لم يسمعني. فصراخي وكلماتي تضيع في النهاية كما يحدث لها دوماً. لقد وُلدت حتى تضيع؛ ولن آسف عليها، فَلْتَضِع إن كان ذلك من أجل العودة إلى مصدرها. يستلزم الأمر أكثر من ذلك حتى تخمد همتي. فأُطلق في وجهه صرخةً قويةً جداً، قوية إلى درجة أنها تطنّ داخل رأسي:

ـ لقد نشر هذا الفم ما يكفي من الهراء. كفى!

فيدّعي الصَمَم ويبدأ من جديد أو يتابع بالأحرى ثرثرته. ويتتالى طواف الكلمات ومسابح الدود. فهو لا يكلّ، أما أنا فما عليّ سوى أن أحتجز نفسي في الداخل وأدفن نفسي في داخلي. ثم أستمع إلى صوتي، فوحده يرنّ كما في السابق، ليس كما يرنّ صوته بالمقابل، ذاك الصوت المعرّض لنزلة صدرية لكثرة ما يستخدمه، لا بل يفرط في استخدامه، وهو

يعرف ذلك خير معرفة. فمن المؤكد أنه يظن بأنه يكشف عن روحه المرحة بهذه الطريقة، تلك الروح المرحة الفظيعة التي كان يتحلى بها في السابق. ولكن ما السبيل إلى الخلاص من صوت هازىء وفم يتلوى بأسنانه المعطوبة ليقول أو يحاول أن يقول أكثر مما يلزم، ويصل إلى حد إزعاجكم:

ـ لن أشدد على ذلك كثيراً في نهاية المطاف.

فأسأله:

ـ عَلامَ؟ ولكن عَلامَ؟

ويجيبني:

ـ على الخروج. فالوضع هنا جيد تماماً كما في الخارج.

يا لبؤس طريقته تلك في تبديل رأيه في آخر لحظة! فدوّارة الهواء التي تدير رأسها في كل الاتجاهات ولا تثبت، لن تتوقف. هذا من صفاته بالفعل. من صفاته أن يرغب في أمر ولا يكف أبداً عن ادّعاء العكس. فلا حدود لعناده في مسألة التردد. ولكنه فجأة يصبح محروماً من الهواء فيلهث ويسعل ويبصق، ويفقد بذلك القوة على المتابعة. لا بدّ أن يكون المرء مغفلاً للغاية إذا تصوّر بأنه سيتوقف رغم كل شيء عند هذا الحد. لأنه وبعدما اشتبهتُ بأنه سيتوقف لبرهة، عاد وانطلق من جديد أو بالأحرى أخذ يدندن. ينغّم على عادته ويرافق نغماته بالعزف، إذ يصفق مسندي مقعده ضربات خفيفة بقبضته المغلقة. ويبذل جهده لملء ذلك المقعد ولكنه لا يملأ إلّا نصفه. ثم تكرّر الأمر مجدداً، ولكن كلّما تكرّر الأمر، قلّ تصديقي لما تسمعه أذناي. آه على نبرات صوته اللعينة تلك التي تعاوده آتيةً من الماضي القديم، من شباب تخطاه الزمن! إنها النبرات نفسها المرافقة لصوته المقيت في الحاضر، ما زالت هي نفسها كما كانت

في الماضي. لا شك بأن المعزوفة لن تدوم طويلاً، ولكنني عرفتها. هي نفسها أيضاً. والمخرج نفسه أيضاً. إذ يستمر من دون توقف في ابتكار مخارج، وبأي هدف: لمجرد تفادي ملل الذهاب في اتجاه أو في آخر، أو الالتزام باليمين أو اليسار، أو الإجابة صراحةً بنعم أو لا على سؤال معيَّن. فلا يمكن أن نتوقع منه تأكيد أمر ما في المطلق أو الايمان بأي موضوع كان. لن يعترف بذلك ولكنه بطريقته الخاصة يعود فيعترف بالأمر ويفضح نفسه. فكيف يمكن لأحد أن يثق بدمية يتم تحريكها بواسطة الخيطان؟ كنا نريد تحديداً أن نتخلص من كل راسك في العلم. فنسحق الشك، نسحقه حيثما يعشّش، داخل البيضة. وبما أن الفرصة متاحة أمامنا، نسحق بالإضافة إلى الشك المشككين والطائشين وأصحاب المراس الصعب والإرادة الضعيفة، حتى آخر واحد منهم. إن كنت أعرفها، معزوفته هذه! إنها تلك الأغنية المكرورة المبتذلة الشنيعة! أتراني أتخلص منها يوماً؟

كان عليها أن تطلق صرخةً. فتعترض قائلةً:

ـ ماذا؟ ما سرُّ هذه المعزوفة؟ ألّا تملّ منها! من تكرارها صباحاً ومساءً؟

فأقول لها:

ـ عفواً، لم أتعمّد ذلك. إنها تنطلق بمفردها. تأتي على لساني بمفردها وتغني نفسها. أبدأ بالتفكير في أي موضوع كان، ليس في موضوع معيَّن بالتحديد، وقبل أن أعي ذلك تكون قد انطلقت. ماذا أفعل؟ أأخبئها في جيبي ثم أضع محرمة فوقها؟ أم أخنق نفسي وأرجع إلى التراب، وأحيّي هذه الحياة فيما أمضي، فأفسح المجال واسعاً لتلك الأصوات التي لا تشعر بالحياء ولا تمل من

الطرق؟ ولْيكدّسِ الوقت أيضاً رفاته على كل شيء، هذا الوقت الطويل، هذا الوقت المجنون لقبوله بأن يكون بهذا الطول، والأبله إلى حد أنه لا يستطيع الاحتمال... لا يستطيع... تمهّل يا راسّك. إهدأ وفكّر: كنتَ قد بدأتَ تفضّل إجمالاً البقاء في منزلك لتحدّث نفسك ـ إلّا أن هذا لم يعد الوقت المناسب لذلك! فبعدما انحنت إلى الأمام بشكل كامل وتشبثت جيداً بالطاولة وأصبحت واقفةً تقريباً على رجليها المتورمتين إلى حد أنهما ستنفجران، ها هي نينا تنهض من مكانها. وها هي تتسبّب لنفسها بألم لا يمكن احتماله لمغادرة كرسيها: فماذا تراها تعتزم أن تفعل؟ أين تأمل أن تذهب بحالتها تلك؟

ولكنها سرعان ما تبرر تصرفها فتقول:

ـ لا يمكن لأحد أن يحتمل البقاء هكذا لوقت طويل. يحتمل قضاء أيام كاملة من دون تحريك حتى إصبع رجله الصغير...

فتتصادم الكلمات في فمها، ومنها ما تتركه أو تبتلعه. فهي لا تتحدث بأي طريقة أخرى منذ عودتي، وفي أي حال فأنا لم أسمعها تتلفظ بهذا القدر من قبل. ولكنها سرعان ما تولّد فيّ انطباعاً بأن الجدار يسد طريقها والطاولة توقفها والأثاث يحاصرها، علماً أن الأغراض حولها كثيرة جداً، وهكذا نكتشف فجأة بأن عدداً كبيراً من الأغراض يحيط بنا. وبما أنها وقفت، بقيت منتصبةً في المكان نفسه، فاتحةً عينيها الخاليتين من النظرات ومن أي حياة نابضة وراء هاتين الحدقتين. فأفكر في نفسي: «إنها تجهل من أي جهة عليها أن تستدير يا راسّك، لذا فأنت ملزم بأن تهبّ لنجدتها مهما كلّفك ذلك من جهد». فأنطلقُ إذاً. ألتفّ حول

الطاولة وأدسّ يدي تحت ذراعها وأخلّصها من مأزق ظنت بأنها أقحمت نفسها فيه. فلا تنبس ببنت شفة ولا تبدي أي مقاومة. ولحظة أحرّرها مما يبدو وكأنه فخ نظراً لكيفية تصرّفها، ولحظة أساعدها على وضع رجلها عند الضفة التي لا يمكن بلوغها فأصل بها إلى الجانب الآخر، وهذه مهمة لم أستطع الشروع فيها إلّا من بعد إزالة كرسي آخر من الدرب، ولكن يبدو أنها نسيت في ذلك الحين مأربها الأساسي كلياً، ذاك المأرب الذي حثها على الحركة: في تلك اللحظة بالذات هزّ ارتجاج قفص السلم. إن المصعد تحوّل إلى آلة بطيئة قديمة، فَرَس نحيل لم نعد ننتبه لوجوده. ولكن ها هو يتوقف محدثاً قعقعة حديد على مستوى شقتنا، أمام بابنا في الظاهر. فأشير بذلك إلى نينا:

ـ إنه المصعد. أحدهم صعد إلينا.

وأضيف على سبيل المزاح:

ـ جاء أحدهم ليزورنا؟ لن نتمكن من الخروج.

مَن قد تخطر على باله فكرة زيارتنا العجيبة تلك؟ لا أستطيع أن أتصوّر الشخص المحتمل أن يقوم بذلك، رجلاً كان أم امرأة. أما نينا فيتملّكها اضطراب غريب. إذ تحرّك يديها كما لو كانت غريقة تبحث عمّا تتمسك به فيما تهزّ الرعشات جسدها. ثم تتأفف وهي تحوزق وتتوقف عن التقدم:

ـ ناس يصلون؟ لا، لا...

ماذا أصابها؟ ثم تتوقف الرجفات ويظهر على وجهها تعبير... تعبير ذعر يرتسم على وجه من يتحضّر لرؤية شبح يبرز أمامه أو ظهور مخلوق جهنمي لا يجرؤ حتى على تخيله. هذا ما يبدو على

وجهها. وفيما الذعر مرتسم على ملامحها، تراها تنتظر وتصغي بعينين جاحظتين فارغتين. ففي الواقع، يبدو أنها تسمع كلمة مبهمة تقمصية مولودة من ذاتها لتعبر عن الرعب. وشفتاها الذابلتان والمرتعدتان وحدهما داخل وجهها البارد والجامد، المصقول كالماس، تُفرغان منه منسوبه الأخرس وتُبرزانه، شفتان قد تستسلمان وتفيضان حتى بالنحيب إن لم تكن نينا تقاوم ذلك عادةً وإن لم تمتنع عن ذلك دوماً. كأنها نُصب لا يتزعزع من الخارج ولا من الداخل لا يمكن لأي قوة أن تجعل نينا تخطو خطوة إضافية، فهي تصغي. أما من جهتي، فأتخلى عن الموضوع وأقول لها:

ـ عفواً يا نينا، لقد أخطأت. فما من أحد. ما من هزّ وما من ضجة صادرة عن البهو الخارجي. سامحيني.

فتتحرر من ذراعي بتبرّم وتدور من دون أي مرونة على مدارها. وبالبطء نفسه ذاك الذي يُغرق جسدها تسوخ تحرّكاتها بعد ذلك فوراً. فتعود بخطواتها إلى خطواتها السابقة. وتستند مجدداً إلى الطاولة مصرّة على رفض مساعدتي، وتستند إلى كرسي، ثم تستند إلى آخر وتعود في نهاية المطاف إلى مكانها، إلى المكان نفسه. وتستعيد موقفها وجمود الصنم المنزلي بعدما عادت إلى وضعها السابق. وفي اتّساع لرقعة سواده، يتفجر الجحيم الكامن في رأسها من عينيها. وبما أنها تعرف هذا الجحيم خير معرفة، تلك التي لا تعرف أن تحلم إلّا بالجحيم، تراها أصبحت الآن بعيدةً بعيدة. فأنفجر في وجهها:

ـ ولكن تعقّلي يا نينا، فالشرطة السياسية لم تعد موجودة! لقد

انتهى كل ذلك! واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية لم يعد موجوداً. هل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية اسم مناسب لبلد يحترم نفسه؟ في هذه الحالة، كيف يدعو المرء نفسه إذا كان مواطناً في ابتكار اسمه اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية: اتحادياً جمهورياً اشتراكياً سوفياتياً؟ هذا سخف، فتعقَّلي. إن أمنا العجوز الطيبة روسيا، روسيا الأزلية تنبعث من جديد من وسط أنقاضها. إذ تمت إعادتها إلى أولادها. إعدتها إلى العالم الذي شهد بذلك حدث القرن. ومن أجل خلاصها، عاد المجانين باللّه يتردّدون على الأديرة من جديد حاملين سلاسل النساك، وعاد المتسوّلون المتجوّلون يجوبون الطرقات. ومن أجل أن تبلغ الأمور ذروتها، فسوق سوخاريف الطيب لذكرى بلغ الذروة جامعاً الباعة والشراة، والنشالين والمهرّجين، والمبشّرين والحمام، والمتشردين... والنخاسين أصحاب العربات المستعملة، وملوك الشطارة، علماً أن الشطارة ضرورية في أيامنا من أجل البقاء، بالإضافة إلى المتسكعين العابثين الطائشين الذين يشكلون بهجة كبيرة للنشالين. الآن يا عزيزتي هو الوقت المناسب للذهاب إلى محلة بريفيا لحمل الزهور وتقديمها في ذكرى الأبطال الذين سقطوا لكي تنتصر الثورة.

من دون أن تبدي اهتمامها من خلال حركة تأتي بها أو كلمة تقولها، أغلقت نينا عينيها. ولكن من بين جفنيها المحفورين كما لو كانا قطعةً من رخام، سرعان ما رأيت دمعة تتسرّب من كل عين، فتجري واحدة واحدة على تجاعيد خد والثانية على تجاعيد الخد الآخر.

فقلت لها من دون أن أصرّ أكثر على الموضوع:

ـ أجل، أصبحنا ناساً ككل الناس في هذا العالم. لم نعد أشخاصاً استثنائيين. فشعرت بالوحي، ورغم أن ما فكرت فيه لن يروق لنينا، صرّحت:

ـ المسيح قام!

إنها عارية تماماً لا يلفّها أي حيك. وهو حجاب أرادته التقاليد أبيض يحوّل النساء اللواتي يدّثرن به ويتعثرن فيه إلى أطياف تتجول في المدينة. وينطبق هذا الحال بالتأكيد على المتقدمات في السن. أما الجيل اللاحق فيجهل نيره هذه الأكفان بفخر، بينما لا تعتبرها المراهقات سوى موضع فضول، بل محط سخرية لا يتصوّرن أنفسهنّ ملفوفات فيه كبب مكدّس في أكياس. إلّا أن العري صفة تُطلق على كل امرأة، متقدمة في السن كانت أم لا، تتخلف عن ارتداء الحيك علناً.

ومع أن ثوبين أو ثلاثة أثواب قديمة الطراز تتدلّى على قامتها واحداً تلو الآخر، فهي عارية تماماً. ولكن قطعة قماش سوداء مربّعة تتدلّى مستقرة على وجهها، مثبتة بالوشاح المطوي على شكل عصابة رأس تحيط بجبينها. فكاد يغمى عليّ عندما لمحتها بهذه الهيئة.

ولكن صباح هذا اليوم من نيسان يغمر العالم بنظرة جديدة،

نظرة عين تستقي من السماء لون الرقة الندية والنضارة الوردية، فتبدو الطريق سالكة لولوج فصل الصيف الذي تنتهي مع حلوله أوجاع الحلق والزكام ونزلات البرد والعلل الأخرى. فالصباح لم يتسم بهذا الصفاء منذ وقت طويل، ولم تكن من جهتك أيضاً صافي الذهن إلى هذا الحد منذ زمن بعيد وأنت تمضي إلى مكتبك يا أستاذ حمد سلعادجي بصفتك محامياً في الرابعة والثلاثين من العمر.

ألّا تظن أن هذا الكلام يعرّف عنك خير تعريف؟

يجمل هذا التعريف في الواقع أبرز صفاتي ويناسب أيضاً حال مزاجي، أو كان بالأحرى يناسبها إلى دقيقة خلت، أي حين كنت لا أزال متأكداً بحماسة بأني على موعد اليوم مع السعادة. ناسياً الجحيم الذي آلت إليه حياتنا. كنت أسير مفعماً بنشوة هذا الصباح، وكأن زاوية من جنة عدن محجوزة باسمي، وكأن الجنة بانتظاري في نهاية طريقي.

وفي بداية يوم جميل كهذا، تقصدت إذاً أن أخطو الخطوة الأولى بالرجل اليمنى وأفرط لهذه الغاية في استنشاق الجرعة اللازمة للتفاؤل. وبما أن رأسي يعج بقضايا ينبغي المرافعة عنها في أي لحظة وفي أي يوم، اعتدت أن أمشي دون أن أتأكد من موطىء قدمي أو أن أهتم لذلك. فأنا لا أقلق كثيراً لهذا الشأن، فبعدما سلكت الطريق نفسها لفترة طويلة، أصبحت هذه الطريق تودي نفسها بنفسها إلى باب مكتبي. ولكني اليوم أشعر بإرهاق شديد خلافاً لكل التوقعات وكأنني مأخوذ بإحساس... كيف لي أن أصفه: ربما بالغريب؟ لنقل إنني أشعر بإحساس غريب، إنما

من الأفضل أن أوضحه. الواقع، أنه إحساس بوجودٍ لمحته من بعيد قلّما يصدر عن المكان الذي تقف فيه المرأة، فيدفعني بفعل قوة قاهرة إلى أن أعود أدراجي بعد قيامي بمجرد خطوات معدودة. وكأنني أدركت مسبقاً هذا الوجود رغماً عني، تمكنت من تحديده وتعرّفت على الطريقة التي تستقر المرأة فيها أمام أنقاض مخفر شرطة دمرته قنبلة مؤخراً. إنها امرأة لم أهتم لها يوماً كما في هذه اللحظة، ولكن الآن وفيما أفكر في الموضوع، أصبحت على ثقة بأنها تقف في المكان نفسه منذ عدة أيام. إنها المرأة العادية الساترة وجهها بحجاب أسود.

أتأملها مذهولاً؛ فلا أدرك ما يصيبني بالتحديد، ولكن فجأة تراني أنطوي على نفسي إثر ذعر أصابني بالغثيان.

يا لها من فكرة بديعة لاستقطاب المارة! فكل من يتنبه إلى وجودها يلقي نظرة عليها ثم يرحل من دون أي تعليق. ويُعد هذا التصرف تصرفاً طبيعياً يسهل فهمه قمت به بنفسي كلما مررت بالقرب منها. ففي ما يخصني على سبيل المثال، فالواجب يملي عليّ بأن أصل إلى المحكمة في الوقت المحدد لأرافع عن قضاياي. ويُعرف هذا العمل بالروتين اليومي أو الرتابة المألوفة التي تغرق فيها الحياة العادية ويرتاح على مهدها الضمير الحي. غير أني الآن تائه بين شعوري النقمة والرعب، ولا أدري أياً منهما يضيّق عليّ بقدر أكبر من العنف.

أما هي فتقف في مكانها ممشوقة القد هزيلة البنية في أثوابها الفضفاضة في طياتها الطويلة وقماشها الحريري الأزرق اللؤلؤي الشبيه إلى درجة بعيدة بلون الخمار والعصابة اللذين يحصران

رأسها. تقف هنا، وأنا أقف بالقرب منها. لم أرَ يوماً امرأةً مماثلة. لا بدَّ أنها تبلغ حوالى الثلاثين من العمر مثلي. لقد شدّني اندفاع جامح إليها، لا سيما أني اعتدت التوجه إلى أي إنسان من دون تكلّفٍ نتيجةَ ممارستي المهنية.

فسألتها بالصوت والحركة:

ـ من فضلك يا سيدتي، ماذا تفعلين هنا وماذا تنتظرين؟

وكنت لأضيف: في هذا الزي المضحك، ولكني أكره أن أسمع نفسي أتفوه بكلمات مماثلة.

مددت يدي باتجاهها، فوضعت على الفور يدها فيها بثقة تامة.

ـ أنتظر يا عزيزي عودة ابني. إنه ولدي الوحيد.

بلَغَني صوتها خفيضاً هادئاً يضعفه الحجاب الأسود.

فانتفضت قائلاً:

ـ ولكن كيف! وأنت تعصبين عينيك بل تسترين وجهك بهذا الحجاب؟ بهذا القناع! كيف ستتمكنين من رؤيته؟ وهل من الملائم أن...

وإذ بها تسحب يدها الموضوعة في يدي لتمررها على الحجاب الذي يخفي ملامح وجهها.

ـ... هل من الملائم أن تضعي هذا الحجاب؟

وكدت أضيف: وتعرضي جسدك، ليس في هذا الزي المضحك فحسب وإنما عارية، إلّا أن نوعاً من الانزعاج دفعني إلى الإضافة:

ـ... هل من الملائم أن تنتظريه في الشارع!

ومن دون أي إحراج، وبعفوية أربكتني أنا حمد سلعادجي

أوضحت لي المرأة ما تقوم به.

ـ الظلمة التي تغرق فيها عيناي وأتجوّل عبرها ستسمح لي برؤية ولدي بشكل أفضل عندما يأتي إليّ. فهو نور حياتي.

لم أتمكن من الرد عليها. ولم أكتفِ بما قالته، فرحت أستعلم عن ابنها:

ـ أين هو ابنك؟ من أين تفترضين أنه سيصل؟

ـ هذا... بالتحديد ما يعذبني: فأنا لا أعرف من أين سيأتي. أنتظره. أنتظره فحسب. عليه أن يمر من هنا.

ـ ومنذ متى تنتظرينه؟

ردّدت لي الكلمات نفسها ولكن بهمس هذه المرة وكأنها تتهرب من الإجابة:

ـ لا أدري.

لقد ارتعش الحجاب قليلاً، فتنفسَ هامساً لها بتلك الإجابة في أذنها.

وإذا بي أسألها:

ـ ألّا تودين أن أوصلك إلى مكان ما... إلى حيث تظنين أنك قد تتمكنين من استعادته؟ سنبحث عنه معاً. المدينة ليست كبيرة إلى حد أنه سيصعب علينا إيجاده.

وأكملت كلامي بصوت خافت:

ـ سنجده بعون الله.

طال صمتها، فهي إما تفكر في اقتراحي، أو تشعر بأن متابعة الحديث غير مجدية، وعليها في كلتا الحالتين أن تحذر من عرضي.

وبعد فترة طويلة من السكون، استعاد الصوت الخافت المحمي عافيته:

ـ هذه هي مصيبتي. فأنا لا أدري بالتحديد.

ـ ولكن من المستحيل أن تبقي واقفة على هذه الحال هنا!

أظن أنني أوحيت لها بهذه الكلمات: عارية وساترة وجهك بهذه الخرقة المخيفة. إلّا أن ردَّها السريع ذهلني ببساطته واقتضابه:

ـ أستطيع القيام بذلك.

وعند ذلك، بدأت تدندن بهدوء ولكن بصوت عالٍ كفايةً ليلفت انتباه أيّ امرىء يمر بالقرب منها:

ـ ولدي يا ولدي. أيها الخيّرون، إن رأيتم ولدي قولوا له: سأبقى دوماً بانتظاره. أيها المحسنون، قولوا له إن أمه تسأل عنه. يا ولدي، يمكنك أن تعود، ولن تسمع مني أي لوم إطلاقاً. كريم هو اسم ولدي...

وعند سماع هذا الكلام، لم أتمكن من ردع نفسي عن التمتمة:

ـ ألله كريم.

ـ أيها الخيّرون، أعلموه بكل ذلك، سيرعاكم المولى حتماً.

ترى هل نسيت وجودي؟ كنت لأقسم بذلك، ولكن كيف لي أن أتأكد في غياب النظرة التي يمكن لها أن تبعث الهدوء في قلبي؟ وهكذا بدأت الهموم تدور في رأسي. فعند سماع هذه المرأة تتذمر، رحت ألعن الحياة تلقائياً، ألعنها مع أنها لا تحمل لي إلّا كل خير. ولكن الهموم تكمل سحق أفكاري.

ما زالت المجهولة تختبىء وراء قناعها عازلةً نفسها عن العالم

تماماً كما في اللحظة الأولى التي دنوت فيها منها، ولكنها الآن تلجأ إلى صمت يبدو ألّا رجوع عنه. أيعقل أنها بصمتها تصلي؟ في قرارة نفسي، أشجعها على الصلاة: صلي، صلي، فالصلاة تبلسم الجروح...

ثم أخذت تردّد الكلمات نفسها، تدندنها عبر قطعة القماش السوداء:

ـ ولدي، يا ولدي. أيها الخيّرون. إن رأيتم ولدي، قولوا له: سأبقى هنا في انتظاره دوماً.

عندئذٍ، اقترب أحدهم مني، هو على الأرجح من هؤلاء الخيّرين أو المحسنين المولودين لهداية الآخرين، وهمس في أذني:

ـ إنها مجنونة. قتل ابنها إثر انفجار في المكان الذي تقف فيه، ففقدت صوابها. أنت تهدر وقتك في الإصغاء إلى هذيانها. ما من أحد يستطيع مساعدتها. وحين استدرت نحوه ورمقته بازدراء، تفاجأ بردة فعلي وسارع بالرحيل من دون أن ينتظر أي جواب.

فقلت للمرأة:

ـ تعالي، سنبحث عن كريم معاً. ما رأيك؟

لم تنبس ببنت شفة، إنما تأبطت ذراعي وسمحت لي بإرشادها إلى الطريق، فهي باتت الآن عمياء كما أرادت في عمق أعماقها أن تكون دائماً، حتى أنها أجبرت نفسها على أن تصبح كذلك.

وهكذا توجهنا معاً بصمت متقدمين بخطى رشيقة، إنما جاهلين في الحقيقة الهدف الذي نأمل بلوغه. وكم تحملنا من نظرات

دهشة وصدمة رمقنا بها هؤلاء المتحدرون من سلالة القردة ممن التقينا بهم في الطريق! ولكنني لا أبالي بهم ولا بأفكارهم.

وبعد وقت قصير، توقفت رفيقتي ودعتني إلى الاستسلام معها. وأخذت تعترض بصوت حزين مفعم بالندم:

ـ يا عزيزي، ليس من هذه الناحية. علينا أن نسلك اتجاهاً آخر.

وبما أنها عمياء وراء بساطها الأسود، لم تدرك على الإطلاق أننا لا نتوجه إلى أي مكان.

فقلت لها:

ـ ماذا تقصدين بذلك؟ أي ناحية نسلك إذاً؟

ـ لن نجده أبداً في هذه الناحية. فلنعد أدراجنا. حباً بالله.

لم تضف أي كلمة أخرى، إنما أجبرتني أن أعود على أعقابي بضغطها على ذراعي. فهي الآن من يرشدني إلى الطريق.

وأدركت سريعاً أننا عدنا إلى نقطة الانطلاق.

فتنبهت لدهشتي وعلقت على الموضوع بقولها:

ـ هذا هو المكان الصحيح. عليّ أن أبحث عن ولدي في الجوار وأنتظر عودته هنا. اختفى حين بلغنا أنا وهو هذا المكان.

تخلت عن ذراعي عندما بلغنا الأنقاض المحروقة المربعة نفسها فيما كان في السابق مخفراً للشرطة.

إنها كالوحش. وحش لم يتبق له إلّا أن ينقض على العالم من العرين الذي ينزوي فيه وينبغي ألّا يخرج منه يوماً. ولكنه ينجز بالتمام والكمال كل ما عليه إنجازه. وإذا بالغريبة تتفوه بكلمات متوقفةً عند كل واحدة منها:

ـ من يرأف بالآخرين يرأف اللّه به ويجازيه خيراً أضعافاً مضاعفة، ويحميه لكل غالٍ على قلبه.

ثم دعتني بطريقتها الخاصة إلى الانصراف، وكاد نَفَسها ينقطع عندما أمرتني:

ـ والآن، عليك أن تتركني. سأبحث عن ولدي بنفسي.

يا لقوة يقينها! فالوحش ليس إلّا أنا، حيوان يجهل معنى الموت والحساب. ولكن قبل أن أبتعد متأثراً، غمرت السيدة بنظرة أخيرة، فبدت لي في وضح النهار غارقة في ظلمة كهف، بل أسيرة كهف مدفون تحت كهف آخر في مدينة أخرى وبلد آخر، لا يسود فيه ولن يسود إلّا الظلام إلى أبد الآبدين. ولكن ماذا تراها تفعل في هذه المدينة النبلاء؟ لمَ تعاقب نفسها؟ ما شأنها بجرم الآخرين؟

بقيت ضوضاء الشارع تعج في خاطري معبرةً عن أمل مبهم: أتراه أمل استعادة الحياة التي تجري دوماً بسرعة أكبر وتتوجه إلى أماكن أبعد في سباقها مع الزمن وتسير على الأرجح معصوبة العينين بقماشة سوداء؟

على مقربة من هذا المكان، سمعت نداء يطغى على تلك الجلبة:

ـ نعناع طازج! نعناع طازج!

وإذا بالنداء يعلو ويقترب أكثر.

ـ نعناع طازج! نعناع طازج!

وظهر فجأةً مسخ أحدب يحمل حزمة أعشاب خضراء تتأرجح على ذراع طويل طويل.

سار مع صراخه في الشارع ومضيا معاً. ولم يتأخر ذلك القزم الذي تبعته بنظري عن الاختفاء بين الحشد. فبدا صوته موسيقياً وشجياً في البعيد:

ـ نعناع طازج! نعناع طازج!

ومرّت سلسلة لا متناهية من السيارات أمام ناظريّ وكأن عددها يفوق العادة.

فتخليت عن مهمة مراقبة الشارع السرية مكتفياً بمراقبة المرأة. هل بإمكاني مساعدتها بطريقة أخرى؟ فكلمات التشجيع التي صدرت عني لم تهدف بالتأكيد إلّا إلى إخماد اضطرابي الشخصي، بيد أنها كلمات تافهة مثيرة للسخرية تركت على لساني طعم الوحدة المرير.

ـ حمد، حمد! هيا، ماذا دهاك؟

وإذا بالصوت يحوّل الحلم الذي تهت فيه إلى أشلاء يبحث فيها عني لينتشلني من كواليس الدنيا. لم تثبط عزيمته. إنما ظل يصرّ على إسماعي كلامه. إلّا أنني لم أسمع إلّا صدى اسمي الواخز يوجّه الإجابة إلى نفسه:

ـ حمد! حمد! لا تهتم لما يحدث لك! أنت تحلم فحسب! هيا، استيقظ!

وشعرت بالكلام يتخطى أسواراً عالية تأسرني، فرحت أقول في نفسي: «لقد بدأ عهد جديد. فالحياة عرفت انطلاقة جديدة حقيقية أكثر في الجهة الأخرى. ولكن الوحش أصر على غبائه، ولم يتخذ قرار تخطي الحواجز وتدمير الأسوار».

تعرفت على الصوت. إنه صوت صالحة. فنحن نتادي بعضنا

البعض بالاسم الأول مع أن هذا لا يحصل عادةً في عائلاتنا. أما أنا وزوجتي صالحة فنقوم بذلك.

فبعدما أصبحت صالحة حاضرة الآن في حلمي أخذت تخطب لتنشر الفرح الذي بات يغمر المكان ويرجع صداه إلى الأبد حولنا:

ـ حمد! لا تهتم للأمر! أنت تحلم فحسب!

وإذا بشخص آخر يتحرر مني ويستمر في الإصغاء إلى الكلام ومراقبة تصرفاته. ولكن ماذا تفعل هذه اليد الموضوعة على كتفي بهزها العنيف لي:

ـ إستيقظ!

إن جسدي يتخبط وينتهب بالذعر. ولكن عندما حدقت بعيني صالحة المنكبتين عليّ، خرجت من الحلم وخرجت زوجتي معي.

تأملت نفسي في هاتين العينين. فنقلتني النظرة الباسمة النيرة إلى العالم الظاهر وأطلعتني على الألغاز المضمرة في آن. حتى أني لم أتعرف إلى صوتي عندما طرحت عليها السؤال التالي:

ـ ولكن ماذا حدث لي؟

ـ ماذا حدث لك! أطلقت بكل بساطة صرخة رعب أصابتني بقشعريرة، ثم رحت تنوح كنفس معذبة. بمَ كنت تحلم؟

فأجبتها من دون الدخول في التفاصيل:

ـ لم يكن إلّا حلماً. لقد انتهى الآن.

تنشقت ببطءٍ جرعات كبيرة من الهواء ونهضت بعد جهد كبير وقد استعدت وعيي الكامل.

لم أعد أرى صالحة الآن.

ولكن ها هي تعود حاملةً بيدها كوباً من الماء. وقالت لي:

ـ تفضل. إشرب الماء البارد. اشربه، سيريحك بالتأكيد.

شربت الماء متنبهاً إلى البرودة تسري في جسدي، مما دفعني إلى التأثر والقيام بالملاحظة التالية: «صوت صالحة كالمياه. كلاهما منعش». عجيب هو أثر الأحلام فطابعها الاعتباطي لا يسمح بالتكهن بأي مخرج أو باكتشاف أي منفذ عندما تحاصرك. ومهما بحث المرء عن الحل، لن يتمكن من التوصل إليه، إنما سيستمر في الدوران حول نفسه. إلَّا أن المخرج في حالتي سهل المنال، إذ يكفي أن أفكر في الاستيقاظ.

شربت الماء بكامله. فشعرت بالراحة التي تحدثت عنها صالحة. وبينما كنت أعيد إليها الكوب، تملكتني نوبة ضحك أحمق تخللتها الحازوقة. إذ فكرت: يكفيني أن استيقظ من النوم!

ـ هل كنت أحلم؟ بالتأكيد!

ـ إن طريقة صراخك تلك تؤكد بأنك رأيت كابوساً. إنه واحد من تلك الكوابيس الرهيبة حيث ترى نفسك في صراع مع أوهام تخيفك.

ـ أجل، أجل، بالتأكيد.

ـ وماذا رأيت في الكابوس؟ أخبرني.

ـ حسناً، كنت أتوجه مسرعاً إلى مكتبي من دون سبب وجيه. فرأيت امرأة تقف في الشارع رافعةً الحجاب عنها، ساترةً وجهها بقطعة قماش سوداء مربعة...

فقاطعتني صالحة قائلة:

ـ هذا رهيب!

ـ ولكني كنت متأكداً بأنها تنظر إليّ من خلال ذلك الحجاب، لأني شعرت بعينيها تحدقان بي. ثم... ثم... لم أعد أدري... نسيت الباقي. وبما أن صالحة لم تصر على سماع النهاية، اكتفيت بما ذكرت. وحيث خلدنا للنوم، بدأ تنفس امرأة نائمة يعلو رويداً رويداً. إنه تنفس ناعم يوحي بالثقة، من شأنه أن يهدىء أعصاب الرجل الممدد بالقرب منها، لا سيما وأن النوم قد طار من عينيه. فإن تمكنت شخصياً من التخلي عن الحلم، فالحلم نفسه لم يرضَ بالتخلي عني. منذ قليل، أعفيت صالحة من سماع القصة المرعبة، ولكنني الآن أرى نفسي من جديد تائهاً بنظري في ظلمة الغرفة، فأدنو من المرأة التي تخفي وجهها بشاشة من السخام. ثم أبدأ بمحادثتها وأسدي إليها النصح وأسعى إلى تهدئتها. أتوسلها أن تعود إلى منزلها لتنتظر ولدها هناك وأحاول إقناعها بأن المرأة المحترمة لا تخرج بلباس مماثل، وبأن الوضع سينتهي على خير ما يرام. إلخ. إلخ.

فاتسم ردها بالبساطة:

ـ ولكن ولدي سيعود إلى هنا وليس إلى أي مكان آخر. فمن سيجد بانتظاره عندئذٍ؟ لا أحد؟ تصوّر ألّا يجد أمه؟

لم تنفع نصائحي في إقناعها بالعدول عن قرارها. وقد تبع صمت طويل هذا الكلام، فرحت أفكر خلاله في حال المرأة: «يا له من صمت طويل! قد تحصل أي كارثة». ولكنها وبّختني بالصوت المخنوق نفسه قائلةً:

ـ أمّ أضاعت ولدها. ربما ترغب في رؤية شكلها؟ هل ترغب في رؤيتها والتعرّف على شكلها؟

دنت بوجهها المقنّع مني، وفيما كنت أتفحصها جاف الحلق، تابَعَتِ الكلام بالنبرة الفاترة والكئيبة نسسها:

ـ هل ترغب في ذلك؟

ظلت المرأة الغريبة تصرّ عليّ حتى استعدت فجأةً القدرة على الكلام ورحت أصيح:

ـ نعم، أرغب في ذلك!

وبحركة سريعة من يدها، رفعت الحجاب الأسود وأبقته مرفوعاً لبرهة من الوقت. لم أرَ أي ملامح تحته، إنما فراغاً فارغاً وحسب. أما قسمات الوجه المرسومة فوجدت مكانها بكل بساطة فجوة دامسة تستفزني.

رفعت الحجاب عن وجهها بنوع من التنازل من دون شك، إنما مصحوبة برغبة في التحدي. ومع أن الحركة التي أقدمت عليها لم تدم إلّا ربع أو عشر ثانية، إلّا أن هذا الوقت الضئيل انحفر في عين الاستقرار قبل أن تسدل الحجاب مجدداً. ورحت أصرخ:

ـ النجدة! النجدة!

لم أكن في الواقع أطلب النجدة، إنما أدعو أي رجل أو امرأة، أي أحد مارٍ في الشارع أن يشهد هذه الفظاعة.

تلك كانت نهاية حلمي: مخيفة للغاية. فلمَ أقصها على صالحة؟

فيما كنت متجهاً إلى مكتبي هذا الصباح، مررت بالشارع نفسه: لأنه يشكل جزءاً من دربي المعتاد. ولكني اليوم أسلكه بنية لتأكد من وجود امرأة مقنّعة، إن كنت رأيتها فعلاً البارحة في

طريقي واكتشاف ما إذا كنت أهذي فحسب. أردت باختصار أن أعرف إن كنت أتوهم وإن مهّد هذا الظهور في الحلم الواعي للكابوس الذي رأيته في الأمس. فتوجهت نحو نقطة التلاقي المفترضة الحتمية، مسلحاً بكل فرضيتي وبفضول حذر ومضنٍ إلى حد ما، قائلاً في نفسي: «بعد كابوس مماثل، ينبغي إجلاء الحقيقة. عليّ فعل ذلك». رأيت الدخان يتصاعد من أنقاض المخفر الذي دمرته قنبلة الإرهابيين ورأيتها هي نفسها، تقف جامدة على الرصيف نفسه تحرس المكان. فإذا بي أراقبها من الرصيف المقابل من دون أن أخطو أي خطوة إضافية. لم تعد تنتحب كالبارحة: أنا واثق بأنها تعرّفت إليّ وبأنها تحدّق بي عبر الحجاب. فحتى ولو كان المرء وسط حشد. ولو كان يدير له ظهره، فهو يشعر إذا ما حدّق به أحد. حتى ولو لم يعرف من يحدّق به تحديداً.

رحنا نتفحّص بعضنا البعض من جهتي الشارع. إلّا أني كنت أقوم بذلك مكشوف الوجه، أما هي فلا. وماذا بعد؟ وإن كان نظري مأخوذاً، مأسوراً بغياب نظر تام؟ إنه لسؤال عبثي، ولعل طرحه أكثر عبثية أيضاً. لذا أكرهت نفسي على الابتعاد عن هذا المشهد الحزين وتابعت طريقي موجهاً ناظريّ إلى الأرض. وبعد بضع خطوات، أدركت بأن حياتي انطوت على نفسها وطوت معها كل ما رأته في الخارج لتحفظ سره في الداخل.

طلب بنفسه الرحيل إلى براغ هذه المرة، أو بالأحرى طلب العودة إليها. لم يقدم نعمة أي حجة لدعم طلبه، ولم تفرض عليه إدارة صحيفة أخبار العالم، ساتلايت إنفو، أن يعد أي بيان يبرر دوافعه، بل سمحت له بالسفر. وهذا أفضل ما قد تقوم به من أجله، فنعمة الرحّال محقّق صحفي كبير يُعَدّ (أو كان يعدّ؟) من ألمع العناصر في فريقنا. ولعل القيمين على الصحيفة اعتبروه كذلك أيضاً وقرّروا أنهم لا يجازفون في الوثوق برجل غطى في الفترة الأخيرة الأحداث المستجدة في هذه العاصمة بالأسلوب الأكثر احترافاً و\الأذكى في الوقت نفسه من بين الصحافة العالمية كلها. وإذا رأى بالتالي أنه من الضروري أن يعود إلى براغ، فهم على ثقة بأنه لا يذهب إلى تلك المدينة بناءً على قرار طائش أو تلبيةً لدعوة امرأة فاتنة محتملة. لذا منحه أرباب العمل بركتهم.

هل من الضروري التذكير بأن آخر عمل رائع قام به لم يكن الأول من نوعه؟ لقد تخطى نعمة مرحلة تقديم الاثباتات على

قدراته المهنية أو جديته منذ زمن. وشهادةً للحق أقول إني أعرفه شخصياً حق المعرفة ولا أصدق بالتالي أنه قد يقدم على رحلة لأسباب شخصية على حساب الآخرين ولا سيما على حساب أخبار العالم. وبالحديث عنه، أتريدون معرفة شعاره؟ ألّا يكون مَديناً لأحد. إذ لم يسمح لنفسه بذلك يوماً. ولكنه في الوقت نفسه هادىء وجريء بتصرفاته وصريح بكلامه. إنه رجل بكل ما في الكلمة من معنى، يحظى برضى المسؤولين التام ولا يضطر أن يؤدي دور المتذاكي أو المتفاخر حتى يفضلوه على غيره. وينال أعلى التقدير من موظفي الصحيفة جميعهم، من موزّع الصحيفة إلى مدير التحرير فيها. كان يختلف بأفكاره عن الآخرين، إلَّا أنه يحتفظ بها لنفسه. فآراؤه ونزواته لم تظهر يوماً في مقالاته أو حتى في محادثاته معنا. وأعترف أن تصرفه كان لائقاً جداً. ولكن ما بالي أتحدث عنه فجأةً بصيغة الماضي؟

وبما أن اللجنة الإدارية لم تجد إذاً على حد علمي، أي مانع في رحيله ولم تسجل أي اعتراض على هذه الخطوة ولم تناقش حتى الموضوع، فقد منحته بركتها بالإضافة إلى أوراق الاعتماد اللازمة حتى بات نعمة مزوداً بحساب لتسديد نفقاته أشبه بحساب الأمراء.

منذ رحيله، لم يردنا عنه أي خبر. وما زلنا لا نعرف شيئاً عنه مع أن سنتين قد مرّتا. سنتان بالتحديد! ولم يعد بعد.

لا يبدو المسؤولون في أخبار العالم متأثرين جداً بغياب مماثل يطول باستمرار من دون أي مبرر، فلا تراهم يسارعون إلى إلقاء الضوء على اختفاء نعمة في المجهول. إنهم لا يتحرون عنه، ولا

يحاولون البحث عنه ولا يباشرون حتى بتقصي المسألة، إنما تراهم يلجأون إلى إيمان مثالي بنعمة ـ أو لعله تحفظ غريب؟ أمر يدعو إلى القلق.

لا أوافق على هذا الرأي المسبق، حتى لا أقول على هذا الاحتقار. ومع أني أستطيع التفكير في الموضوع كما يحلو لي، لا يحق لي أن أبدي رأيي. ولكن هل يمكن أن يلفّ الصمتُ... صمتَ زميلنا إلى الأبد؟ من الصعب البت في الموضوع. فنعمة معروف بصمته. غير أن ضرورة شرح ما يحصل ستفرض نفسها عاجلاً أم آجلاً. وسيضطر القيمون على الصحيفة أن يقدموا تفسيراً، حتى ولو جاء متأخراً. أما الآن فَجُلّ ما نعرفه هو أن الأموال الموضوعة تحت تصرف نعمة في مصرف براغ لم تُمس بعد، ولم ينقص منها أي فلس.

نعمة الرحَّال. قد يعجب المرء من رؤية رجل يحمل اسماً مماثلاً، ولا مأخذ عليه في عجبه هذا لأن الاسم عربيّ اللفظ بشكل فاضح. وفي الواقع، فصديقي هو من أطلق على نفسه هذا الاسم، وأسمح لنفسي باعتباره صديقاً بحكم العلاقة الوطيدة التي تربطنا ببعضنا البعض. لقد استوحى هذا الاسم خلال سلسلة من التحقيقات أجراها في العالم العربي، فسمع عن الطائر الكبير العجيب العربي المنشأ النعامة، وهو مجنّح يعجز عن الطيران فلا يقوم إلَّا بالعدو على الطرقات. وهكذا اعتمد صديقي الاسم بعدما حذف حرف الألف من لفظة نعامة. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يوقِّع كتاباته إلَّا باسم هذا الطائر اللعين، ومن الغريب كيف التصق به ذلك الاسم على الفور. نعمة الرحَّال! يا له من اسم

غريب عجيب، كما لو كان مبتكراً له وحده! أما الاسم الذي حصل عليه منذ ولادته، فأعترف بامتناعي عن استعماله مع أني صديقه الحميم، وينطبق الحال نفسه على معشره الاعتيادي ومعارفه كافة: فما عاد أحد يناديه بطريقة مختلفة، بلفظها العربي الصحيح أو الخاطىء لا فرق.

إن سنحت لكم فرصة الالتقاء بطائر النعامة كما حدث لي، سترونه مغبراً ومجعداً وضخماً يرفع عنقه. سيظهر لكم بهذا المظهر الثابت طائراً متشرداً، قصير القامة بشكل مفرط، يرتدي سترة رسمية التقطها من سلة المهملات. ذلك المتسكع المتمسك بعادة التجول على طرقات غريبة لا حدود لها إلّا الأفق الذي تضيع فيه. لا يمكن ضبطه إلّا سائراً بنزق رافعاً منقاره كسكين بحدين، لأنه يريد نضع ثبت على قدميه. يقال إنه ينتمي إلى فصيلة الروحد ولكنه أكثر هزالاً وصغراً وعزلة. وهل من الممكن أن يكون الوضع مختلفاً، لا سيما إن كانت حياتك البائسة كطائر تسير دائماً باتجاهين، صحيح أو معاكس فحسب؟ يتوجه طائر النعامة مباشرة إلى الأمام بخطى ثابتة وصمت مطبق من دون أي رفيق أو رفيقة. ولا يمكن التأكد من أنه يتمتع بصوت يسمح له بقول ما يريد. ويشبه نعمة الطائر الذي يتجوّل سيراً على الأقدام ولكنه يفعل ذلك بأسلوب إنسان متأنق يعتني بأناقته من فرط ما يلبس سروال الجينز الأزرق كما يلبس أي لورد لباسه الرسمي لحضور سباق إبسوم للخيل؛ فهو رجل محترم مثله ينسجم مظهره مع وجهه حيث تظهر له أخاديد على كل جنب منه بالقرب من أنفه، أنفٍ يشبه سكيناً بحدَّين أو غمداً. والعجيب في شكل رأسه

أنه يُعد نسخة طبق الأصل عن رأس النعامة ويتناسب تماماً في الوقت نفسه مع رأس قرصان دبغته زوبعات مدّ البحر بعلامات أبدية. لا نعرف كيف اتفق أن حصل ذلك، ولكن هذا هو الواقع.

لِمَ لا يعود من مغامرته في براغ؟ ماذا حلّ به؟ كم من مرة طرحت هذه الأسئلة على نفسي بعد رحيله منذ سنتين. ولكن، تمهّلوا قليلاً، فأنا لست في صدد إعداد بيانٍ عن موته مع أنني أهتم بإعداد هذه الزاوية في الصحيفة. إلّا أن الغياب في مجال الصحافة ولا سيما لسنتين يعتبر مدة طويلة، طويلة جداً إلى حد أن الجميع نسيه، وكأنه لم يكن يوماً عضواً في أسرة التحرير، بل وكأنه لم يكن موجوداً أبداً. إنه تصرف لائق، أليس كذلك؟

وحلّ يوم الجمعة الواقع فيه 13 نيسان/ أبريل. أراد الشيطان في هذا اليوم أن أكتشف في بريدي الصباحي ظرفاً من الورق الصر أصابتني رؤيته بصدمة كبيرة. فهو موجه إليه بالفعل. إذ قرأت اسمي وعنواني مكتوبين عليه بأحرف متلاصقة ورفيعة إلى حد أنها بدت محفورة حفراً على الظرف. وقرأت في أعلاه عبارة مسطرة مكتوبة بالخط نفسه بالعرض داخل الخانة اليسرى مفادها: لا تفتحه حالياً. إنه خط نعمة! عرفت خطه من دون أن أصدق ما ترى عيناي بالفعل. وكلما تفحّصته، كلما ازدادت دهشتي. فعاينت الجهة الأخرى من الظرف ورأيت أنها بيضاء تماماً، خالية من أي كتابة تسمح بتصرّف المرسل. ولكني كنت متأكداً من أنه نعمة، ومستعداً للقسم بذلك. ثم انتقلت إلى الختم البريدي

المدموغ في دائرة مع تاريخ الإرسال وقد جاء فيه براغ. إن نعمة هو من بعث الرسالة، لا شك في ذلك.

شعرت بالدم يتخبط في رأسي وبنظري يتشوش، فخفت من أن يؤدي اضطرابي إلى نوبة عصبية أو انفجار دموع، أو أي حالة عبثية مماثلة.

تغلبت على انفعالي هذا الصبح. ولكني ما زلت أشعر ببعض الاضطراب رغم أن هذا الحدث سمح لي بشكل غير مباشر باستعادة نشاطي. إذ نفحني بالحيوية والتفاؤل فيما كنت بأمسّ الحاجة إليهما.

كما أني فكرت في الموضوع واستنتجت أني الآن أواجه معضلة. وأي معضلة! يا لهذه اللعنة! فإما أحترم طلب نعمة (لا تفتحه حالياً) الموضّح بكلمات تامة، وأبقي الظرف مختوماً كما تسلّمته، أو أتجاهل الطلب وأفتح الظرف واكتشف... لا أدري ما قد أكتشفه. سأكتشف من دون أدنى شك أسباب صمته، أو ربما خبراً مختلفاً تماماً! لا أقوى على تقبل فكرة غيابه عن هذا العالم. فمجرد التفكير بهذا الاحتمال المخادع يشكل أفظع إهانة أوجهها إليه. إلّا أني للأسف لم أهتد إلى حل هذه المشكلة رغم ذلك.

فأي قرار أعتمد في النهاية؟ أأفتح الظرف؟ أم لا؟ ترددت لبعض الوقت، ومن ثم رحت أتساءل وأؤجل من يوم إلى آخر. وإن كان نعمة غارقاً الآن في ورطة كبيرة، فما نفع احترام إرادته عندئذٍ؟ من الواضح أني أجادل في الموضوع ولا أتخذ أي قرار. لذلك أمسكت بالظرف من جديد وجسسته مراراً وتكراراً، إلّا أن

بطانة القطن التي تغلفه لا تسمح باكتشاف ما في داخله. لن يحوي بالطبع أي ترّهة كبيرة الحجم، إنما غرضاً مسطحاً خفيف الوزن، مستطيل الشكل، سماكته نسبية، ويشكل أحد أطرافه حشوة. هل هو مفكرة؟ يا ليت!

لقد دفعني هذا الظرف اللعين إلى فقدان صوابي. وبما أنني أعرف نفسي تماماً، فأنا متأكد بأني لن أتمكن من صرف النظر عنه وتمزيقه. فإن فضضت الختم قد يتحتم عليّ ألّا ألتقي بنعمة إلّا في الجنة، فإني أخشى أن أتلقى خبراً سيئاً عنه وأكتشف أسراراً مزعجة. وفي هذه الحال، سأبدو بمظهر الأبله - بل بمظهر الخائن.

لم أقوَ على الصمود. ففتحت اليوم الظرف وأنا في حالة اضطراب شديد كادت تفقدني صوابي. ومن الأفضل أن أحاكَم على نواياي، لا على أفعالي. إذ كان عليّ القيام بذلك. فماذا قد يتغير إن استمريت في تأجيل ذلك إلى الغد؟ وإن كانت ملاحظة نعمة رسمية؟ مرت سنتان ولم يعد! كم سنة عليّ الانتظار بعد؟

ينطوي الظرف على مجرد مفكرة كما توقّعت: دفتر عادي زواياه مثنية، غلافه أسود اللون مصنوع من الكرتون الملوّن، يجمع خيط حديدي لولبي الشكل بين أوراقه المربّعة الخطوط. تم استهلاك كل الأوراق فيه، ويظهر الخط نفسه على صفحاته كافة: ذاك الخط الدقيق الرقيق المستخدم لكتابة العنوان والإشارة لا تفتحه حالياً. بالتأكيد أعرف هذا الخط! إن السر الذي ينطوي عليه هذا الظرف هو الآن أمام ناظريّ ينتظر مني أن أقرأه. فبدأت بالقراءة. أقرأ لأتحمل مسؤولية ما قمت به بالكامل وأبرر نكثي

لطلب صديقي. إلّا أن كلام نعمة وحده هو ما ينبغي اتباعه من الآن فصاعداً.

أورد ما كتبه نعمة صفحةً تلو الأخرى كما جاء بالتحديد من دون إنقاص أي حرف أو تغيير أي كلمة.

تعرّفا إليّ ما إن ولجت المبنى الواسع. مررت للتو بمكان التفتيش التابع للشرطة في المطار وتوجهت نحو المخرج وسط حشد من الوافدين إلى البلد حاملاً حقيبتي على كتفي. هنا تحديداً اعترض كلاهما طريقي. ومع أني اصطدمت بهما، لم أستطع أن أتعرف إليهما. كنت أتوقع رؤية إيفو وجيري بين الحشد الذي ينتظر المسافرين. إلّا أني لم أرَ أياً منهما. فلا أثر لهما. لم أرَ سوى هذين الشخصين بالمشمعين الرماديين.

وقلت في نفسي: هكذا إذاً فهما هما يعرّفان عن نفسيهما مدّعيين أنهما من لجنة الاستقبال بهيئتيهما المضحكة. حاولا اطلاعي على أمر ما يصعب عليّ فهمه: فهما لا يتفوّهان إلّا بلغة أجهلها هي لغتهما، ويجهلان كل اللغات حتى الإنكليزية، لغة العالم اليوم. مع أن إيفو وجيري أخبراني بأنهما سيكونان حاضرين عند نزولي من الطائرة.

ألقيت نظرة لوم على الشخصين الواقفين أمامي. إنهما نموذجان لمواطنين عاديين وحزينين تشبه عينا كل منهما قطعتي نقود غائرتين في وجهيهما. قد يخجل أسوأ مؤلف روايات بوليسية من ابتكار شخصيتين مثلهما ترتديان مشمعاً رمادياً مماثلاً. فهل انتدبهما إيفو وجيري لاستقبالي لأنهما مشغولان بأمر آخر؟ حسناً!

رفعا ذراعيهما قليلاً ودلاني سوياً على لافتة الخروج الواقعة

على مسافة قريبة فوق واجهة زجاجية. فتوجهنا إليها معاً بخطى موحدة. وبعد قليل انتقلنا إلى سيارة سكودا ما زالت بإمكانها أن تسير وتطلق حتى مفرقعات مرحة. فجلسا في المقعد الأمامي متحفظين ومتصلبي العنق، بينما جلست بمفردي في المقعد الخلفي. يفترض بهذين الشخصين أن يقوداني إلى الفندق، وتلك مهمة بالغة الأهمية يقومان بها بكل فخر واعتزاز وبجدية توافق المناسبة بامتياز: إذ اقتصرت المحادثة بينهما على بعض كلمات تذمر يتفوهان بها بصوت خافت وبترتيب عشوائي. أضفى هذا التصرف الغموض عليهما، فهما من الأشخاص المستعدين أن يُبقوا اسم مدينتهم طيَّ الكتمان. إن العهد الاشتراكي لَمْ ينتهِ بعد.

ولكنني أعرف مدينة براغ خير معرفة، وتلك ليست على الإطلاق المدينة التي نجوبها منذ فترة. فهي لا تضم صفوفاً مستقيمة من الشوارع المتسخة، ولا أبنية شاهقة أو أبراجاً وظيفية معدّة للبروليتاريا، هي الإبداع الوحيد خلال قرن كامل من التطور الهندسي. وإذا بنا نتحول عن الطريق الرئيسة لنسلك طرق براغ الخلفية. مساحة شاسعة استحالت نصباً تذكارياً من الفحم يتصاعد منه الدخان ويرثي على حاله بعدما اندثرت الصناعة الثقيلة في غياهب التاريخ.

من الأفضل أن ألزم الصمت وأنتظر لأرى إلى أين تنوي أن تتوجه سيارة السكودا القديمة الطراز، إنما النشطة في الوقت نفسه.

لن أنتظر طويلاً، فالسيارة توقفت سريعاً وسط هذا الجحيم

الخالي من أي عاطفة. وبما أننا بلغنا المحطة النهائية، ترجّل الجميع من السيارة. فرأيت أمامي قصراً مصنوعاً من المقوّى العجيني ومؤلفاً من قوالب إسمنت مرصوفة حديثاً، إنما بدأت تتقشر ولكنه يوحي بالهيبة بفضل واجهته الزجاجية الشاسعة ذات اللوح الواحد. يندرج هذا القصر في إطار فن الفقر المستقبلي السوداوي نفسه. أهذا هو الفندق؟ عرفت أفضل منه في براغ. أين نحن؟ لم نبلغ براغ بعد. لذا تراني أتحقق من الجوار. ولكن أينما كنا الآن. فهنا الممكن أن يشعر المرء بأنه بعيد عن الحضارة، ويبدو أن هذا هو الموقع بالفعل.

حدقت بمرافقيّ الفارسين وكتمتُ نَفَسي وتمالكت نَفْسي ولكن ليس لفترة طويلة. إذ صفع كيلي منهما ورحت أركل الأرض مُحْدِثٌ ضجة قوية:

ـ أريد براغ! وَسَطَ براغ! ليس هذا المكان!

فما كان منهما إلّا أن رفعا حاجبيهما المشعَّثين رداً على إيمائاتي واعتراضاتي معاً. وأخذت قطع النقود التي حلت محلَّ عيونهما تنظر إليّ. ثم بدأت تلمع. وهزّ الغبيان رأسيهما سوياً ورددا بتناوب الكلام التالي وكأنهما ينقضان اتهامات خاطئة:

ـ براغ، لا فندق، لا غرفة.

ما من فندق! ما من غرفة! أترون ذلك؟ بدأت أظن بأنها مؤامرة وبأن كل ما حصل لي لم يكن مزاحاً. إنها بالتأكيد مؤامرة. فجأةً حضر في بالي سبب عودتي إلى براغ، فرحت أتساءل: من علم بالموضوع؟ لم أثق بأحد، ولا حتى بهرِّي السيامي نقطة الختم.

وقبل أن يتسنى لي أن أوجِّه إليهما شتائم لن يفهماها في جميع الأحوال، انتهت مهمة الشريكين المتواطئين فتبخرا كالأشباح وضاعا في رائحة العفن المنبعثة من تلك السيارة التي تبدو وكأنها تحرق الخُث. وبمجرد اشتمام هذه الرائحة يدرك المرء بأنه في بلد في الشرق، حتى ولو كانت عيناه مغلقتين.

لا يختلف داخل الفندق عن خارجه، فكلاهما مبتذل. إنه مكان قد يحلم فيه المرء بعد أن يكون قد توفي. فهو يشكل تماماً كغرفتي في الطابق الأول ممراً عاماً لتشويهات يستحيل إصلاحها، وسنراها على حالها حتى لو نزلنا فيه لمدة ألفية بكاملها. تظهر هذه التشويهات على الأثاث الوظيفي داخل الغرفة، مع أن النظرة الأولى توهم الزائر بتنظيم معين. إلَّا أنه تنظيم فظيع بلا شك ينطبق على الفندق بكامله فيحافظ من خلاله على شيء من الترتيب، ولكن أي نوع من الترتيب هو، وما المقصود منه؛ هنا يكمن السرّ الخفي.

ولكن هل شعرت يوماً بانبعاثات غاز هي أنتن انبعاثات يمكن أن تلوّث جو مدينة تطاردك في ملاذ مماثل؟ إن ذلك ليس القرف الوحيد، إذ يبقى لحاف الريش الضخم المحدّب في وسطه فوق كل من السريرين. لِمَ هما سريران! كفاني طرح أسئلة. تمددت على السرير الأقرب بعدما ألقيت بحقيبة السفر على الأرض. يا لفرحة الغرق في حمام من الريش. يا له من وضع مهدىء للأعصاب، وقد بدأ الليل المريب يسدل ستاره ويغمر مقعد الغرفة إلى حدِّ أنني... عجباً،... لقد... لقد... غفوت.

لم أدرك ما حلّ بي إلَّا لحظة شعرت بشيطان، اللّه وحده

يعرف ما هو، يجرني من إصبح رجلي الصغير ويجلسني على مؤخرتي ويريني ما يصعب عليّ تصديقه بأم عيني: إنه رجل ليس اللّه ولا حتى الشيطان يشاركني الغرفة. سنه يقارب سني وقامتانا متوافقتان، ولكنه متين البنية أكثر مني ومصاب بصلع متقدم يبدو أني لن أصاب به إلّا بعد وقت طويل.

إنه حالياً يرتب أغراض الحمام الكثيرة التابعة له ويضعها كلها إلى جانبي المغسلة، لا سيما وأنني قد تركتهما خاليين. لم يعرني أي انتباه، إنما كان يرتب أغراضه من دون وعي، بهدوء عبر حركات دقيقة. إن لم يكن ما يحصل معي مؤامرة مدبرة ضدي، فماذا يعني ذلك وكيف يمكن تفسيره؟ ثم أعود بالذاكرة مرة أخرى وأتساءل: ألم يصدني رجلا المطار مباشرة لدى نزولي من الطائرة ما إن وطئت رجلاي أرض مدينتهما الغالية؟ هل فارقاني لحظة واحدة قبل أن يسجناني هنا في مكان يقع في اللامكان؟ إن دماغي يغلي من فرط التفكير. حاولت أن أقنع نفسي بالقول: «إن هذه الأحداث ليست إلّا مجموعة صدف. أنت تهذي يا نعمة وتختلق قصصاً تتعبك وحدك». لن تشعر بالراحة حتى ولو ألقيت اللوم على نفسك. إلّا أني أصرّيت على المتابعة بالأسلوب نفسه: «بحق اللّه، من يشكّ في أسباب ظهورك مجدداً في مدينة يَان هُوس ومن يهتم لذلك؟ لا أحد. أنا مستعد أن أقطع رأسي إن لم يكن ذلك صحيحاً.

ماذا يحصل لي؟ أتراها حبة جنون يبتلعها كل من يطأ أرض براغ؟ أخذت أراقب كل حركة يقوم بها الدخيل فيما نصف

جسدي غارق تحت اللحاف، ورحت أحك رأسي حين بدأت الحبة تتغلغل عميقاً.

وضعت نفسي مكانه، فتساءلت إن كان أحق مني في اعتبار وجودي غير لائق. فمن منا نحن الإثنين الغريب في نهاية المطاف؟ ولكن يبدو أنه مرتاح لمشاركتي الغرفة ويعتبر الوضع طبيعياً. أما أنا فلا، ولست آبه كيف سيتقبل ذلك. فهل نحن في مصح ليلي؟ وإن رميت به خارجاً؟ عليّ أن أوبخ مدير الفندق الذي وضعه في هذه الغرفة لأكلّل مهمتي بالنجاح.

ولكني ما زلت أجبر نفسي على البقاء هادئاً. سنمضي هذه الليلة كيفما كان وغداً أفكر في الحل، على أن أحرص على مكالمة إيفو وجيري في الصباح الباكر. فإن كان لي أعداء في هذه المدينة لا سمح الحاخام لوي بذلك، فلديّ أيضاً أصدقاء فيها. وبعد أن اندس شريكي في الغرفة في سريري، وجّه هذا المواطن الأصيل ناظريه إليّ للمرة الأولى. فبدا لي أن حجمه تضاعف كما أراه الآن مستقراً على السرير بسروال صغير وتبّان، برجليه وكتفيه وذراعيه العارية الكثيرة العضل، ولكن من الممكن أن يكون النعاس قد بدأ يغشّي لي نظري. لامسني بعينيه الفاتحتين الرماديتين أو الزرقاوين قبل أن يندس في سريره. يظن المرء دائماً أنه قبلة أنظار الآخرين؛ ولكن الأمر لا يعنيكم، كما أني لا أستطيع أن أؤكد بأنه رآني.

إلّا أن هذه الليلة كانت طويلة طويلة.

إني اليوم على موعد مع الأخوين بريش في حوالى الساعة الواحدة في أوبرا غريل على الديفالدياني.

إنها الساعة الثانية عشرة والربع. ما زال الوقت مبكراً بعض الشيء، ولكنني سأذهب سيراً على الأقدام من أجل الفسحة وفي سبيل حبي لبراغ. أحب التنزه في براغ حتى في هذا الوقت الذي يسبب الزكام والالتهاب الرئوي. فعند حلول فصل الخريف، تتلوث المدينة وتنطوي على نفسها في اجترار داخلي معدٍ، فتصبح بدورك مرتعاً لفيض من الحنين واجترار الأفكار...

مررت من جديد بواشنطنوف حيث بدأت للتو أسير في أحيائي المفضّلة وصولاً إلى ديفنديني مع العلم بأن نزهة مماثلة تستغرق ثلاثة أرباع الساعة. ورغم أني أجريت المكالمة الهاتفية باكراً، لم أجِد أي صعوبة في محادثة جيري، أحد الأخوين بريش، فمن يحدّثه يكون دائماً واثقاً من تحقيق هدفه. وبعد نصف ساعة، سمحت لي سيارة فندق إسبلاناد بالعودة حوالى قرن إلى الوراء على الأقل للتعرّف على المدينة، من حداثة الضواحي الظاهرة في الاسمنت الرقيق، إلى زخرفات العهد الباروكي الرائعة الممثلة في قصور عائلة هابسبورغ. فما إن تكلم الساحر حتى انتهى عهد التشاؤم المؤسساتي تماماً كما انتهى عهد التشوش!

إزداد طعم السخام والمعدن على لساني فيما رحت أتنشق روائح البنزين الكريهة مضافة إلى دخان الضباب. ولكني كدت أصل إلى ساحة ونشسلاس الكثيرة الازدحام.

ما الدافع الذي حملني على القيام بهذه الرحلة مرة أخيرة حتى بات يطاردني كالهوس؟ لهذا الدافع اسم خيالي تماماً: نِيا. حتى أنه اتخذ شكلاً محدداً بوجه وجسد وهيئة. يا إلَهي، أن أُغرم بامرأة إلى هذا الحد! ماذا؟ قد نختبر هياماً مماثلاً! ولكن ما من

شعور مماثل، أقسم بذلك، إلَّا إن أمعنت النظر في هذه الحالة. ليست نيا سوى مجرد تلميذة أصبحت بسرعة فائقة امرأة تملك أسلحة لطيفة للإغراء. لا أنكر أنه خلال إقامتي الأخيرة في هذه المدينة لَفَحَنا تيار من الود الصادق على ما يبدو، ولكن هذا الود لم يتطور إلى علاقة جدية. أما الاندفاع الذي يحملني على اقتفاء أثرها من جديد، فيعود إلى نظام آخر، إلى طبيعة أخرى، تماماً كسرعة التزامي بهذه المهمة.

ولكن منذ وصولي إلى براغ، بدأ هذا النظام وهذه الطبيعة يتبدلان ويفقدان قوتهما وسطوتهما بشكل غريب بالنسبة إليّ، وكأنني صيّاد بدأ الآن ينسى أي طريقة ينوي اصطيادها، فتتوه عنه غاية الاندفاع في مغامرة جنونية مماثلة، وكأنني أتوجه نحو هدف واضح أمامي ولكني أراه ينهار ويندثر كلما اقتربت منه. فلشدة ما يبدو لي وضعي مريباً في هذه المدينة، بل غريباً حتى، أصبحت مستعداً أن أوضب أمتعتي وأعود من حيث أتيت مثل فلاح بسيط.

في بحثي عن تبريرات، أبحث عن هويتي الضائعة، ولكني لا أجد أي جواب على سؤال: هل فقدت صوابي؟

لدى نِيا في الأساس صفة براءة انتفت من قلوبنا نحن البشر. ربما ما زالت تظهر على وجوه أشخاص متقدمين في السن أو طاعنين في السن كالخالات الرائعات والجدات العطوفات؛ إنما ليس على وجوه رجال مثلي إبان الشباب أو الشباب أنفسهم والصِبْيَة والأطفال، فهؤلاء الأطفال هم آخر من يجسّد قمة لغز البراءة هذا. فالبراءة بقيت لغزاً بالنسبة إليّ إلى أن أدركت أنه يتحلى بوجه واسم وأن القدر (؟) وضعه في طريقي. إلَّا أنه لم

يصبني بعد في المكان الذي يجهل المرء على الدوام ما يدور فيه، فأقسمت على نزع القناع عنه والتحديق في عينيه وتحديه. إن قلبي يجثو أمامه بالتأكيد؛ ولكني عازم على استخدام قواي كافة في هذه المبارزة. أجهل أي رابط قوي ومميز أبصر النور بيني وبين نيا، مع أن الإدراك يضيع في شعور مماثل ويغرق في الغموض قبل أن يظهر من جديد، ومع أن الريبة تسيطر عليّ وتغوص روحي في بحر من الشك.

أرفع صلاتي اليوم.

نيا، نيا، أنتِ من يأسر وجودكِ الجو ويمجده ويغمره ليضيع فيه فنتنسمه ونتنسمه نحن من حولك... طالما أنكِ في متناول نَفَسنا ويدنا. وفي حال اختفيتِ لساعة واحدة فحسب، ينقطع الهواء عنا، فنحرم منه ونفقد صوابنا ونعاني من نقص يستغرق إدراكه وقتاً طويلاً نكون خلاله قد انتقلنا إلى رحمته تعالى! فلا يبقى أمامنا سوى أن نفقد الحياة ونبتعد عن الحقيقة ونغرق في ليل عميق.

إلَّا إن أردت الانبعاث من جديد لأقترب منك فقط يا نيا، أنتِ من لا يجرؤ العالم على إثبات نزاهته وصدقه أو اكتساب الادراك الكامل بوجوده أو العيش بسلام من دونك، وهذه حالنا نحن أيضاً: تلك هي الوقائع. آمين. (ولكن أي لعبة تلعب يا نعمة؟ كل ما تقوم به لا يمت إلى الجدية بصلة!) تلك هي الوقائع. آمين.

ما إن دخلت المطعم حتى وقعت في لحظة تأثر غامضة، فتنبهت إلى نيا تجلس بين إيفو من جهة وجيري من جهة أخرى

وكأنها تنعم بحمايتهما. لم ألمحها إلَّا من الخلف عبر ضوء المطعم المفعم بالدفء. إنما يستحيل أن أكون مخطئاً، إنها هي. هذا آخر ما كنت أتوقعه! ماذا يجري؟ هل يمدّ لك القدر والآلهة يد العون؟ تعتبر مساعدتهم هذه قيّمة جداً إلى حد أنها تفوق الخيال. لعل الأخوين بريش قاما برشوة القدر، أو أصرّا على الفتاة، بل خدعاها لتقبل أن تأتي إلى الموعد المحدد.

لا بدَّ أنهما بحدسهما ونباهتهما الفائقة لاحظا خلال إقامتي السابقة في براغ سحر نيا، وافترضا أنها تتألق بهذا السحر في عينيّ وتتزين به من أجلي، فقاما بدعوتها اليوم إلى هذا اللقاء. ماذا يظنان تحديداً؟ سأعرف ذلك لاحقاً. لن أستبق الأحداث.

يُعد هذا المطعم من المطاعم الكاتدرائية السائدة في البلاد التي تفرض نفسها عليك بضخامتها. هل الوقت متأخر أم مبكر حتى يكون ربع المقاعد في مطعم أوپرا غريل مشغولاً؟ حددت موقع أصدقائي من النظرة الأولى. فلقد اختاروا الجلوس في عمق الصالة، إنما بمواجهة الباب الرئيسي المفتوح على مصراعيه. يبدو الشابان والفتاة ضائعين قليلاً مع أن الطاولات المشغولة تشكل مجموعات حميمة وفريدة من الأصدقاء. أما هؤلاء الأشخاص الثلاثة فيتحدون في جسد واحد حول الطاولة وكأنهم يعدون مؤامرة له. ولاحظت من النظرة الأولى أيضاً أسلوب محادثتهم: رؤوسهم متقاربة وصوتهم خافت بالتأكيد. فمن قد يأخذ على عاتقه مهمة رفع صوته في ظل هذا النور الخافت الشعائري الصادر عن قناديل محجوبة وخشب يملأ المكان بشكل مفرط فيصل حتى

السقف، ومنه بشكل خاص تلك التلبيسات الجدارية المزخرفة القاتمة والعالية؟

حين وضعت يدي على كتف جيري والتففت حول المجموعة الصغيرة لأجلس مقابل نيا على المقعد الشاغر، وقف الثلاثة في آن معاً للترحيب بي. إلّا أنني هدّأتهم بحركة من يدي ودعوتهم إلى الجلوس. فجلس إيفو والفتاة. أما جيري، رجل المبادرات، فظل واقفاً وراح يعرّفني إلى نيا مع أنه يدرك بأننا على معرفة سابقة. فأفحمني قبل أن أتفوه بأي كلمة، أو يسمح لي الوقت لأتخذ وضعية مناسبة لحالة مماثلة. وأكمل على عكس ما يمليه الصواب محدقاً بي بنظرة مخيفة وقاسية ومرعبة وأعلن لي:

- إنها لايي، صديقتي.

لم أستطع أن أنطق بكلمة، بل رحت أقول في نفسي: «لا، أنا أحلم بالتأكيد. ما الذي يحدث معه؟».

وإذا به يجلس بهدوء على كرسيه. أما أنا فلم أبدِ أي انزعاج، إنما استرخيت على الكرسي. هكذا إذاً، لقد بدّلت نيا اسمها. منذ متى؟ هل حدث هذا التغيير بعدما غادرت براغ المرة الأخيرة؟ ولكن ما هو الموضوع بالتحديد؟ هل هي خدعة؟

أما هي، فيا ليتها اعترضت أو حتى رمشت بعينيها اللتين تفترسانني بهدوء، وكأنهما عينا تلميذة تحدق برجل ناضج. ماذا حصل بحق الله منذ أن غادرت هذا البلد؟

لم نتوقف أنا وهي عن مراقبة بعضنا البعض خلسةً. لم أرَ جيري يوماً يتصرف بهذه الطريقة، فهو يحتكر الكلام الآن ويصر على عرقلة أي تدخل أقدم عليه أو مقاطعة أنطلق فيها. كما أنه

يرهقني بطرح أسئلة سريعة عليّ لا ينتظر إجابة عنها، إنما يجيب بنفسه بجواب أو أكثر أحياناً. ويستفسر أيضاً عبر هذيان كلامي عن انتقالي إلى براغ ورأيي بالفندق الذي اختاره لي بنفسه، لا سيما وأنه يقلق على راحتي. وهذا ما حملني على التفكير في أن الخيبات التي حصدتها البارحة قد أثرت فيه حقاً، فلم يسامح نفسه عليها، وكرر لي اعتذاره مرات عديدة. ولكنني اعترضت قائلاً:

ـ أأشعر بالراحة؟ كما لو كنت في قصر! لن أحلم بمكان أفضل من هذا الفندق.

وافقني الرأي راضياً عما قلته وأضاف أنه مع جموع السياح ـ لكنه لم يقل الحشود الفوضوية؛ أما أنا، فلو كنت مكانه، لكنت استخدمت هذه العبارة المتدفقة على براغ، يصعب... ثم ذكر مرة أخرى وبندم شديد الاستقبال المزعج الذي تشرفت به عند نزولي من الطائرة، وتابع الحديث عن بلبلة نقلي إلى فندق في الضاحية. وأطال الحديث عن هذه الحادثة مع أننا ناقشنا الموضوع طويلاً هذا الصباح خلال المكالمة الهاتفية.

فزايدت عليه قائلاً في نفسي: «نعم! إنه كالمحشر! حتى الكلب الأجرب يأبى العيش فيه».

ثم كررت ضاحكاً ما قلته في نفسي، إنما بصوت عالٍ هذه المرة:

ـ إنه كالمحشر! حتى الكلب الأجرب يأبى العيش فيه. كيف رميتماني في مكان مماثل؟

إستخدمت عبارة «الكلب الأجرب» عندما تحدثت إليه عبر

الهاتف. فانفجر ضاحكاً بدوره، تماماً كما فعل خلال المكالمة الهاتفية: لا شك عندي بأن ما قلته له أثّر فيه ولم ينسه. حتى أنا لم أنسَ أي كلمة تفوهت بها، إذ ينبغي ألّا أفعل. وهكذا أعلن بفرح أنه يتحمل مسؤولية مصائبي كلمةً وعتذر لي مجدداً. فقلت له:

ـ إنسَ الموضوع الآن. ما همّني من ذلك!

أما بالنسبة إلى الموضوع الأساسي، فلم أجبه سوى بإطلاق بعض الأصوات المعبّرة أو الإجابات المضحكة والسخيفة.

وفضلاً عن إلغاء نفسي من المعادلة، توصلت إثر تبادل الحديث بيننا (وأنا خارج المعادلة) إلى انطباع قاتل بأني خاضع للرقابة. فعليّ ألّا ألفظ اسمها بإطلاقاً وألّا أتوجه إليها كما لو كنت أعرفها منذ زمن بعيد، فيما تجلس هنا أمامي. فليكن. شعرت طيلة فترة الغداء بغرابة، فيما لم يسعَ جيري سوى إلى إمتاع الشبح المختار الجالس مكاني وإذهاله بوابل من الكلمات الطريفة بأسلوب مرح وغريب ـ فسكّان براغ هؤلاء حوّلوا مدينتهم إلى باريس الشرق!. إنطلق جيري يتحدث على هذا النحو رافضاً أن يعرف أن ما من أبله من مقر السلطة يبح صوته من كثرة صراخه بموازاة طاولتنا، ومتناسياً الخطر الذي يحدّق به. إلّا أن ظل الانزعاج الحقيقي المخيم على الجو ليس قاهراً أو متعباً إلى حدّ أنه يُفقد الزبائن الرغبة في الأكل والشرب أو الكلام.

إرتوى لقاؤنا من مُسكر الخوخ التقليدي المجيد وقد حافظنا على المظاهر، فافترقنا مبتهجين للغاية ومؤمنين بمودة خارت بشتى الطرق بعد ثلاث ساعات بالتحديد قضيناها سوياً. عندئذٍ، حدث

ما لم يكن في الحسبان: إذ عانقتني لايي كمراهقة وقبلتني. وفي تلك اللحظة، أحسّ ذاك الصحافي الحقير ذو القلب الفظ بمشاعره تتحرك وتهتز.

لم ينبس الشاهدان ببنت شفة، إنما رحلا من دون أن يعلّقا على الموضوع وهما يضحكان بالطريقة الغامضة والمتواطئة نفسها.

بعد عشرين خطوة أو أقل، أو بالأحرى لنقل إن الأمر تطلب قيامي بعشرين خطوة كنت فيها لوحدي حتى أدرك أن الغداء كان عبارة عن ارتباك مؤسف. هل يعود هذا الارتباك إلى تدخل عنصر غير متوقع مثل لايي؟ أهو انقلاب مسرحي فجائي متعمّد لصالحي حتى أتعلم منه درساً؟ كيفما فكرت في الموضوع، فهمت أن اللقاء اتسم بالإخفاق التام. كنت أتأمل الكثير من هذه المقابلة الأولى وأظن نفسي قوياً كفاية لأتمكن من إجبار الأخوين بريش على تقديم بعض الإيضاحات... إيضاحات استحقت أن أعود من أجلها وتبرر وجودي في براغ.

استحقيت الوعود المعسولة المغدقة عليّ. يا ليتني على الأقل تحدثت مع نيا أو لايي أو أي اسم أراده جيري لها. أضف إلى ذلك أني لم أنجح في سؤال هذه الفتاة عن أحوالها بسبب تدخل جيري لبتر أفعالي. فلم أتمكن من التعبير عن فرحي برؤيتها من جديد، أو مبادلتها الإطراء لدواعي المجاملة. ولكن لِمَ أصرّ الحقير جيري إلى هذه الدرجة على مناداتها باسم لايي طالما أنه من الواضح أن رفيقتنا الفتّانة على الطاولة هي نيا؟ لماذا؟

عليّ أن أستغنم فرصة أتحدث فيها معه على انفراد، فأتصرف معه بحكمة. لدي متسع من الوقت لأقوم بذلك. فقبل هبوط

الطائرة في براغ، كنت ما زلت أشك في أن هذه العملية ستثير المتاعب حتى لمن يفوقني حنكةً. ولكني اتخذت التدابير المناسبة وسأبقى هنا الفترة اللازمة لإنجاح هذه المهمة. وسأتحلى بصبر أيوب للوصول إلى هدفي.

قد تسنح لي الفرصة لتحقيق ذلك مساء غد خلال لقاء اتفقنا أن يتم في حانة يوكاليشا.

لعلّي حافظت على المظاهر. لا سيما عندما رضيت بتحوّل نيا إلى فتاة تدعى لايي إلى حد أنني نسيت إن كنت قد التهمت أي لقمة طعام على المائدة. لم أتوصل إلا إلى نتيجة غير متوقعة لم أفكر فيها البتة. وهي أن لوجه اللغز مزدوجاً ينبغي توضيحه، فكيف لها أن تكون لايي، إن كانت لايي موجودة حقاً، وتكون نيا في آن معاً؟ وفي أي حال، من منهما هي نيا؟ مع أن جيري لم يقل ذلك حرفياً. ولكنه لمح بأن لايي ليست نيا على الاطلاق. ولكن العناء الذي تكبده لإلغاء إسم نيا من الحديث هو عمل بطولي أعاد هذا الاسم إلى بساط البحث. وأقسم بأن نيا ليست سوى لايي نفسها.

لذا أعود لأتفقد الثلاثي وهو يبتعد عني، فأرى لايي، إن كان عليّ مناداتها بهذا الاسم، أراها تمشي بين الرجلين وكأنها تخضع لحمايتهما. إنها أكثر شبهاً بتحفة ثمينة تمت إعادتها في ختام المعرض إلى هالكها السعيد. بقيت جامداً كالتمثال أتأملها بإعجاب تذوب كشبح بين سائر الأشباح عبر رذاذ الدخان الذي يغمر المدينة.

سلكت رجلاي الطريق وحدهما فقادتاني على طول الفلتاخا،

ولكنني لم أدرك تماماً إلى أي مكان أتوجه لأني مأخوذ بالتفكير بهاتين الفتاتين. وإذا بي أحلم: «وإن كانتا فتاتين مختلفتين، فأيهما نيا وأيهما لايي؟ وإن كانتا الفتاة نفسها!».

دفعتني هذه التحليلات الخالية من المنطق، بل قل هذا الهذيان، إلى التقدم، فتراني لا أسمع إلَّا هدير النهر كالهمس يتكسر على الأوتاد التي تعترض سيره. أرى ولا أرى إلَّا قصة شعر غلامية ترتد إلى الوراء، وطرة على الجبين، وعصابة رأس مقوّسة تحت الأذنين تحيط بشعر أسود فاتن يزيّن وجهاً مثلث الشكل، زنبقي اللون مظلّل القسمات؛ فيعود بي هذا المشهد إلى أيام خَلَت، ولكني أراه الآن تماماً كما يرسمه لي ريعان الشباب. فليخبروني ما أرادوه: ولكني لم أتبين في ملامح الأنوثة هذه إلَّا نيا، أما لايي، فلم ترسخ في ذهني. فملامح هذه الشابة هي ملامح نيا نفسها الحادة إلى درجة الهزال حيث تضفي عليها لمسات مستحضرات التجميل نقاءً بادياً. أما عيناها، فهما عينا نيا أيضاً، عينان رماديتان مأسورتان حتى الشدة بفرح الحياة وواقعتان تحت جبين تحميه طرة الشعر. كما أنها ترتدي ملابس نيا نفسها: سروالاً أسود ضيقاً وكنزة ومعطفاً من اللون نفسه، ولم ترتدِ المعطف إلَّا عند الخروج من المطعم.

لا أفهم ماذا يجري بالتحديد. هل قام جيري بخداعي بالاتفاق مع أخيه وتسلى على حسابي؟ ما الهدف الذي يسعى وراءه؟ أم ترى الأمر أكثر جدية؟ سأثير هذه المسألة حتى ولو تحتم عليّ أن ألاحق الأساطير إذا ما تدخلت براغ وأشرارها في الموضوع.

ولكني سأؤمن دائماً بحسن نية الأخوين بريش وبصداقتهما

وذلك لسبب بديهي! فلن أخسر شيئاً بل على العكس. لا أنكر أني تركت نفسي جزئياً، وبالإصرار نفسه على الربح، أصدق القصة التي لفقاها لي. لم تتدخل الأخرى في الحديث، إنما اكتفت ببسط نظرها الماسي الثائر والبارد في آن. نظرة لي النيِّرة المميزة، متخذة الاحتياطات المناسبة وراسمة ابتسامة على ثغرها. أجل، أخذت تبتسم، إلّا أنها لا تبدي ابتسامتها إلى شخص معيَّن، سوى إلى وجهها الآخر البيّن بعناية في عالم المجهول والمنسحبة من الساحة والتي وحدها تستطيع رؤية لي ومناداتها باسمها عند الضرورة، مع أنها كانت تجهل ما تتحدث عنه وتلتزم التحفظ.

إنها لمخلوق غريب. إن لم تكن لي، فمن هي إذاً؟ هل هي أختها التوأم؟ لو كانت كذلك، لما أخفى جيري الموضوع عني. ربما كانت تنتمي إلى فصيلة أخرى مختلفة عن فصيلتنا.

(هيا يا صديقي، لمَ لا تقول يا نعمة إنها قد تنتمي إلى جنس آخر بما أنك تتكلم عن الموضوع؟ ولكن في أي كتاب عن الحيوانات ستكشف هذا الجنس؟ هيا، كفاك هذياناً. لم يقم جيري وإيفو إلّا بالمزاح معك متجاهلين الأذى الذي قد يلحقانه بك ليس إلّا. فكر يا نعمة في الجانب الإيجابي. فبعدما سرت بلا هدى في أقاصي الأرض، لم تتسنَّ لك يوماً فرصة الالتقاء بشخصين طيبين مماثلين).

ولكن ما هو دور الفتاة المحمية من قبلهما في هذه المؤامرة؟ أي وظيفة تؤدي هذه الفتاة المنطوية على نفسها مع تلك الابتسامة اللجوجة على ثغرها في هذه المسرحية الكوميدية بمظهرها الشارد واليقظ إلى حد يزرع الخوف في قلب من يراها؟ هل كان لديها

دنى فكرة عما يقومان به منذ البداية؟ لم تتفوه بأي كلمة، إما بخيار منها أو بلا مبالاة تامة. وهي محقة تماماً في اعتماد تصرف مماثل خلال فترة الغداء اللامتناهية تلك. ما هي الكلمات التي كانت لتتفوّه بها شفتاها الرائعتان لو تكلمت؟ لا أجرؤ على تصور ذلك.

إن ترددت على مدينة مختلفة وزرت أماكن أخرى تجوَّلت في طرقات هائماً من شارع إلى شارع، لكانت النتيجة مطابقة: فمغامرتي هناك ستحدد لنفسها غايتها وحدودها المطابقة للأولى.
لم تحن بعد الساعة الخامسة بعد الظهر.

بدأ شفق من الرذاذ والصخب والدخان يضيّق على براغ ويسعى إلى القضاء عليها. فبراعم النور بدأت تتفتح في السماء كالطفح لجلدي الحارق. وها هي تدور في الجو لتطحن الرطوبة القاتمة.

إنتزعني من أفكاري طيف لمحته فجأة يسير أمامي ثم يبتعد متباطئاً. يرتدي معطفاً مثنياً على كتفيه وتضرب أطرافه بجانبيه فيما يعيق ذيله مشيته. يظهر لي هذا الطيف داكن اللون قصيراً وسميناً وشارداً يكلّله نور الشارع القوي. عند رؤيته قلت في نفسي: حالته مأساوية. يبدو وكأنه ينتمي إلى زمن آخر أو يتقدم على لزمن بعشر خطوات». إلّا أنه يقتفي أثري بهذه المشية المتعثرة. وأشعر بأنه يسير بنشاط مماثل في الشوارع الضيقة حيث تبين لي أنني تهت. ومع أني مقتنع بأني عرفت الرجل، ترددت لبعض الوقت، ثم باشرت بملاحقته بكل ثقة إلى أن تمكنت من الامساك بذراعه وإجباره على الالتفات إليّ؛ فواجهني مستديراً بخطوة واحدة: إلّا أنه لسوء الحظ لم يكن مَن توقعت! يا للخطأ

المعيب، يا للوقاحة، إنه ليس بيتهوفن العظيم! وعندما فتحت عينيّ المخبولتين تعرّفت المكان، فإذا به مالتيزكي نامستي حيث اختار بيتهوفن أن يسكن منذ قرنين. أيتها الأشباح، أشباح براغ، إلى أي حد ستصلون في خدعكم للناس بدهائكم هذا؟ لم لا تظهر الأشباح إذاً على طريقي عند منعطف طريق ضيق مماثل وفي مساء مماثل؟

أجهل على ماذا أو على من أتكل من الآن فصاعداً. لقد رميت بنفسي في كابوس ومنذ ذلك الحين، رحت أظن أن شيطاناً تهكمّي الضحكة لا يرحم، يلاحقني ويلازمني كظلي. (عزيزي نعمة، ألا تظن بالأحرى أنها ليست سوى مسألة من التهرب يرثى لها. وعبثاً من الآن فصاعداً أن تختار: بين التصرف بشكل أفضل منذ هذه اللحظة، أو البقاء عبداً إلى الأبد، فلا يبقى أمامك في هذه الحال سوى أن تعود أدراجك؟).

إلَّا أن هذه المدينة رائعة رغم كل شيء. إذ تتقن فن الإغراء وإغواء المرء لتتخلى عنه شرّ تخلٍّ لاحقاً. أما ما تحضره لك من عجائب وغرائب فسيصيبك حتماً بالجنون، جنون يسري في الهواء، والهواء متخم منه؛ وإن تنشقت تلك الروائح الكريهة، يحق لك برؤى شريرة أو طوباوية، كما يتفق لها أن تظهر. ولكني لست ممن يسكرون بالرؤى ــ لا سيما الطوباوية منها، كتلك التي ظهرت عليّ ظهر هذا اليوم في المطعم على سبيل المثال. فأنا معاند وميال إلى تحريك المياه المتيقظة، ولا أنال إلَّا الخير مما أقوم به. أما علاقتي ببراغ فعلاقة رهان على جولة قمار. من منا سيربح الرهان؟ هذا سؤال عبثي، إذ لا بد أولاً من انتظار النهاية،

ثم القلق على الإجابة إذا اقتضى الأمر ذلك. ولكن عن أي رهان أتحدث؟ مَن الغبي إلى حد التوصل إلى الادعاء بمعرفة ذلك؟ لا أجيد ذلك. الواقع أني صحافي في مهمة، فهذا ما أجيده. وتقتضي وظيفتي التطفل لأن إعداد التحقيق يفرض على الصحافي دائماً التورط في المشاكل إلى أبعد حد ممكن والمرور في تجربة جديدة، ففي الحالات كافة لن يبقى لك إلَّا حفنة من القمامة تنزلق بدورها من بين أصابعك. ولكن في حال كنت تمسك بغرض ما، اعتمد طريقة أتبعها عادة: فقبل أن تتحمس لما تراه، إسأل نفسك إن لم يكن مجرد إخفاق آخر من جديد.

ومع أن هذه المدينة متورطة في المؤامرات، عليك ألّا تخشى أبداً مما قد تفاجئك به متبعة أسلوب اللعبة داخل علبة موسيقية. فأنا أدرك تماماً بأن مدينة براغ الحقيقية لا تحمل إلَّا ضربات مخاتلة صامتة، ولا تهب أسرارها إلَّا إيماءً وتلميحاً وحتى همساً. ويستعير هذيانها القاتل صوت العرّافة الساحر. وربما كان هذا بالتحديد ما عليك أن تتخوف منه.

ولكنها ستقبل بأن تلجأ إليّ أنا وتثق بي حتى. وستجيب عن أسئلتي من دون أي غاية في نفسها، كرمى لسواد عينيّ فحسب.

إن الرهانات مفتوحة، إلَّا إذا أحرجتني وحشرتني في زاوية كحيوان يحلو افتراسه من خلال مزحة مزعجة من ابتكارها. وفي هذه الحالة، أواجهها بدوري فأبيّن لها قدرتي على شن الهجوم. فما من أحد سيرى النعامة الرحال واقعاً في الفخ يوماً، فأنا لم أولد البارحة.

إن الأبراج وقبب الأجراس وتماثيل الملوك والقديسين والآثار

كلها تلك التي ترهق براغ انتشرت بلا هوادة داخل السقف القرميدي الملبد بالظلمات والأزمنة الغابرة. أما هدير الفلتاخا فأضنته الأيام وكتمت أنفاسه إلى حدود المسموع في ضياع لا ينضب. وتقيأت الظلمة أشكالاً وأرواحاً يكاد تلوح داخل الظلام، ولكنها تُسرع أو يبدو وكأنها تسرع هاربةً لتتشتت بعد ذلك بنظرة خاطفة ومفارقة جذلة ولكنها لا تمضي من دون أن تسمح لزوبعة من الخوف والسحر والتبصر بالدوران مكان كل واحدة منها.

أما الرطوبة العفنة من نهر الفلتاخا فأصبحت أكثر كثافة الآن ويبدو أنها تتصاعد من وسط المدينة محملةً بروائح نتنة فاسدة لتغطي داخل المقاهي والمباني المصطفة على جانبي النهر وتمحو في النهاية ملامحها. ولكنها تستثني المصابيح بأنوارها الأكثر حدة ووضوحاً تحت الرذاذ. وهكذا قررت أن أعود إلى الفندق. هل سأتمكن من إيجاد الطريق؟ بما أن مدينة براغ التي أعرفها أَفَلت مع النهار، سلكت الطريق بشكل اعتباطي وأنا أشعر بثقل في معدتي بسبب ما تناولته من طعام مع أصدقائي. لذا، لن أتناول هذا المساء إلّا سندويشاً وأشرب جعة لا أكثر أمام التلفاز في غرفتي.

فليذهب التلفاز... إلى الجحيم! من الأفضل أن أرقد لأستعيد عافيتي، فرأسي يؤلمني إلى حد أنه يكاد يتدحرج عن كتفي إن لم أحترس. لم يغمض لي جفن ليلة البارحة بسبب الرجل القبيح الذي شاركني الغرفة رغماً عني. كيف لي أن أنام وأنا مسجون في الغرفة نفسها مع رجل لا أعرف أصله أو فصله. لا أبغي

معرفة ذلك لتوليد الثقة بيننا. ولا أقول إنه صدر عن هذا الرجل أي إزعاج أو خطأ، فهو على عكس ذلك تماماً تصرف بشكل لائق ونام ملء جفنيه، حتى أنه لم يبارح مكانه بكل بساطة ما إن وضع رأسه على الوسادة. إلّا أن تنفسه هو الذي أزعجني. فإذا به يتوقف فجأة لاهثاً بشكل عشوائي وانقطع نفسه وكاد يختنق وكأنه يحلم بأنه يغرق أو تراه يرى حلماً آخر؟ ثم يخيم السكون لبرهة. ولكن السكون أسوأ من التنفس، فالرجل لم يعد إلى سطح الماء. فرحت أنتظر وأصغي إليه، ولكنه لم يحرك ساكناً. فقلت في نفسي: «انتهى أمره»، ثم انطلق المحرك في صدره من جديد على وتيرة متساوية. شعرت بالسلام قليلاً، يا للراحة! يبدو أنه يمنح نفسه فترة من السكون ليعود وينطلق من جديد، أما أنا فلم أستفد منه على الإطلاق. فبعد مرور أزمته على خير وسلام، رحت أترقب الأزمة التالية منتظراً بدايتها. وترى الاختناق الممدّد بدقة ينادي الآخر على فترات منتظمة، فيما أنا كنت أنتظر.

بما أني سأخلد إلى الفراش باكراً، سيتثنى لي الوقت حتى أراجع أحداث اليوم وأحللها وأكوّن فكرة عن هذه الفتاة المنتحلة اسم لايي. فهي التي كانت الحدث: وكأن الأخوين ابتكراها لي! وبقيت مدهوشاً أقنع نفسي: «ولكني لا أرى فيها إلّا نيا».

تباً للأخوين بريش، يا لوقاحتهما! رغم ذهولي، لم أجرؤ على رفع صوتي والاعتراض والتمرد احتراماً لهما. إنما عليّ من الآن فصاعداً أن أعتمد هذا التصرف دائماً كجزء من استراتيجية تعاملي مع الناس.

تتدفق روح براغ شيئاً فشيئاً عبر حمام الليل الفاضح. فأنوار

الشوارع لا تنجح في منع ملكة الليل من استعادة سيطرتها على مملكة تركتها عند الفجر. ورحّب بي [illegible] هادراً. أما الأبنية الشاهقة على ضفتيه المتحدية للسماء بطبقاتها القائمة التي تصل حتى أعلى قصر في براغ، فتردد له صدى صلواته اللامتناهية. أتراه يقول إنه يسمح للغريب أيضاً بالاستمتاع وليس لأهل المدينة فحسب؟

لم أصل إلى الفندق إلّا في وقت متأخر من الليل.

تمددت في السرير لبعض الوقت ورحت أغفو تارةً وأصحو طوراً إلى أن خطرت ببالي فكرة طردت النوم من عيني وحطمت جدار الرعب الذي بنيته بنفسي إذ تذكرت النفي الصامت في حديث جيري في أثير غريب ولكنه حال دون إفهامي ما كان عليّ أن أفهمه. ولكن منذ متى لا أرى ولم أستطع أن أراه؟

هذا هو السؤال المناسب! ولكن ما هي الإجابة عنه؟ أين أبحث عنها؟ هذا إن توفّرت الإجابة.

إن توفّرت الإجابة؟ ولكنها بالتأكيد متوفرة. ينبئني قلبي بذلك، قل إنه ذاك الحدس المنطوي في داخلنا الذي يدرك المستقبل وهو في طور حدوثه ويكتشف اللامتوقع وهو على وشك أن يستحيل يقيناً. ويحدث ذلك سواء كنا مستعدين للحدث أم لا، وسواء كنا نهتم له أم لا، ومهما بدت تلك الإجابة غريبة. راودتني أفكار مماثلة طوال الليل، فلم أتمكن من النوم، مع أني أردت أن أنام باكراً هذا المساء، ولكن تراني أهدر وقتي سدى وأحرق دماغي من فرط التفكير. كم طالت معاناتي وأنا أنتظر الليل حتى ينتهي، ولكن سريري الفخم ليس آخر سرير يتحوّل إلى سرير عذاب. يا

سراحة! أتصبب عرقاً تحت اللحاف كما لو كنت في منطاد جانح. وأغرق في الظلمة وأواجه توالد أفكار واحدة تلو الأخرى من دون أي صلة بينها، فيما أتقلب في جو خانق يسيطر على مضجعي. وقد فقدت كل قدرة على الدفاع عن نفسي بمواجهة تلك الأفكار.

وعندما نفذ صبري، وَثَبْتُ خارج فرني. لقد دام العذاب لوقت أطول من اللازم. فقررت الخروج وارتديت ملابسي عند الساعة الواحدة وبضع دقائق في الصباح.

الخروج.

تجوّلت في الشوارع نفسها. شوارع مقفرة تغور في الليل فيصعب التعرف إليها. وما زال الرذاذ نفسه، إنما استحال بساطاً أبيض يفترش أرض خيم الكبريت المزروعة أنواراً هنا وهناك. أما الجو، فرطب وكثيف الضباب ولكنه لطيف. لطيف إلى حد لا يصدق.

فراودتني حينذاك فكرة ليست غاية في الابتكار، ولكن نظراً للساعة المتأخرة، عليّ ألّا أتوقع الكثير من نفسي. ما هي هذه الفكرة؟ التوجه إلى جسر شارل ومراقبة مظهره قبل استيقاظ السيَّاح. إذ يباشرون حينذاك عملهم الهدّام الخفي فينتهون من مهمة القضاء عليه تماماً كما يقضون على براغ ويحاولون تفريغها من محتواها.

ما زال هنا كارلون موست يمثل أمامي تماماً كما عرفته في زمن سابق. إستقبلني بالأحرى ظله. إذ أراه يمتد ويرتفع كنصب تذكاري بصف تماثيله القاتمة المزدوجة. يا لعظمته في وحدته.

رحت أسير كما لو كنت في حلم واعٍ وشدني شعور غريب

نحو عقد الجسر الضخم. فسرت بهدوء نحو عالم السكون، عالم معلّق من الأفضل ألّا أغامر فيه إلّا بعد التفكير ملياً. وتابعت سيري، فمررت تحت أنوار مختلفة إلى أن بلغت سطح الجسر حيث يرتكز بآخر أعمدته على الأرض الصلبة، وتتألق من تحته أنوار ساحة ناكامبا وتلمع كما في وضح النهار.

تمسكت بالدرابزين القديم وانحنيت إلى الأمام، فتأملت ذاك الإشعاع الشمالي الراقد لوحده في الأسفل. وكأنه الجحيم.

بعد شيء من التردد، لم أستطع أن أنكر فظاظة إحدى الوقائع: إذ رأيت أحدهم يلتصق بعصا أحد المصابيح في ساحة ناكامبا، ويُبرز الرذاذ المنثور على الجمود الأبيض قساوتَه. لم أرَ أي مار أو حتى كلب من تلك الكلاب المتشردة في الليل خارج المنزل مثلي. ولكنني أرى دورتَيْ أدراج ضائعتين وسط تلك النواويس على مقربة مني.

سلكت الطريق من تلك الناحية وإذا بي في حضرة... نيا! يا إلّهي، إنها نيا! ماذا تفعل هنا بحق السماء؟ وفي هذه الساعة؟

إنها مخبولة!

وبأي مظهر، يا إلّهي! تدثَّرت بلباس يشبه معطف الرجال، هو عبارة عن سترة طويلة تلفها فيما تسند كتفها إلى المصباح شابكةً رجليها. بقيت ملامحها ساكنة ولم يرف لها جفن فيما واصلت النظر إليّ وأنا أنظر إليها في الوقت نفسه. يبدو أنها لم تتعرف إليّ.

إستنجدت بشكل ما أعرفه في اللغة التشيكية وأضفت إليه خليطاً من لغات أجنبية لأتفوه بكلام بدا لي آنذاك مضحكاً جداً:

ـ هل تحاولين منع المصباح من الوقوع يا نيا؟

أظن أو بالأحرى أسعى إلى إقناع نفسي بأن نداءً شبه واعٍ سمعني وقادني إلى هذا المكان. ولكن ألّا يبدو بأنها تعتبرني المحقق الأعظم؟ إطلاقاً. إنما عوضاً من ذلك، هزّت رأسها من الأعلى إلى الأسفل لتجيب بالسلب على طريقة البلاد. ولكنها لم تكتفِ بتلك الإشارة، بل فضّلت تلك البريئة أن تجيب مشافهةً بصوت صافٍ صفاء القمر، فحذّرتني قائلةً:

ـ لا أدعى نيا.

ـ هيا، مستحيل! في هذه الحالة، أنتِ لابي.

ـ ادعى أوريان؛ لا نيا ولا لابي.

لم أعرف ماذا أقول بعد كل ما سمعته. ثم قلت لها:

ـ في أي مكان نقف الآن لتحرسيه في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ لو سمحتِ، ماذا تأملين أن يحدث؟

لتجيب عن سؤالي، بسطت جناحيها كالطائر وأزاحت جانبي معطفها، فعرضت عرياً هو أشبه بعري حواء قبل أن تستر نفسها بورقة خضراء. متّعت نظري بهذا المظهر. إذ منحتني الوقت اللازم لأستوعب تلك الصورة الآدمية؛ ثم عادت وارتدت ثياب العفة من جديد.

أكان ما فعلَتْه تحدياً؟ أم تراه دعوة! أجهل إن كان تحدياً أو دعوة وما الفرق؟ فالمهم بل الأساس يكمن في مكان آخر، في ذاك الجسد. يا إلَهي، يا لجمال هيئتها! هيئة قد نلتقي بها في جنة عدن. ويا لها من فرصة إلى الحلم. يا لهاتين الساقين الممشوقتين كيف ترتفعان لتتعانقا وتتحدا كجذع فتشكلا مع نهديها

الظاهرين أروع صدر يوجّه الليل أنواره عليه. ويُضاف إلى الجسد رونق الوجه... لا أظن أني قد أصدق من يصف لي كيف ينسكب هذا الجسد في بشرة ناعمة مشرقة من الداخل تخلب الألباب بشبابها. ولكن عندما رأيتها عارية تماماً، من البديهي أن أنسى للوهلة الأولى الجوربين الأسودين اللذين يغطيان ساقيها حتى الركبة ويلتقيان بطائر آخر هو هدهد اتخذ من مفصل فخذيها عشاً له.

لعل تصرف هذه المراهقة معيب بقدر ما هو خبيث، وقد أملاه نفاذ صبرها عليها لتتخلص مني بالطبع.

إلَّا أن الفضيحة الفعلية تكمن في سبب تسمّرها هنا للحراسة، وهي طفلة ينبغي أن تكون في السرير، لا سيما وأن منع تجول الأطفال قد بدأ منذ وقت طويل. هل تقف هنا لمجرد اللذة في عرض عريها وحث أي رجل أصابه الأرق على ارتكاب الآثام؟ إنها لا تشعر بالخجل ولا حتى بالبرد.

بقيت تراقبني بهدوء تام متبهرجةً كالمهرّج. تراقبني فحسب. إدّعت بأنها ليست نيا ولا حتى لايي، إنما ذكرت أن اسمها هو: أوريان ـ على حد قولها. طالما الأمر كذلك، فأنا أدعى أرنوب اللعوب وقريباً سأركض على قوائمي الأربع في مدينة براغ الجميلة.

رحت أتأملها بعيني الداخلية والخارجية في آن، بتلك العين المزدوجة التي غرقت منذ خمس دقائق في عريها الأخاذ، بل في الأجزاء الخفية لحقيقة تتخطى الكلام. إلَّا أني شعرت باضطراب ليس في الحواس الخمس فحسب، إنما في حس الإدراك أيضاً.

وأدركت شيئاً فشيئاً بأن نيا لن تعاني بلا شك من الظهور من الآن فصاعداً بهيئة مستعارة واسم مختلف في كل مرة أراها فيها، وأنها ستبقى موجودة دوماً في كل الأماكن وغائبة دائماً عنها. ولكن هذا الوضع حتماً لن يفيد تحقيقي.

تأملت أوريان ورأيت فيها ما يتخطى الرؤية. فيم أفرغ انفعالٌ يكاد يخنقني الدمَ من عروقي وأفرغ الروح مني. فاستمريت بلا هوادة أقنع نفسي وأكرر: «لن يفيد تحقيقي هذا الوضع». من الغريب أنها شعرت باضطرابي، إذ ارتسمت نصف ابتسامة حزينة على ثغرها وكأنها انتظرت أن يخطر في بالي أن أقدم على حركة باتجاهها وأنعم عليها من جديد ـ ولكن بأي كلمات؟

في هذا الوقت بالتحديد، خرق متشرد حرم النور الصافي حيث خلت أني عزلت نفسي عن العالم مع أوريان. خرقه بمشيته المتمايلة وهو يضع قبعة ضجّاج على رأسه يغطي بها أذنيه، ويحمل سيجاراً يلوّح به بيده. فأخذ يعبر بالكلمات عما يجول في باله ويسترسل في مزاح عابر وساخر في آن من دون أن يمنع نفسه عن الدمدمة بشأننا:

ـ هو! هو! هم! يوبي!

ولكنه مرّ في النهاية. مرّ ببساطة واختفى وسط الدجى الذي ظهر منه.

أما أوريان فابتعدت عن المصباح وتقدمت نحوي وكأنها ترغب في إخماد قلقي. ومن دون أن تفكر في ستر عريها، أقدمت عل معانقتي تماماً كما فعلت لايي في النهار. فشعرت من خلال تلك

المبادرة، التي بدت أقوى من مجرد الرغبة في معانقتي بأنها تحاول تحريري، فقبّلتها اعترافاً بالجميل.

ولكن من تراني عانقت؟ هل هي حورية أم مجرد امرأة غامضة؟ إنقطع حبل الكلام بيننا، وها أنا أغرق في الليل من جديد أجوب الشوارع شبيهاً في بعض الأحيان بذاك الرجل الغريب الأطوار صاحب السيجار.

أي حجة أخرى كان بإمكاني أن ألجأ إليها لأقنع أوريان بأنها نيا أو لايي إلى أقصى حد؟ ولكن لا، ليست لايي، فلايي بالنسبة إليّ ليست سوى نيا نفسها. هل يشكل الشبه بينهما الحجة المناسبة؟ ولكنه شبه غريب بل مقلق ومستحيل، إلّا إذا كان محوره شبه الإنسان بنفسه، ولكن لأتمكن من اكتشاف... غير أني لن أكتشف سر هذا الشبه المستحيل المثلث الأطراف في ساحة ناكامبا.

تركت الساحة لأوريان، فلم تنادني أو تطلق واحدة من تلك العبارات اللاذعة الخاصة بفتيات الهوى. ولكن هل هي من هذا النوع؟ لست متأكداً تماماً.

عليّ التحدث إلى جيري في الموضوع. ولكن ماذا لو كانت أوريان على علم بوجود نيا أو لايي؟ لكان ذلك جنونياً. عليّ طرح السؤال على جيري. فلا بدَّ من أن يكون القدر محدود النظر حتى يبقيهن في جهل تام لميزتهن العظيمة. ولكن ماذا عما قد تحمله كل واحدة منهن من مشاعر تبرر صفتها وهل من تواطؤ يربطها بالفتاتين الآخريين؟ وأي حديث قد تبادل كل واحدة منهن صورتها به! أهب حياتي البائسة كلها لاكتشف هذا السر.

سرت في شوارع ساكنة سكون الموت، إنما متوترة توتر كل من يبذل جهداً مضنياً للإصغاء وكأن المباني تسترق السمع عند أبسط حركة، فرحت أتساءل. لم أرَ أي هر يمر بالقرب مني؛ ورغم ذلك، فالمدينة ليست ملكاً لي وحدي، إنما هي أيضاً ملك أوريان، تلك الكائنة التي أرسلها إلّه خداع إلى الأرض. ولكن لِمَ تجسدت هي وحدها روحاً، ولم تكن نيا أو لايي؟ يا أوريان ونيا ولايي لم تخدعني طبيعة اختفائكن المفاجئ، المخادع وغيابكن المضلل: إذ يكفيني أن أقوم بخطوة واحدة إضافية داخل فراغ هذه الليلة حتى يبدو لي أني أراكنّ تتجسدْنَ في ثالوث ذهبي. فأسرع إلى تقديم التحية لكنّ.

أدركت أنه أمل كاذب ورغم ذلك تابعت سيري وسط مدينة الملاهي الشاسعة تلك التي ترقد بصمت وغموض. وعلمت بأني أهذي: فأنا ضحية وهم يُظهر صورتي في مرآة مزدوجة ويعكسها إلى ما لا نهاية. ولكن ما هي مكانتي وسط كل ذلك؟ كيف لي أن أبلغ ذاك الميدان، مسرح الأحداث المتسلسلة اللامتناهية؟ أألج المكان عن طريق الكسر والخلع؟ لا تعتمد على مجرد وهم آخر يا نعمة. ومع أني طاووس متبجح، إلّا أني وجدت نفسي ضائعاً في شبكة شوارع متعرجة تحميها قبب عالية وتضفي عليها الأنوارُ جواً مأساوياً، ضائعاً في سراديب أجهل إن كنت سأخرج منها حياً. أما في ما يتعلق بشراسة نهر فلتاخا، فلم أسمع له أي صدى.

ثم... اهتديت إلى سبيلي من جديد، إذ عدت مرة أخرى إلى جسر شارل، وسمعت عظات النهر الهدّارة من جديد. وصلت إلى

مكان فوق مالاسترانا وتوقفت مرة أخرى، ولكني لم أسلك الدرج هذه المرة، إنما أردت أن ألقي مجرد نظرة من فوق الدرابزين.

رأيت مشهداً مذهلاً في الأسفل. رأيت مصابيح الزئبق تقدم صورة ساخرة عن بساط الثلج الرقيق الذي محا معالم هذا الشارع تماماً كما فعل خلال أحد الفصول الشتاء البعيدة. حتى أن الرذاذ نفسه كان ينخله بخيوطه انجليدية. ولكن الحلم توارى حين غابت عنه الفتاة. وحل مكانه الفراغ ببياضه المثالي. رحت أراقب هطول الثلج المزيف فشعرت بهذا الطول يغمرني بهدوئه ورقته. ولم أرَ أياً من مواقد الزمان الغابر تلك التي كانت على جسر شارل فيتجه نحوها الناجون في الليل ما إن يحل الصقيع. تُرى فيمَ يفكر القديسون وهم يحرسون الجوار؟

إنتظرت الأخوين بريش في حانة يوكاليشا كما اتفقنا ولكن لم يظهر أي منهما. منذ متى وأنا أراقب المدخل؟ منذ ساعة تقريباً؟ لم يحصل مرة أن تأخرا على موعد، فالتخلف عن المواضيع ليس من شيمهما. ولأهدأ قليلاً، طلبت وجبة تونا مع البصل النيء المفروم هي من اختصاص الحانة؛ فالتهمتها وشربت معها بالطبع كأس جعة بيل. لم أتناول العشاء عمداً، إذ كنت أعرف ما سأجده هنا مسبقاً وتذكرت أيضاً كم أحب ذاك الطبق. تذكر يا نعمة أن إيفو وجيري لم يكونا موجودين كما يفترض بهما في المطار. ولكن من المبالغ القول إنهما سيعجزان عن تبرير فعلتهما.

سأنتظر الوقت اللازم. سأنتظر بهدوء وأطلب وجبة تونا ثانية وجعة ثانية. إلَّا أن ذلك لا يمنع أن تخلفهما عن الموعد يفاجئني

بعض الشيء. ألقيت نظرة إلى ساعتي. ولكن لا داعي لأفقد صوابي! إنها بالكاد الساعة التاسعة مساءً، مع أن الحانة مكتظة بالساهرين وبدأت تفوح منها رائحة الطبخ منذ بعض الوقت وتمتزج برائحة التبغ والجعة وحتى البول، ولكن أغلب الظن أنها رائحة الجعة التي فاضت على الأرض، ـ وتقترن ببلبلة أحاديث تساهم إلى حد بعيد في سجن الوحيد داخل وحدته. ولكننا ما زلنا في ساعات الليل الأولى.

تمثل حانة يوكاليشا في الواقع قدراً ضخماً أشعل رجل شرير يدعى هازيك النيران تحته منذ زمن بعيد قبل أن ينضم إلى خَدَمه في الجحيم. وما زال القدر يغلي على ما يبدو، يغلي بالناس، حيث لا بد أن يأتي كل مواطن يحترم نفسه في براغ ليحضّر المؤامرات على نار خفيفة مع أمثاله.

ونظراً للضباب الذي يغمر المدينة، ويشعر المرء بالراحة عندما يتوانى في الداخل، ولكن لا يمكن أخذ هذا الكلام على محمل الجد. فضلاً عن أني أشعر براحة أكبر في هذه الحانة مما لو كنت في فندقي الفخم. إذ أتذوق اللذة التي يعرفها المتشرد عندما يرسو بحزم عند منفذ مترو على ما أظن، لا سيما أني استيقظت في الساعة الرابعة بعد الظهر، فأشعر بحال رائعة تمكنني من الصمود لسهرة طويلة. ولكن ليلة البارحة كانت ليلة، وأيما ليلة!

أمضيت الليلة السابقة أتجول في أنحاء المدينة كافة، وأخال رؤية أوريان أو لايي أو نيا عند كل زاوية، فأندفع إلى إحداهنّ ظناً منّي أنها الأخرى، وما إن أقترب منها حتى تتبخر عند مفترق الشارع التالي. كنت أتقدم من دون توقف وأقول لهنّ كما لو كنت

في حالة تتخطى الكلام وتفوق التعبير عن نفسي. كنت أوريان أو لايي أو نيا، سنلتقي عاجلاً أم آجلاً. غداً أو بعد غد، وفي أي يوم سيحل حتماً. ما من داعٍ للعجلة.

تذكرت هذه اللوحات الغبية من دون أن أدرك بأن عينيَّ تحدقان بلوحة أخرى، هي الرسم المعلق على الجدار وراء طاولة الشرب. وفجأة تنبهت إلى هذه اللوحة قائلاً: «أعرف الشخص المرسوم!». إنه رسم رأس يبدو منتصباً كأنه برج مدرج، يعلو وجهاً خاملاً متبلد الحاجبين. كثيف اللحية. مع شارب عريض يمد جسراً شائباً تحت أنفه كالسحابة بين الوجنتين. والرسم منجز بحبر البنفسج. أعرف الشخص المرسوم إنه الامبراطور فرنسوا - جوزف. إنها لوحة أثرية لا قيمة لها إلا لإظهارها شخصية بارزة برأس يشعر بالنعاس تحت لوحة الحانة المتسخة ونيم الذباب. لا أحد يتصدق على الامبراطور بنظرة، ولكن إن اختفت هذه اللوحة الأثرية من مكانها، كما قال لي الأخوان الريش ذات مرة، إن اختفت من مكانها المكرس، سيشعر الجميع في هذه الحانة بل في براغ بأسرها بنقص بكبير. والسبب؟ لونها الثمين بالطبع! لم يجرِ تنظيف الوسخ يوماً أثناء الاحتلال النمساوي - المجري، ولا حتى بعد تلك الفترة، فيشكل بالتالي شاهداً على روح المعارضة لدى التشيكي. أتذكر ضحكة الأخوين القاسية عندما أخبراني هذه القصة القديمة عندما دخلت الحانة للمرة الأولى. ولكن ألم يمر وقت طويل على سقوط عائلة هابسبورغ؟

- في ازدواجية فرنسوا - جوزف، ألم يكن لجوزف أي وجود؟

- إنها القصة نفسها، إنما متشحة بسواد موت أعظم.

فاجأني جيري بريش بوصوله وأنا في خضم الأوهام. إنما أعجز عن التصديق بأن إيفو لا يرافقه. لقد عرفتهما منذ سنوات عديدة. لذا تراني تفاجأت: أليسا إذاً توأمين سياميين.

فسألته: ـ وإيفو؟

فأجابني بكل بساطة: لم يستطع المجيء. ولم يضف أي كلمة أخرى.

بعدما تخلص من سؤالي بحركة معينة بيده، جلس ثم استدار متوجهاً إلى النادل بإشارة المتردد الدائم على الحانة التي بات ذوقه معروفاً.

كانت يده لا تزال في يدي عندما بدأ يحادثني بصوت مضطرب من دون أي مقدمات، وكأن أمراً ما يقلقه. ولو كان الحديث قد بدأ قبل دخوله الحانة بل قبل أن نتقابل، لما بدا أكثر طبيعيةً ولا أكثر صدقاً مما هو عليه.

ـ أراها: اللعنة عليّ، أراهنّ في كل مكان! وسأراهنّ كل يوم في أمكنة أكثر! أجل، إنها الفتاة نفسها. هي نفسها ضمن حدود الممكن. إنها نفسها ومتعددة الوجوه إلى حد أنه يمكن الالتقاء بها كل يوم. فهي فريدة من نوعها ولكنها مستنسخة في سلسلة لامتناهية من الفتيات.

ممن هو مستاء؟ أخشى فهم ذلك. أتراه علم بلقائي البارحة؟ الثعلب! كيف له ذلك؟ إنه يعرف عما يتكلم ويدرك تماماً بأني أعرف الموضوع دونما حاجة إلى أي شرح إضافي. يعرف كل ما يتعلق بمسألة أوريان. ويبدو لي قلقاً وكأن كلاب الجحيم تطارده، ولا يسمح لي بالتفوه بأي كلمة، ولكن لا أهمية للأمر. حدقت

بعينيه الزرقاوين السماويتين الباهتتين من شدة الغيظ تتزغللان فيما يطلق فيضاً من الكلام. أحدق برجل مجهول لا يهتم لخفض صوته. ولكن من سيسمعه في حانة يوكاليشا بعدما تحولت إلى بؤرة شر وفساد يملأها دخان التبغ؟

أما الآن فبدأ يرتجف كما لو كان يصف جرماً، وكأن هذا الجرم تبنى وجه نيا، وجهاً يمكن تعرّفه في وجوه فتيات أخريات يُظهرن وجهاً مماثلاً يَجُلْنَ به ليلاً ونهاراً في مدينة يان هوس وحناياها.

من البديهي أنه يعاني من خطب ما. ولكنه تابع الحديث قائلاً:

ـ نماذج المرأة؟ (يشدد بصوته على أل التعريف في كلمة المرأة). نماذج المرأة؟ يبدو الوضع غريباً حالياً ولكنه لا يزال سرّياً. ولكن لا بد من أن يلاحظه الجميع يوماً حيث تظهر الغرابة على وجوههنّ كافة. قريباً! سيأتي يوم يتعرين فيه جميعهن في أنحاء المدينة كافة ويعرضن أجسادهن حيث لا تتوقع أنهن قد يقدمن على ذلك، إلى حد أنك ستقول حيث تفرح برؤيتها: «إنها نيا. كيف تسير الأمور؟» فيما توجه تحيتك إلى أخرى لا تعرفها. ولكن ماذا تفعل نيا وأين هي؟ نيا الحقيقية. هل من نيا حقيقية؟ وبين الأخريات، هل من واحدة حقيقية؟ لن تطرح السؤال على نفسك بالطبع لأنه ما من سبب وجيه يدفعك إلى فعل ذلك: ألّا تجد نفسك دائماً أمام نيا وأنت مقتنع بذلك، لا أمام دمية تجهل هويتها أو كائن يظهر في كل مكان وهو ليس إلّا نيا، إلّا حين يكون امرأة أخرى وفريدة ووحيدة؟ بالطبع نعم، وبالطبع لا. لقد جمعت هذه المرأة الوحيدة مجموعة تجسداتها الحقيقية والحية.

أما هي فتفيض عليك بالنعم والابتسامات، بذاك النوع من التكلف، بينما تثني أنتَ عليها باندفاع بريء وترتمي عند قدميها تماماً كما ترتمي عند أقدامهن جميعاً وتثني عليهن بروعة وثقة، لا سيما وأن الأمر يلتبس عليك. فمن تتحدث إليها تكون الوحيدة التي تجمع كل النسخ المشتتة في الطبيعة فتتركز فيها تلك النسخ وتختصرها بدورها في داخلها وتستهلكها متحلية بقوة الوحدة والوضوح والجوهر الفردي المدمِّرة.

هل يعود الوزن الذي يسحق معدتي إلى الخطاب الذي ألقاه جيري على مسامعي بل سكبه تقريباً في أذني وأخشى أن ينتج عنه في النهاية مضمر أو تحذير ما؟ إني معجب به حقاً: فهو قد ألقى خطابه بلغتي متخلياً عن تقليد استخدام اللغة الإنكليزية. فمواطنو أوروبا الوسطى يتغلبون علينا في إجادتهم اللغات. ويا له من عالم لهجات عظيم! لا، لا يمكن أن أنكر إعجابي بأدائه رغم انزعاجي، حتى أن روحاً ضاربة فيّ بدأت تقترح عليّ بأن أتبنى ظنونه ومخاوفه. عسى فقط أن جو هذه الحانة بطعامها وضوضائها لشدة ما تحمل من دخان، فيهطل الصمت علينا بالأطنان لنتمكن من التفكير! ولكني أكتفي بترصد الانفجار والمراقبة. يا للأسف. يا للأسف.

هل الصوت الذي أسمعه هو صوت جيري؟ أظن أن ذلك احتمال بعيد، إذ لا أدري إن كان صوته ما زال ملكاً له. فصوته لا يعبر إلّا عما يتوافق وصالحه ليدلي بمزحة ثقيلة أو بحيلة بحيث تبقى حائراً لا تعرف عما يتحدث، وليقول أيضاً بأننا من بين

الحمقى كافة «نُعتبر أبطالاً نظراً لإتقاننا فن التلاعب بالوقائع والتحايل على الحقيقة. ويا لنا من حمقى ممتعين!

وعلينا ألّا ننسى، حتى لثانية واحدة، بأن الحقيقة لا تغض نظرها عنا ولا تبرّئنا من أي عمل قمنا به ونحن متصورون بأنها قد تعفينا منه. المثال؟ الحيوانات. هل من حيوان يتفق معنا بالغريزة ما خلا بعض النماذج المسخّرة والمنحطة النادرة للغاية؟ ومع ذلك، لدينا اعتقاد راسخ بأنها وُجدت في العالم لتحبنا، وألّا همّ لنا سوى التدخل في شؤونها وإفساد حياتها. وإن بدأت بالتكلم في يوم من الأيام وعبّرت عن رأيها فينا؟ حينذاك، سيكون الوضع ظريفاً. ولكن لا بد بأنها رفضت منذ البدء أن تُمنح القدرة على الكلام لشدة تبصرها وحكمتها.

في تلك اللحظة أدركت الوضع تماماً: أين المشكلة؟ لم أفكر حتى الآن في طرح السؤال. فاضطراب جيري يشير إلى وجود مشكلة بالتأكيد. هل فقد جيري توازنه بسبب غياب إيفو الشاهد والملاك الحارس والصديق الموثوق؟ إلتزم جيري الصمت فجأة متأملاً وأمسك بحركة عفوية كوب الجعة الذي جفت الرغوة عن حافته خلال هذا الوقت، وحمله إلى شفتيه الجافتين بالقدر نفسه. لعلّه يأخذ قسطاً من الراحة ليتابع بعد أن ينعش حلقه إطلاق العنان... لبوحه. أظن أن الحواجز كافة تختفي حين يعجز المرء عن احتمال سر يعذّبه. كان على الضجة أن تخمد حضور الامبراطور فرانسوا ـ جوزف الدائم رغماً عنه في هذه الحانة، في ظل ضبابية التبغ الناشئة والسامة وقبته العاصفة، الجامدة والواقية. كنت أنتظر تتمة القصة من دون أن أبدو وكأني أراقبه. فضياعه

وأسراره المعقدة ـ أو ربما اعترافاته؟ ـ تشعرني بالحزن. كما تحزنني صعوبته في إيجاد مهرب مما يعذبه. لذا تراه يثير شفقتي، ولكني بقيت صامتاً منتظراً سماعه لأني متأكد بأني سأستفيد من ذلك. ففي النهاية، أنا هنا لهذه الغاية بالتحديد.

أكمل كلامه متحدثاً بصوت خافت، وكأنه يوجهه إلى نفسه أكثر مما يوجهه إليّ، ملتهباً بغيظه. إنما عليّ الآن أن أرهف سمعي لأتمكن من متابعة الحديث، إذ يبدو أنه نسي حتى وجودي.

ـ الاثبات بأن عبقرية الإنسان تجهل الحدود بل تنكر فكرة الحدود نفسها، وكأن الحدود وُضعت ليتم انتهاكها. أصبح العنم ثملاً من سلطانه وسيطر عليه جنون العظمة. أما زال الأمر جنونياً اليوم؟ كلا. لم يعد هذا الرأي جائزاً، فانتهاك قوانين الطبيعة لم يعد أمراً جنونياً اليوم. أصبحنا نواجه هذا التطور ببرودة أعصاب. ترهات! علينا أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال بشكل طارىء! إن هذا السؤال يتعلق بمعرفة ما إذا كان الإنسان سيبقى كائناً بشرياً إذا استمر في هذا الاتجاه. وأؤكد لك أن ليس من السخافة أن يتساءل الإنسان من دون أي تأخير: ماذا يعني أن يكون الانسان كائناً بشرياً؟ على إلهامنا أن يكون قوياً جداً حتى نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال من دون مماطلة. وبالصوت السرّي والخشن نفسه، قال بعد صمت وجيز:

ـ لم يكن من الضروري التفكير بهذه الطريقة في الأمس. إذ كنا بشراً بحكم قانون إلّهي معين. ولكن الوضع تغير الآن.

يبدو كمن يطلق التنبؤات، ولكنه لا يصر على المبالغة فيها إلَّا ليحافظ على الكلام لأطول مدة ممكنة ويستأسر به. وأي كلام:

إنه كلام متهافت ومصمّ للآذان يستخدم لغة فقر ينتهي بها الحال بالاختناق في خرخرة. لم يعد هذا الإنسان ذاك الصديق الذي عرفته منذ زمن طويل، ولا الشاب المازح السريع الغضب. إني لا أرى أمامي سوى عالم صعلوك مسكين لا إسم له ولا وجه، يتصارع مع كوابيس طبقته ومخاوفها. إنه عالم صعلوك يرغب في مشاطرة خوفه مع شخص آخر لأنه لم يتعلم أن يحسب حسابه ويدرك أن على الجميع أن يدفعوا ثمناً معيناً، حتى الجبابرة أنفسهم. وإذا كان جيري قد اختارني بحكم صداقتنا حتى ألبِّي نداءه، فلا بأس بذلك.

ولكنه يبدو مصمماً على إطلاق سلسلة من التحذيرات بطريقة جلوسه تلك وانحنائه فوق الطاولة حيث أجلس قبالته، فإذا به يقول:

ـ لن يعود للبشر أي وجود؛ إنما سيحل مكانهم وفرة من نسخ طبق الأصل. سأترجم كلامي: ما من عقبة تمنع أي نسخة من الادعاء بثقة فاجرة بأنها نسخة أخرى والنسخة نفسها في آن معاً. ستمر اختباراتنا من دون عقاب ولكننا لم نحصل من أنابيب الاختبار إلّا إلغاء الذاتية في كل أنحاء الأرض وفقدان النموذج البشري جراء استنساخ النسخ وانقراضه حيث سيتجزأ إلى ما لا نهاية. أسمعه وأنا أشعر بلوعة. هل يدرك ما يقوله بهذه السرعة الفائقة؟

ـ ماذا تعني لك النسخة الأصلية الفريدة وسط تجلي نسخاتها كلها؟ إنها نيا ولايي وأوريان، وكل واحدة منهن هي مرآة تعكس صورة الأخرى! ولكن ما دام عليك الابتكار، فلِمَ لا تخلق إلّهاً

فريداً ومتعدد الوجوه على صورتنا؟ فليكن إلَهاً يرث أفكارنا وتصرفاتنا، وتكون ملامحه مطابقة لملامحنا فيسود سلطانه بيننا. . .

ساد الصمت بل الدوار حيث تغرق كل فكرة قادمة من حدود اللامعقول. وكأننا في مثل يوم الحساب. فشعرت بأني مدمر تماماً.

إقترب مني جيري أكثر إلى حدٍّ أن جبينينا كادا يتلامسان وأفشى لي باسم هامساً مكتفياً بتحريك شفتيه من دون إصدار صوت مسموع.

ثم أضاف بالصوت المخنوق نفسه: ـ معلمي. في دوبري. في قصر دوبري. تقع دوبري على بعد 40 كيلومتراً تقريباً من براغ. إني أعرفها وأعرف ذاك القصر أيضاً.

غادر على الفور. إختفى بسرعة ملفتة للنظر من دون أن يتنازل ويستأذن. أما أنا، فوجدت نفسي من جديد مسمّراً على كرسي في الحانة. ولم أكترث حتى بالتفكير برودة فعلي إزاء الموضوع، إنما اكتفيت بإطلاق الشتائم. ولم أتساءل حتى بأي موضوع عليّ أن أبدأ، بل أطلقت المزيد من الشتائم. وعدت نفسي بأن أبقى حالياً، ولكن ليس في الحانة، إنما هنا في هذه المدينة، إذ عليّ أن أتابع التحقيق مهما كلّف الأمر.

فنهضت ورحلت بدوري.

أربعة أيام. إنتظرت أربعة أيام طويلة أتأمل إشارة من جيري. علّه يعيد الاتصال بي ويجدد صداقتنا؛ هو أو إيفو لا فرق. إنتظرت أربعة أيام أتمنى أن يحدث. . . لا يهم! ولكن لم يحدث

أي شيء. لم يستجب أي منهما مع أني اتصلت بهما: في الصباح وفي المساء وفي وقت تناول الوجبات. إلَّا أن الهاتف كان يرن طوال الوقت وكأنه في الصحراء. أجهل مكان سكنهما أو إن كانا يسكنان في المنزل نفسه. فالتشيكي يستقبلك في المطعم بطيبة خاطر، إنما لا يستقبلك أبداً في منزله.

في صباح اليوم الخامس كنت في الفندق حيث أقيم.

وبينما كنت أتوجه إلى صالة حيث يتم تقديم الفطور، أخذت أثناء مروري جريدة من تلك الموضوعة في متناول النزلاء. رغم معرفتي السيئة باللغة التشيكية، لم أخطئ في قراءتي العنوان التالي في الصفحة الأولى: «اختفاء غامض لضحيته أحد ألمع علماء الوراثة التشيكيين، المتخصص في البيولوجيا الجزيئية». وظهر في عنوان المقال اسم جيري [illegible] ثم تلاه النص التالي في التمهيد: «اختفاء غريب، لا سيما أنه تبع اختفاء شقيقه عالم الوراثة بدوره».

كان جيري جدياً إذاً في ما قاله ذلك المساء في حانة يوكاليشا! أحدق بالطاولات المتقنة المعدة للفطور وأغطيتها النظيفة وباقات الأزهار الموضوعة عليها، أحدق بها، ولكني لا أراها. ماذا تفعل هذه الأشياء هنا في حين أنها لم تعد موجودة. وماذا تفعل الآن هنا بعدما اختبأت؟ كان يقول الحقيقة. أنت حمار يا نعمة.

أنت حمار... توقفت ملاحظات نعمة الرحّال عند هذا التعبير. إنها مجاملة تبناها بكل فخر بمعنييها الحقيقي والمجازي لتختم مفكّرته. وقعت المفكرة من بين يديّ، ولكني تركتها على الأرض حتى يتسنى لي الوقت الكافي لأستعيد وعيي وآخذ نفساً

وأتنشق هواء أصبح نادر الوجود. أحتاج لبعض الوقت قبل أن أهز صحن السلطة الذي حلّ محلَّ رأسي. لقد انطفأت الأنوار داخل رأسي. لا داعي لتهنئتي على ذلك. ولكن هل رُبْع خُمْس واقعة حقيقية يمكن استنتاجها من هذا الحشو؟ أي أدب هو هذا: رواية متسلسلة بالطبع! ما زلت أحاول أن أفهم. فرغم انطفاء الأنوار، ما زلت مصراً على التفكير.

حملت في جيبي هذا الدفتر اللعين ومئات الأسئلة. لا أدري ماذا أفعل بها، أقصد المفكرة والأسئلة. ولكن لجهة إقلاقي، فهي تقلقني بالفعل.

اليوم، بعد ثلاثة أسابيع، فتحت نسخة أخبار العالم الموضوعة كما في كل صباح على مكتبي، فقلت في نفسي: انتهينا، انتهت الأسئلة! إذ لفت انتباهي العنوان المكتوب بأحرف حمراء على مساحة خمسة أعمدة: «بشر مستنسخون يعيشون بيننا؟». لست إلّا وكيلاً في القسم التجاري، لذا ترى الخبر أثّر فيّ كما قد تفعل تلك الآلات الحديدية الشبيهة بالمكواة التي يضعها أطباء القلب على صدر من توقف قلبه عن الخفقان. لم أكن مطلعاً على ذلك من قبل ولم أمرّ بوضع مماثل يوماً، إنما رأيت تلك العملية على التلفاز وأنا أتابع سلسلة أميركية. إن العنوان في أخبار العالم قد أثّر فيّ بالطريقة نفسها.

بعدما استعدت وعيي، وقعت، فحملني جسدي وبعد ذلك الكرسي. إلّا أني عاودت القراءة: «سبق صحفي لمراسلنا الخاص». إن لم يكن ذلك نهاية العالم، فإنه يشبهها كثيراً، ولكن الموضوع لم ينته عند هذا الحد. فقد ورد ما يلي بخط كبير بدلاً من الحرف الطباعي المائل: بشر مستنسخون، ولكن أين ومتى

وكيف؟ هذا ما سيعرفه قرّاؤنا في الطبعة الأولى من صحيفة الغد. مستنسخون، بأي هدف؟ سؤال مخيف إذا صحّ ما يطرحه! سنسعى إلى الإجابة عنه أيضاً.

وضعت عدد أخبار العالم على الطاولة ودفعت كرسيّ إلى الوراء مستنداً إلى المسند. وأخذت أفكر بموضوعية. إلَّا أن محاولتي باءت بالفشل. فكدت أفقد صوابي. أخذت الصحيفة من جديد وأنهكت نفسي لأنهي قراءة النص المعيب والشاذ: جمعنا علماء أجنّة معروفين. ومن بين الفرضيات المطروحة، مالوا باتجاه هذه الفرضية من دون أن يأخذوها على عاتقهم، إنما من دون أن يدحضوها كذلك. وسنوجزها لكم كما يلي بانتظار أن يفصّلها لنا هؤلاء الاختصاصيون: منذ خمسين سنة انخفض عديد الحيوانات المنوية عند الرجل الغربي لمتوسط العمر بنسبة 50%. ويظن العلماء أنفسهم بأن هذا العديد سيستمر في الانخفاض مع مرور الزمن، وأن الحيوان المنوي الخاص بالإرث الجيني البشري أصبح لديه فقداً بعضاً من قدرته على الإخصاب في جميع الأحوال. فهل يشكل الاستنساخ الحل الأنسب لتغطية عجز الشعوب المهددة بارتفاع نسبة الوفيات عند الولادة؟

بدت لي كتاباته شديدة الشبه بالهذيان التام. فأعربت عن هذه الفكرة لصديقي: «لا أرغب في الحلول مكانك يا نعمة. لا، لا أرغب في ذلك. أشعر بالحزن الشديد إلى حد أن قلبي كاد ينفطر. فهذه البدعة، الاستنساخ، لن تؤدي إلَّا إلى إنتاج بنات هوى وفئران مختبر وجنود منذورين يتبوّأون المدفع وعبيدا! وقد يتغلب السراب بشكل خاص على الإنسانية».

ابتسامة الأيقونة

كان راسّك يضجر نينا بتكرار الكلام نفسه على مسامعها وهو يمشي بالقرب منها، إنما نادراً ما كان يسير على مشيتها، إذ يبتعد عنها بخطوة أو خطوتين أحياناً إلى الأمام أو إلى الوراء متابعاً:

ـ يكفي أن تنظري إلى العالم ليبدو لك ممتلئاً حتى الشفة ودائرياً وكاملاً يغص بالناس، فتقولين في نفسك إنه لا يتسع لأي عنصر إضافي يمكن أن يحتاج إليه المرء، حتى ولو كان قراضة ظفر. فما من متسع لذبابة صغيرة بعد اليوم أو حتى لفكرة ذبابة. لا بأس بذلك. ومن ثم يظهر عنصر غير متوقع قد يكون بكل بساطة قراضة الظفر أو الذبابة أو فكرة الذبابة أو أي عنصر آخر، فتراه مضطراً للاحتماء في عالم يقع في أقصى الحدود بعدما بلغ أوج قدراته. قد يحتمي أي عنصر في هذا العالم المتلقف آخر الأخبار والعاجز دوماً عن استقبال أي عنصر إضافي أو تقبله. أليس هذا العالم بغريب؟ ينبغي أن نصاب بالذهول لمعرفته. ولكننا لسنا مذهولين. فلقد بدأنا من جديد بالتفكير في أن الأمر

انتهى: فما من ذبابة إضافية أو دبوس إضافي أو ظل فكرة إضافية. فماذا قد تفعل جلّالة بكرتها؟ تدحرجها. وكلما قامت بدحرجتها، كلما أصبحت أضخم. ولكن بما ستنفعها هذه الكرة المؤلفة بكاملها من الروث؟ هي وحدها تدرك ذلك، ولكنها لن تتوقف يوماً لتطرح السؤال على نفسها وتفكر فيه ثم تطلعكم على الجواب. أو على الأقل أفترض ذلك. أفترضه فحسب. فلا يمكن أن يقدم أي كائن آخر غير الإنسان على هذا التفكير، لا سيما الجلّالة التي ستهلك يوماً ما جراء دفع كرتها باستمرار إلى الأمام.

أما نينا، فلم تدلِ بأي تعليق لا سلبي ولا إيجابي، إنما راحت تحفر وقع قدميها على غبار ناعم يفترش طريقاً لو أراد المسؤولون تعبيدها، لفعلوا ذلك منذ زمن بعيد. وفشخةً بعد أخرى، أخذت توقع سيرها على الغبار بخطوة حازمة ومنتظمة ومستقيمة هي خطوة التنزه بالتأكيد. وراحا يسيران معاً في نهاية ذاك النهار، نهار من أهنأ أيامهما وأودعها، كانا طيفين لا مفر منهما مع أن الشفق لم يكن قد غمر الطبيعة بعد، إنما يمكن القول ألّا مفر منهما، مع أن راسّك منهمك كالعادة بعادته بالتفوه بكلام مضجر، فيضطر إلى البقاء في المؤخرة أكثر منه في دوره.

ومع أنه يتكلم من دون توقف، إلّا أنه راح يقول في نفسه: يا لي من مسكين، ماذا يحل بي؟ أتفوه بما تفوهت به البارحة تماماً. ماذا يحصل؟ هل الأمر شبيه برؤية الحلم نفسه؟ فالمرء لا يدرك بأنه يحلم أثناء حلمه، ولكنه قد يدرك بأنه يحلم في حال رأى الحلم نفسه مراراً وتكراراً. ولكني حتى الآن لم أتمكن من

تخطي هذا الوضع مع أني حاولت طويلاً إقناع نفسي بضرورة التخلص من هذا الأمر. يا لجنوني.

رأى راسّك أنهما يسيران الآن جنباً إلى جنب بشكل تام. ولكن ماذا يعني ذلك؟ لا معنى له سوى أنهما يتقدمان جنباً إلى جنب. هذا كل ما في الأمر.

تراها تمشي مستقيمة الكتفين والظهر وتشد بطنها الصغير معتمدةً بالكامل على ساقيها الممشوقتين. فطولها يوازي طوله على رغم قامته الضخمة إن لم تكن منتعلة كعباً عالياً. فمع الكعب تصبح أطول منه بسنتيمترين أو ثلاثة. إلَّا أن الفرق بين قامتيهما بدا شاسعاً، كما لو كان جذع شجرة مغصَّنة وهي شتلة مزوّدة بالبذور إذا جاز القول أو بالأحرى بالأزهار. إنها بالفعل قنبلة قنبلة امرأة صالحة يغطيها الريش الأسود كالخطيئة وتزينها عينان زرقاوان باهرتان. ولكنها تبقى قنبلة، وقد نحكم على أنفسنا بالعذاب الأبدي إن لم ندرك أنها قد تنفجر إذا ما ألقينا نظرة واحدة عليها.

وهذا ما حاول راسّك أن يقنع نفسه به وهو ينظر إليها باستمرار. ولكن لا بد بأنه يتمتع بنظرة فتيلة إشعال حتى يتمكن من تأملها. إلَّا أن أمراً خارقاً كان يحصل في بعض الأحيان: فيوحي فجأة العالم من حول نينا بأنه يدمر نفسه وسط حمم بركانية. لم يكن هذا الإيحاء إلَّا انطباعاً أو تحذيراً خاطئاً، ولكنه يبعث القشعريرة في البدن.

والواقع أن أكثر ما أزعج راسّك هو إدراكه بأنه متورط في حلم، هو الحلم نفسه علاوةً على ذلك. إنه غاضب إلى حد أنه لا يستطيع أن يفهم غرابة مماثلة ولا أن يعي كيفية الخروج منها.

أما هي فقالت له حينذاك:

ـ هل تود العودة أم لا؟

وجهت كلامها إليه وهي تنظر إلى الأمام من دون أن تحرك رأسها باتجاهه. وصرخت له كما لو كان على بعد مئة متر منها:

ـ تود العودة أم لا!

ولكن نبرة صوتها هي ما حيَّره أكثر من كلماتها. فرغم وضوح هذه النبرة، إلَّا أن باطنها يتسم بالكآبة.

فأجاب راسّك:

ـ لن يجد أي عنصر صدعاً يندس فيه، ولا حتى تلك الذبابة أو ذلك الدبوس أو ظل الفكرة ذاك. فلا مجال لأي منها على ما يبدو، لا مجال على الإطلاق.

ثم أضاف تلقائياً:

ـ بإمكاننا أن نتنزه بعد، بحق السماء!

أحس وهو ينقل امتعاضه هذا بصوته ينقر له طبلة أذنه. فاضطر للاعتراف بأن صوته عادي وباهت مقارنة بصوت نينا الجهوري.

أما هي، فأجابته من دون تبرير موقفها:

ـ علينا أن نعود.

فأجابها قائلاً:

ـ نعم. نعم. لا تهتمي للأمر. ولا تثيري فضيحة لما لا يستحق العناء.

بدأت تُظهر عصبية شديدة. وأقسم بأنه بدأ يشعر بذلك منذ بعض الوقت، فراح كعادته يتفوه بالحماقات. إنها عادة سيئة وإباحية في آن، أن يخطب لمجرد الخطبة، لرغبته في البصق.

أما هي، فعندما تثار أعصابها، لا يبحث الحيوان في داخلها إلّا عن كيفية التحرر من أغلاله والانطلاق للبحث عن فريسته.

فأخذت تترصد كل التحركات من حولها من دون أن تلتفت يميناً أو شمالاً ومن دون أن تقوم بذلك فعلاً. وراحت تراقب كما لو كان قدوم الليل قد أفسح المجال لترصد طريدة ما.

وإذا براسّك يقول:

ـ كلما نظرتِ إلى العالم ترين العالم بحسب نظرتك الخاصة إليه.

إلّا أن المساء كان ساكناً إلى حد بعيد، تملأه تماثيل بشرية تمر مبتعدة أو مقتربة تشقُّ طريقها عبره. ومن بين تلك التماثيل صاحبانا المتنزهان. ومع أنهما مجرد اثنين، إنما بدأت تتبسط أمامهما أيضاً ظلال ومساحة واسعة فيما حافظت هي نينا، وليس هو، على عصبيتها، مع أنها حاولت أن تقمع غيظها إلى أقصى حد:

ـ أنت من يصرخ سدىً. لست على ما يرام يا عزيزي.

لست على ما يرام يا عزيزي. كيف أمكنها أن تقول ذلك عنه؟

فانتفض بذهول تام قائلاً: ـ أنا؟

وكأنه يتساءل ما إذا كانت تعرفه حق المعرفة بعد كل تلك السنوات! فما قالته يدفعه بالفعل إلى تساؤل مماثل.

ـ نعم، أنت، فأنت لا تطلق أي ريح حتى من دون مناقشة ذلك لساعات.

ـ ماذا قد يحصل إذا تنزهنا بعد قليلاً؟

وإذا دققنا في الوضع، لرأينا أن نينا هي بالأحرى من يتفوه بكلام لا يمت إلى الموضوع بصلة.

فبقي راسّك بجانبها محاولاً قراءة ما يجول في خاطرها وهو ينظر إليها إلى أن تمكن من دس جملته في أذنها ـ ولكن ما الذي منحنا إياه موت النهار هذا إن لم يكن لمحة غامضة عن الأمور؟

فأجابته بخشونة عبر تغيرات صوتها الغريبة إنما الكئيبة رغم حدتها، بعدما دفعته عنها قائلةً:

ـ كفانا تسكعاً في هذه الأحياء.

ـ ولكن، ما من داع للغضب.

ـ لن أنتظر إلى أن يرغب السيد في العودة.

فالتصق بها مرة أخرى وأمسك بذراعها.

ـ هيا، لنقم بنزهة صغيرة.

ـ إن نبرة صوتك ليست نبرة رجل.

وقامت بالتخلص من ذراعه، فقال راسّك:

ـ تا، تا، تا. ماذا ستختلقين؟

فكانت هي من سعى حينذاك إلى الإمساك به بعدما استدارت فجأة وتشبثت بظهر سترته بيد واحدة ساعية إلى اكتشاف ما يخبئه عبر قراءة تعابير وجهه.

ولكن ماذا اكتشفت؟ فإذا بها تتركه قائلة:

ـ أنت مرتاب.

ـ أنت تتوهمين يا عزيزتي. ممَّ أنا مرتاب، أرجوك قولي لي؟ ما من سبب يدعوني إلى الارتياب.

ـ لم لا تريد العودة إذاً؟

كيف لها أن تطرح عليه هذا السؤال بتلك النبرة المجردة من الفرح، بنبرة السوء تلك؟

يا للهول!

فأجابها بصوت عال:

ـ لأن الطقس جميل... لأن... وهل أدرك السبب؟

يا لبؤسهما وهما يتشاركان كل ذاك الكلام المضمر وسوء التفاهم والشك!

ولعل اغتياظه من هذا الحال هو ما يدعوه إلى القضاء عليه. فإما ألّا يبالي به أو يتخطاه أو يحاول ذلك أو أن يدعها تظن ذلك.

إلّا أنه سرعان ما أصبح غير مكترث بمعرفة ما ينبغي أن يتخطاه. فراح يتخيل رفيقته وقد نسيت السؤال وتوقفت عن بث الضجر في قلبه وهو يسرح نظره في الشفق.

فحدث ما تخيله، إذ أمرته قائلةً:

ـ كفانا تنزهاً. علينا العودة.

أوامر، أوامر دوماً. لم تعد تجيد إلّا إصدار الأوامر.

فأجابها: ـ حاولي أن تشيري إلى نافذة منزلنا. هل تستطيعين تحديد موقعها من بين كل تلك النوافذ؟ إن منزلنا غارق في الظلمة، فما من أحد ينتظر عودتنا.

ـ لماذا تريد أن ينتظرنا أحد، قل؟

ضحك سراً لمجرد الرغبة في الضحك، يا لسخافة الموقف.

ـ آه، لا أدري. بإمكان أحدهم أن ينتظرنا في الداخل.

فنصحته وقد أصبح الجانب القاتم من صوتها أكثر كآبة:

ـ لا تتفوه بالحماقات. هيا! فلنعد.

وفي هذا الوقت، حل الليل بشكل كامل، ولكنه استرسل في المزاح:

ـ ولكن ماذا لو حصل ذلك. ماذا لو حدث ذلك فعلاً؟

ـ ماذا؟ ما الذي قد يحدث؟

ـ أن يكون أحدهم في انتظارنا في الأعلى داخل منزلنا.

ـ لا تتفوه بالحماقات.

ـ لا توبخيني. لطالما كنت على عجلة من أمرك طوال حياتك.

ـ لم أقصد ذلك، إنما حاول أن تدرك ماذا تقول. لم تراك لا تريد العودة؟

فترجاها قائلاً:

ـ لا ترفعي صوتك إلى هذا الحد. قد يسمعنا أحدهم. قد يكون أحدهم مختبئاً في الظلمة ليستمع إلينا.،

ـ أعرفك جيداً يا عزيزي، لن تخدعني بأكاذيبك.

ـ ولكن بلى، بلى. لا تصرخي. فبعض ال... في ذاك المساء، توجهوا إلى منزل آل كافر، واختفى آل كافر منذ ذلك الحين.

لم يكد ينهي كلامه حتى تجمد في مكانه: وكأن جثة تمددت فجأة أمامهما على الأرض معترضة طريقهما. وساد صمت رهيب، ففكر في صمت أولئك الأصدقاء الفارين خفية؛ في الصمت الذي خلفوه وراءهم ولم يرضَ أحد أن يسمعه. فقد يكون هو الرجل

الأخير الباقي ضمن شعاع كيلومترات الصمت العديدة في تلك الساعة من الليل.

إنما جاءه الرد السريع الذي يستحقه متسماً بالازدراء:

ـ آل كافر؟ لا يزالون في منزلهم. ما الذي يحملك على اختلاق قصص مماثلة؟

قصص مماثلة. كان على وشك أن يرد عليها ولكنه عدل عن هذه الخطوة. فما الذي قد يجنيه من الغوص في تلك المسائل؟ وهل يحتاج الشيطان إلى أي مساعدة؟

فبعد التفكير، عاد مجدداً إلى ذكر الموضوع، إذ قرر إضافة التصحيح التالي:

ـ ربما اختلطت عليّ الأمور. فهل تراني أقصد آل راكازين إذاً؟

آل راكازين. لقد انتقلوا إلى مسكن آخر.

إنتقلوا إلى مسكن آخر؟ آل راكازين؟ انتقلوا اليوم بالذات؟ إنه لأمر مبالغ فيه. ولكنه قرر المخاطرة، فسألها هذه المرة:

ـ هل أنت متأكدة تماماً؟

لا جواب.

كان على يقين من أنه لن يسمع أي إجابة. ولكن لمَ تراه يقلق عليهم، فآل راكازين ليسوا في النهاية سوى جيران يسكنون في طابق آخر. لذا اكتفى بالاقتراح التالي:

ـ فلنقم بنزهة أخرى. فالوقت لم يتأخر كثيراً.

وتحمس قائلاً باندفاع تام:

ـ إن كانت المساكن كلها في الطوابق كافة لنا، فلنبت اليوم في أحدها؛ في ذاك مثلاً... وأشار بإصبعه إلى المكان المقصود.

ـ... وغداً في المسكن الآخر الذي يقع إلى جانبه. وهكذا دواليك.

وأخذ يحدث في المباني رافعاً رأسه.

ـ نظراً لوجود أربع شقق في الطابع الواحد وشقة وسطية واحدة في المبنى. يصبح عدد المساكن الكامل مئتي مسكن موزعة على ثلاثة مداخل رئيسة. يمكننا إذاً أن نبيت كل يوم في مسكن مختلف طوال ستة أو سبعة أشهر. ستمضي ستة أو سبعة أشهر قبل عودتنا إلى نقطة الانطلاق!

فتملكه الضحك من جديد، ولكنه حاول إخفاءه بسرعة، مما جعله يتطور إلى شكل من النقيق.

فأصرَّت نينا على قولها: ـ أؤكد لك أن آل راكازين انتقلوا إلى مسكن آخر.

ـ لنسلّم جدلاً بذلك؛ فهذا لا يزعجني على الإطلاق. ولكن هل تستطيعين تحديد موقع نافذتنا من بين النوافذ الأخرى؟

وقبل أن تنطق بأي كلمة أخرى، سارع راسّك إلى المتابعة:

ـ أنظري، لا يظهر أي نور من خلال هذه النافذة، ترين جيداً أن ما من أحد ينتظرنا.

فتسلحت بنبرة من يجهد نفسه في الكلام، إنما بنبرة تهديد واضحة في الوقت نفسه لتقول له:

ـ طالما ألّا أحد ينتظرنا، لمَ نبقى في الخارج إذاً؟

ـ بالتحديد.

ـ ماذا بالتحديد؟

ـ يمكننا البقاء قليلاً بعد.

ثم تابع سيره بقامته الممشوقة وكأن شيئاً لم يكن. ومشى متكاسلاً بخطى ثقيلة غير مستعجلة رافعاً رأسه، متوقفاً عند الطوابق الكثيرة ومتأملاً ترصيعها الشبيه بحجارة الدومينو. فبعضها أسود فيما أن أغلبيتها نيِّرة ومشعّة حالياً. فشعر بالإثارة أمام جبهة مماثلة عظيمة البلاغة.

ـ ستة أو سبعة أشهر. ألن يروق لك ذلك؟ يروق لي ذلك حتماً.

وغمره الصوت المستحيل سبر أغواره، غمره بنفس مميت. وفجأة بدا الليل حالكاً:

ـ ليس الحال أفضل هكذا. لا، ليس كذلك.

ولم يتمكن من التعبير عن إجابة اجتهد في تحضيرها إلّا بشيء من الصعوبة:

ـ لا مجال للضجر هنا مع كل ما تتاح لنا رؤيته!

ـ مع كل ما تتاح لنا رؤيته؟

ـ أجل، واجهات المباني كلها تلك بنوافذها النيرة أو المطفأة. ألّا تظنين المشهد جميلاً؟

شعر باختناق رهيب. فراح يتنفس بعمق علّه يتخلص منه. إلّا أن هذا الإحساس ظل يسيطر عليه كحويصلة بيضاء تضيق على أنفاسه. وإذا به يرفع ناظريه ويتأمل السماء المهيمنة على الأبنية علَّ أبوابها تنفتح أمامه.

ولكنها لم تنفتح، إنما تسرب من أحد الأبنية ـ لا يهم أي

منها بالتحديد ـ ضرب من لحن شجي، غير صحيح وغير خاطىء في آن يتراوح برتابته بين الحزن والاعجاب، تملك الليل بقوته النابعة من ضعفه الوحيد. فخطر في بال راسّك بأنها قد تكون أغنية مريض.

من قال: «من المعقول تماماً أن تلازم روعة الحياة كل إنسان وترافقه خفية ومحجوبة ومدفونة في الأعماق، إنما في أوج مجدها على الدوام»؟ وراح راسّك يبحث عن صاحب هذا القول ولكنه لم يجده. فتلك الروعة ما زالت خفية ومحجوبة الآن، إلَّا أنها ليست بعيدة على الإطلاق. فتراها تتغلب على الشقاء في العالم وتدفع بالمحن إلى الوراء.

توقف لبرهة وبدأ يصغي إلى الأغنية. ثم انقطعت فجأة على نحو غير متوقع وكأن رأسها قد بتر. ولكنه فهم ما حدث. فهم أنه تم التعبير عن حالة ما من دون أنين ولا غضب. ثم جرى طمر حالة أخرى. فلم يعد الإحساس بالاختناق يثقل كاهله، بل أعفى عنه وأعفاه من قسم من العقوبة.

كان ليتوقف طويلاً بعد متثائباً أمام نوافذ تحافظ على جنة الأنوار في جحيم الليل. وراح يفكر في هذا العالم: فإن حدث أيضاً أن غاب عنه شخص أو غرض ما لم نتصوره يوماً، فهرب واضمحل، وإن التحمت كذلك مياه الحياة مانحة إياه وجهاً أملس فاستحال من جديد عالماً لا ينقصه أي عنصر؛ لاستعاد سريعاً كماله وامتلاءه البيضاوي.

وقامت نينا بالملاحظة التالية من دون اللجوء إلى أي كلام جارح:

ـ ما من أحد.

ـ تبدو المباني أجمل عندما تكون خالية من الناس. إذ يشعر المرء براحة أكبر حين ينظر إليها.

تفوه بهذه الإجابة تحت تأثير إلهام من شأنه أن يسمح للإنسان بتخطي نفسه... وبتخطي الروائح الكريهة المنبعثة من الشوارع. فأتاحت له كذلك فرصة الشعور بالحماسة من جديد: وإن هرب الجميع من مساكنهم؟ الجميع حتى آخر واحد منهم تاركين الأنوار مضاءة؟ الجميع باستثناء واحد لا غير: باستثنائي. أنا! إن هذا الضمير يشكل كلمة رائعة تصلح للنهاية إن وُجدت نهاية لأي شيء كان في أي وقت كان. فأنا الآخر لن أتأخر عن الرحيل، ولن أبقى لأترك جثتي الكهلة على هذه الشواطىء كما ذُكر في؟ في أي كتاب بالتحديد؟ فلنبتكر عنواناً مذهلاً ورناناً قدر الإمكان يصلح لكتاب طلاسم مثل عالِم الإنشاد! كما ذكر في عالِم الإنشاد.

إنما جاء الصوت الثقيل حاسماً ليسد له أنفاسه من جديد ويبسط ظله عليه.

ـ علينا أن نعود نحن أيضاً.

فأتت هذه العبارة مصحوبة بالظل الذي لا يفارقها.

ولكن راسّك صمد أمامها:

ـ ما الأمر؟ ألّا تشعرين بالفرح وسط كل هذه الأبنية بنوافذها كافة الساهرة عليك؟

ـ هذا هو لب الموضوع!

أراد أن يسترضيها أو كان ليرغب في ذلك بشدة بالأحرى. إلَّا أنه قام بالملاحظة التالية مع نبرة من الشك في صوته:

ـ هل تعرفين حيّنا، حي رويتوف حق المعرفة، أو حتى شارعنا؟ هل جلتِ فيه يوماً من مدخله إلى مخرجه؟ إني أكيد بأنك لم تقومي بذلك. لذا علينا استغلال غياب الجميع لنجوبه ذهاباً وإياباً. إنما ذهاباً وإياباً إذاً.

وحين نبش لازمته المبتذلة، راح يدندن بصوت عال تارةً ومنخفض طوراً بلا مبالاة متسكّعاً لا يثقل أي هم كاهله:

وردة واحدة لا تبشر بالربيع
ولكن قطارين من الضاحية
كم يهزانك، يهزانك!
امرأة بلا يدين ورجلين لا تهمك
ولكن صالونَي تزيين
كم يجعدان شعرك، يجعدان شعرك!
قاتل هاوٍ يحمل الشر إليك
ولكن زجاجتَي وسكي
كم تكبحان جماحك، تكبحان جماحك!
وسكي أو فودكا، أو فودكا بالأحرى...

وراح يناجي نفسه سراً طيلة الوقت متابعاً غناءه: يكفي أن تنظري إلى العالم ليبدو لك ممتلئاً حتى... ثم حصل أمر جنوني من المفترض ألّا يحدث أو يحل في مكان ما، هو أمر شبيه بالكارثة. وإلى أن تحترس من كارثة مماثلة، ترى هذا العالم بعد ذاك وقد أصبح محملاً بالأموات. ثم ترى نفسك في واحد من هؤلاء الأموات وسط غيظ لم يتأخر إلّا لمدة قرن بكامله. ولكن

الحرب قد شُنت والإبادة قد تمت. أما نحن: أنا ونينا، فبم شغلنا أنفسنا كل ذلك الوقت؟

لم تزعج نفسها لتكسر له جناحي أغنيته اللعينة المحلقة عالياً، ولا جناحي رقصة الفالس التي اندفع فيها يغمر شبحاً بذراعيه المكورتين.

ـ أنت!

ـ نعم، أنا.

ـ أوقف هذه الضجة الليلية، بل هذه المسرحية الكوميدية السخيفة. علينا أن نعود الآن.

ـ أسألك أن...

ـ بمَ يفيدك كل هذا التصنع؟

ـ كل هذا التصنع؟

ـ الدور الكوميدي الذي تؤديه.

ـ ولكن، لا مصلحة لي للقيام بذلك.

ـ إشرح لي ماذا تفعل إذاً.

ـ ما من شيء أفسره لك يا عزيزتي! أنت تتخيلين فحسب. هذا يذكرني بأيام زواجنا الأولى. فحينذاك، ما كنت تحتاجين إلى هذا القدر من البهرجة حتى تضحكي قليلاً.

وفي الحال، أحس بنفسه ببهجة، إنما ببهجة متواضعة لأن الحزن غلبه حين فكر في هذا الفرح الماضي وفي حقيقة وجود ذاك الزمن وحدوث تلك الوقائع... وكل الباقي. كانا لا يزالان يتنزهان عندما رُفع ستار الليل ثم أسدل وسط هدير جهنمي، هو ليل حالك يخترقه الهدير في جوهره وعمقه. وظهرت حينذاك

دبابات الاقتحام وحوشاً مبيدة بواجهاتها المقدامة لتهز أسس شارع ستروبتلاي. إلّا أن الأبنية صمدت ولم تكتسح القوة العظيمة الرهيبة إلّا سلام المقابر. ومع أن وميضاً كاتودياً كان يلوح من نوافذ الشفق القطبي الشمالي، إنما لم يظهر أي رأس عبرها. (فقال راسّك في نفسه: يا لسلام المقابر الرائع، كم هو أفضل من ضوضاء تسبب لك آلاماً حادة تتخلى بعدها الحياة عنك!)

رفعت نينا صوتها لتسيطر على الضجة وكأنها تطلب النجدة عند نشوب حريق، فراحت تصيح:

ـ من الأفضل ألّا نفعل! هذا ما علينا تحديداً ألّا نفعله!

فزايد عليها راسّك بالصراخ قائلاً: ـ ماذا! ماذا علينا ألّا نفعل؟

فقد طفح فجأة كيله من نينا، مما حثه على إطلاق نقمته فيما كانت الدبابات تسير في خط مستقيم ساحقة أرض اليسروعات الزاحفة تحت أقدامهما. فأكمل قائلاً: ـ أنت تعرفينني؟ إنه لشرف لي! وفي هذه الحال، لا ضرورة لإطالة الحديث!

فكادت تجرح حنجرتها بقولها:

ـ من الأفضل ألّا نفعل! من الأفضل ألّا نفعل!

ومع أن الخطأ قد وقع ولم يساهموا في تصحيحه، يقولون لكم ليضيفوا هماً على همومكم ويزيدوا من اللغط الذي يحيط بكم:

ـ أنت خائف!

ـ أنا...

ولكن الدبابات قد سحقت جملة راسّك وسحنتها. فلم تضيّع نينا تلك الفرصة لتضيف جملتين:

ـ يؤلمك بطنك. إعترف بأن بطنك يؤلمك!

ـ أنا؟ يؤلمني بطني؟ وماذا بعد؟

ـ حسناً إذاً، تعال، لنعد إلى المنزل.

إلَّا أنه لم يزعج نفسه حتى يجيبها لأن تنك النعبة ما عادت تسليه. وبعد مرور المدافع، بدا جلياً بأن زمن التسلية قد ولى، فلكل زمن حكمه... وأخذ ينصت إلى فيض الحديد الذي أصبح في البعيد يسير بسرعة لا توصف وبرؤوس وأنياب تجتاح مساحات مظلمة وتزرع أصواتاً مرعبة ترافقها شظايا مرتعدة وسط آثار الليل الحية.

وإذا بالهدوء والصمت يعودان ويحلان من جديد على المكان. هدوء وصمت: فراغ جميل في أرض حرم يُشعر أي إنسان بالغثيان! ماذا عسانا نفعل يا إلَهي سوى أن نرفع رأسنا ونتأمل السماء؟ أما راسّك، فراح يفكر في أن الحياة ما عادت إلَّا سلسلة حالات جوية يمليها الهواء؛ حتى أن المرء يخال نفسه دوماً في فصل الخريف. وإذا به يستنشق الهواء عميقاً وينتظر. إلَّا أن أنوار الساحة لم تشتعل بعد لأنها ما زالت تتبع التوقيت الصيفي، وكذلك بقيت المصابيح في الانتظار. وراح راسّك يفكر: أهو الخريف؟ إني أعرف بالتالي ما أنا عليه وما لست عليه. إني شبيه بأوديب، إنما ينبغي أن أتصرف وكأني لا أعرف ذلك. إني أوديب الذي وجد أبواب ثيبة، فما عاد مضطراً إلى البحث عنها، ولكنه في الوقت نفسه ملزم بأن يعتبرها مجرد مداخل ومخارج لمدينة مفتوحة على الزائرين جميعاً. وفي ذاك الوقت بالتحديد، كان السفنكس يؤدي مهمة حراسة البوابة الرئيسة، مدخل الشرف،

ولكن أين هو؟ إذ عليه أن يقف في المكان المحدد له. وإن كانت نينا هي ذاك الكائن الخرافي... إن كانت هي! لتورطت في أزمة لا مخرج منها! هل من الممكن أن تكون نينا ابنة الكلب أرتروس والخيمر الذي وصل عبر الفضاء قادماً من أعماق أثيوبيا؟ هل من الممكن أن تكون السفنكس؟ فيتعذر عليّ الامتناع عن مواجهتها والتعرض لأسئلتها والإجابة عنها؟ كلا، فقد يكون ذلك بمنتهى الغرابة. وحتى أن هذا الوحش، ذاك المخلوق المسكين قد يكون عديم الأهمية. فاللغز يكمن في مكان آخر أبعد من ذلك، في رواق أبعد ليس مفتوحاً فحسب: إنما عالي السقف وعريض الممر أيضاً. فالسفنكس، إن كان كلباً أو كلبة، لا يطرح الأسئلة عند المدخل سوى لتحقيق الآمال من أجل تخييبها فوراً بعد ذلك. ولا يأخذ الكلب وضعية التأهب، إنما يتمدد على الأرض طاوياً ذنبه تحت جانبيه منغرزاً في الرمل. وهكذا يتمكن الرواق من تأمين الحماية لنفسه معتمداً على اللغز والمدخل الملكي....

وها هي الكلمات تنفجر بشكل ألعاب نارية فظة تبرز فيها كل كلمة تمَّ رفض سماعها لفترة من الزمن؛ فتفرقع وسط أنصاب النيون المشيدة في أرض حرم رويتوف. باقات وضمات وهَبَّات من الكلمات تمثل نينا التي لم تفتقد يوماً الحجج ولن تمل يوماً من توجيهها إلى من حولها.

أما هو، فلشدة قلقه عليها ولحماية نفسه في آن، جاء جوابه كما يلي:

ـ تريدينني أن أمر عبر البوابة السوداء؟ أهذا ما تريدينه حقاً؟

ولكن صوته ارتبك فغص عند المقاطع اللفظية الأخيرة. أتراه الخوف سبب له هذه الحالة؟ ولكن سرعان ما أفحمته نينا بقولها:

ـ البوابة السوداء، ولكن عن أي بوابة تتحدث؟ إنك لم تعد تدرك حتى ما الذي تقوله.

صه، صه، يا راسّك. بعدما أجبر نفسه على الصمت. لم يقم سوى بتكرار ما قاله ضاحكاً:

ـ البوابة السوداء؟ البوابة السوداء؟

أتراه خائف إلى حد تبليل ثيابه؟ الرواق والبوابة السوداء: كيف يتأكد المرء، وممَّ تراه يتأكد؟ وإن اكتفى في هذه الحال بصلاة واحدة؟ ومن دون التفكير في الموضوع. فأوديپ لا يفكر أبداً، إنما يكتفي بالتقدم عندما يشارف على الموت.

فتسلحت نينا بنبرة عالية لتغرز عبرها المسمار بل عشرات المسامير:

ـ كل هذه الأسئلة! إنك تفرط في طرح الأسئلة. وتسعى دائماً إلى المعرفة وكأن رغبة ملحة تتآكلك. ولا تقوم في النهاية إلّا بما يحلو لك. أنت عنيد وسيىء الطباع. لا بد بأن البوابة السوداء أصبحت قريبة. ومنذ ذلك الحين، بدا لراسّك بأن الهواء امتنع من الجو ومنعه من التنفس، وبأن الهواء بات صامتاً واصماً. وأصبح متصلباً إلى حد أنه قد يتعذر على رصاصة دمدم اختراقه، وقد تضطر في النهاية إلى الاستسلام له حزينة بهزيمتها.

وبما أن حبل التواصل قد انقطع بينه وبين نينا، قال في نفسه: ولكن لا تنسَ العينين، فأنت ما زلت تملك سلاح العينين، ويمكنك اللجوء إليهما إن أردت ذلك لتنجح بنظرة واحدة في

اختراق سماكة هذه البوابة وسوادها وليلها وتتمكن من تذويب سبيكة الحديد والدلب الممزوجين وتقطّع وحشيتها إرباً إرباً.

ولم يعد صوت نينا بغوصه في أوتار غليظة مأساوية يسيطر على فراغ حي رويتوف الجديد. فإذا بالصمت يجمع ألف طبقة من الإسمنت. وهكذا أصبح الشب أسير هذا الإسمنت يتخبط في سجنه.

إلّا أن راشيك نجح في التفوه ببعض الكلمات:

ـ لا يمكن إذاً السماح لسيئي الطباع بالتنزه بحرية أو التساهل معهم بهذا الشأن.

أهذا ما أردت قوله أم تراني مخطئاً؟

إلّا أن نينا اكتفت بتصنع صمت وتحفظ لم تكن معتادة عليهما: ولكن ذلك لن يدوم طويلاً أو سيدوم إلى أن تفترض أنه ما عاد من واجبها أن تراعي أصولاً معينة، بعض الأصول الأخيرة معه.

فأدى دور المستفز قائلاً:

ـ لا تنسي أن الأموات يعودون، ولا يتخلفون أبداً عن العودة. والأمر أسهل بكثير بالنسبة إلى من سينجون.

وبما أنه ذكر الموضوع، حاول الإفادة منه إلى حد مبالغ فيه بقوله:

ـ سترين أنهم سيأخذون بالثأر. سينتقم الجميع، الأحياء كما الأموات.

فتنازلت السذاجة بنفسها وأجابته:

ـ نود تنظيف البلد من عديمي الجدوى وقطع الأشجار الميتة. إننا نقوم بالتنظيف فحسب.

فاستعاد راسّك صوت الولد المطيع، صوتاً استخدمه في أيام طاعته ليقول لها:

ـ أجل، التنظيف... إنما قولي لي من فضلك ماذا سيبقى بعد الانتهاء من عملية التنظيف؟

ـ ماذا سيبقى؟

وبدا جلياً بأن هذه المسألة لم تشغلها يوماً في حياتها. لذ استغرق التفكير فيها بعض الوقت حتى تمكنت نينا من التركيز قبل أن تجيب بلا مبالاة:

ـ عالم نظيف. ما الذي سيبقى؟ سيبقى عالم نظيف!

ـ إن ما تقولينه غير صحيح. لم تفكري يوماً في الحال بعد عملية التنظيف. لم تفكري أكثر من زملائك. لن يبقى إلّا أفظع اللعنات. كوني على ثقة.

ـ عالم نظيف. رجال ونساء خيّرون يتشاركون الفكرة نفسها، فكرة واحدة هي:

الخير.

يا لها من كلمات رنانة! كم تجيد تلاوة درسها!

ولكنه ضحك هازئاً:

ـ عالم نظيف؟ مع أشخاص مثلك؟ يا سلام!

ـ مثلي أنا؟

فجاء تعبير السذاجة غير المصطنع على الإطلاق مرة أخرى كرد على سخرية الرجل:

ـ مثلي أنا؟

ـ لن يبقى إلَّا أعظم اللعنات! واسمها سينجلي بكلمتين هما: الطاعون الأسود. ولن تتمكنوا من تفادي محنة مماثلة!

فلم تقو نينا إلَّا على الفقفقة:

ـ مثلي أنا؟

وما لبث السفنكس أن شعر بالاهتزاز مذهولاً بكلام راسّك الذي راح يفكر: عليّ ألّا أنسى أنني أوديب فقد يشكل هذا النسيان خطأً فادحاً حالياً. وإلَّا، فما فائدة الزواج من الأم؟ أن أكون ابنها وزوجها في آن حتى لا تفكر هذه المجرمة إلَّا في إجباري على المرور عبر البوابة السوداء؟ أنا من يدرك كل ما يدور حوله. أنا من يرى نفسه وقد بدأ يتجول بعينين مقتلعتين. كما أن الضحية ستكون في هذه الحال على أتم اتفاق مع الجلاد. ولكن البؤس سيكون قد ألقى بظله على العالم قبل بدئه بالبحث عن طريق ثيبة وهو مقنع، واستعارة سكان ثيبة بعد ذلك لوجه أوديب. لا بل قبل ذلك: ساعة قتل أوديب أباه وساعة يحين وقت اكتشاف ثيبة للجرائم التي حصلت على أرضها، بدءاً بقتل الملك، مروراً بقتل الوالدين، وصولاً إلى فظاعة ذنب سفاح القربى كتتويج للجرائم السابقة. ولن يكون الوقت بالطبع مناسباً حينذاك للمناداة بحياة القيصر، إنما ربما بحياة الإمبراطورة. فمن يدري؟

وإذا بنينا تتكلم من جديد، إنما بنبرة أعلى من نبرتها الاعتيادية، فبدت وكأنها تتمتم في ذاتها تقريباً:

ـ أقوم بهذا العمل من أجل من يستحقه، من أجل الجيل

اللاحق. أقوم بهذا العمل كرفيقة ينبغي أن تقدم مثلاً صالحاً لغيرها.

ـ تقومين بهذا العمل من أجل الآخرين بالدرجة الأولى، إنما من أجلك أنت أيضاً بالدرجة الثانية!

ـ من الضروري أن يقوم به أحد. ولكنك لا تفهم ذلك. ينبغي أن يمهد أحدنا الطريق ويرفع الركام ويتخلص من الأشياء الموبوءة والأوساخ. علينا السهر على هذه المسألة، فنحن نحافظ على سلامة الناس. أما في ما يتعلق باستفادتي الشخصية من هذه المبادرة، فلم تصب في ذلك على الإطلاق.

إنما بدت عليها الحيرة فجأة، فأطلقت هذه الملاحظة:

ـ ولكن ما بك ترجّح رجليك بانتظام؟

فما كان من راسّك إلّا أن أجاب متذمراً: ـ رجلي مشوهة.

ـ يا لها من مهزلة! رجل مشوهة! أنت؟ يا لها من قصة! ومنذ متى؟ هذا إجرام، لا بل أقرب إلى الترتيل في الكنائس!

وفي هذا الوقت، أخذ راسّك يقول في نفسه: إني لا أنزعج إن وصفتني يا نينا بالمؤمن المتزمت أو المخالف للقانون، بل إني على العكس أحب ذلك. فأنا أوديب بالرجل المشوهة ولكن لا أهمية للموضوع. أردت تذكيرك بالشاعر فحسب. ألّا تذكرين أنه كان يقف في هذا المكان بالتحديد بوجهه القرمزي ولحيته الشبيهة بلحية الأقزام؟ ولكن أين هو الآن؟ أين هو بحق السماء؟ تذكري المشهد: ما إن رآنا نرقص حتى جر الآخرين بكل بساطة إلى نشوة الحلقة فيما كنا نستدير. فانضم كل من حولنا إليها، وكأن مجرة الأخت النيرة تغمر الشمس والقمر بذراعيها. وهكذا بارك

اتحادنا: على طريقته كشاعر. أما أنا الشاعر الهاوي، إنما في روحه فحسب كما يفترض بي أن أكون في هذه السن، فبدوت كالمخبول. كنت شاباً ولم أكن أفهم معنى الشباب الذي يعوض على الشاعر عمره الغابر ويرفعني إلى مستواه. وقد رفعتك بدوري إلى المستوى نفسه. تذكري كيف كان يحسب نفسه مساوياً لنا ويحادثني وكأني زميله ويعاملك على أنك من النبلاء. أين هو الآن؟ ربما تعرفين ما حلّ به. فنحن لم نكن نفترق. ألم تتمثل مهمتكم أنت وأصدقاؤك بالسهر عليه هو الآخر والمحافظة على سلامته؟ أو تراه كان يشكل عوناً خطراً ومشكوكاً فيه لا يجوز الاستناد إليه عند البدء بالعمل على تحقيق سعادة الجميع؟

وحينذاك قال راسّك لنينا: ـ أنت بالذات من بلغ عن آل كافر.

ـ نعم، أنا فعلت.

ـ فاختفوا من هنا. وآل راكازين أيضاً؟

ـ آل راكازين أيضاً.

ـ واختفوا من هنا. تلزمك الشجاعة لتقومي بما تقومين به. أحسنت، فاختفاؤهم هو بالتأكيد من فعل يديك.

حتى ولو لم يبقَ أي مجال لبصيص أمل صغير: ولكن المجال بقي متاحاً من دون أدنى شك أمام هدنة مؤقتة، إذ قامت معاهدة سلام تلقائية بينهما. وحتى لو افترضنا بأنهما قاما بخطوة حاسمة يتعذر عليهما الرجوع عنها ونادراً ما يمكن العودة بعدها إلى الوراء، فلا بد إذاً بأن يكونا قد خلفا وراءهما العديد من الجثث، الكلامية على الأقل.

فحل الصمت لبرهة. وبعدما تركته نينا ينحل، أجابت:

ـ لا أتوقع منك المديح، فكل ما أسعى وراءه هو أن أكون مفيدة.

وعندما قرر راسّك الإجابة بعد مرور وقت قصير، قام بذلك بتجرّد شخص أصابته قذيفة ضائعة:

ـ بالتخلص ممن هم بنظرك عديمو الجدوى؟

فعاد صوت نينا حينذاك ليرتفع من جديد:

ـ هؤلاء المؤذيون الذين تتحدث عنهم! ينبغي تدميرهم! ينبغي تنظيف العالم منهم! ولكنها سرعان ما استعادت اعتدال مزاجها بعد غضبها العابر. فنينا تتحلى بإيمان مترسخ لا يتزعزع. لذا خشي راسّك من سماع خطاب بكل ما للكلمة من معنى. ولكنه نجا منه. فعاد إلى المعركة باقتناع تام:

ـ يدين لك العالم النظيف الذي تعملين من أجله بمعروف كبير تستحقينه. عليك الإيمان فعلياً بالقضية لتتكبدي كل هذا العناء.

هل من الممكن أن يعوض عليها بحس الفكاهة؟ يا له من رهان سخيف وخاسر. ومع ذلك: فالأمل ما زال حياً. إذ يرقد قاض منصف داخل كل امرأة، وستتفوق نينا عليه دائماً بهذا الأمر بالتحديد. فأدرك فجأة بأنهما لن يتأخرا عن مواجهة البوابة السوداء، بوابة لا تنتظر منهما إلّا أمراً واحداً: أن يتخطياها.

فقالت له: ـ لا يرغب المرء في أكثر من ذلك.

ـ لم لا؟

ـ من الأفضل أن تصمت.

ماذا يمكن أن يخسر بعد إذا طعنها مرة أخرى؟ فحذَّرها قائلاً:

ـ تعرفين أن الحال قد يتبدل.

لم تنقض عليه، فنينا لم تفكر سوى في الاستعلام بنبرة طائر ليلي يستنطق الظلمات:

ـ يتبدل؟... ما الذي قد يتبدل؟

ـ إن اتهموك يوماً. إن حاكمك هؤلاء أنفسهم بتهمة التورط في مؤامرة وأعمال حقيرة وغير إنسانية في يوم من الأيام. سيكون المشهد مضحكاً بالفعل!

ـ إن اتهمونا؟ ولكن من؟

لم تكن تفهم قصده منذ سنوات عديدة. كما أنها توقفت عن الاهتمام بما يتفوه به هذا الرجل منذ زمن أبعد من ذلك بكثير.

لكنها قالت له وهي شاردة لمجرد متابعة الحديث:

ـ ولكن من؟

ـ الأشخاص الخيّرون. أشخاص أفترض أنكم تكرسون لهم حياتكم، أنت وغيرك ممن معك، وتوافقون على القيام بهذه الأعمال من أجلهم. فما أدراني؟ أما الذين لا يطلبون منكم بذل هذا القدر من الجهود، وربما حتى من يقومون بمساندتكم، فيدفعونكم حتماً من الوراء!

وللمرة الأولى خلال نزهتهما، استرسلت نينا في ضحك اجتاز المساحة التي تشغلها الأبنية زارعاً الرعب في قلب راسّك. وأطلقت هذه الضحكة بنبرة الطائر الليلي الواضحة نفسها.

ثم قالت ساخرة: ـ من هم هؤلاء؟ إنهم أنا وأنت ونحن جميعاً! أما الآخرون الذين يدفعوننا كما تقول، فلا أعرفهم أو هم بالأحرى الجار والميكانيكي أمام أداته الآلية والحطاب في الغابة وآلة الطبع الصغيرة.

واسترسلت مرة أخرى في الضحك. ولم تضع له حداً حين كررت ما قالته:

ـ أنا وأنت ونحن جميعاً. المهم أن يؤدي المرء واجبه على أكمل وجه.

ـ لديكم مفهوم أخلاقي خاص بكم قد لا يوافق عليه غيركم.

ـ لا يهمني رأيك.

ـ ويبدو ألّا أهمية لكوننا متزوجين فضلاً عن ذلك.

ـ هذا ما يسمى بالنزعة الفردية!

ـ ترددين اللازمة نفسها. ولكن هل فكرت يوماً في مدلولها منذ أن بدأت بغنائها على مسامعي؟

فقال راسّك في نفسه حينذاك وهو ما زال يعرج على مضض: أما امتياز أوديب، ـ فكان اهتمام الآلهة به.

ـ في النهاية يا باب عمّار، نحن لم نصبح جزائريّين إلَّا منذ فترة قصيرة فحسب. وكنّا لا نزال فرنسيين حتى البارحة. ولكن ماذا سيحلّ بنا غداً؟ هل يحتّم علينا القدر أن نبقى ضائعين من دون هويّة ثابتة طوال أيامنا؟ ما رأيك؟

ـ أظنّ أنّ وضعنا لم يتبدّل يوماً.

ـ ألم يتبدّل وضعنا؟

ـ مهما كانت جنسيّتنا، فلقد سبق أن حملناها البارحة، كما أنّنا نحملها اليوم، وسنحملها غداً أيضاً.

ـ ولكن بعد غد؟ هل من الممكن أن نصبح صينيين؟ أو ربّما يونانيين؟ أو من أيّ جنس بشريّ آخر؟

ـ كلّ ما شئت! فمسألة الجنسيّات تلك ليست إلَّا...

وعندئذ، بدا باب عمّار وكأنّه ملّ فجأةً من ذلك الحديث، أو قد ساوره على الأقلّ شكّ في ما يتعلّق بفائدته.

أمّا الشخص الذي بدأه، فلا يبدو أنّه قد ملّ منه، إنّما بدا

وكأنّه يتوقّع منه أكثر من ذلك، ويأمل التوصّل من خلاله إلى حقائق لن يستطيع من دونها التعمق في النقاش وتوسيعه بشكل كافٍ ما داما قد توقّفا عند هذه النقطة. إنه شاب أنيق الملبس، في الثلاثين من العمر، إسمه فوديل.

أراد دفع باب عمّار إذاً إلى متابعة الحديث بتكراره:

ـ مسألة الجنسيّات تلك ليست إلّا؟...

ـ إلّا دخاناً بلا نار.

ـ دخان بلا نار إذاً.

ـ دخان بلا نار.

ـ بحقّ الشيطان!

وأخذ فوديل يفكر في الموضوع مذهولاً. ثمّ طرح المسألة التالية:

ـ على كلّ حال، أودّ لو تعلمني كم من الوقت سيستغرق هذا الدخان حتى يلتهم لنا عينينا في مرحلة أولى. ومتى سيكشف لنا، ما إن يتبدّد في مرحلة ثانية، ما يسمى بأن نكون أنفسنا إذا جاز لي قول ذلك، أي ما نحن عليه الآن، أو ما نظن أنّنا عليه.

وبدا متسلحاً بصبر أيّوب بعدما اتخذ وضعية الانتظار. فلا بدّ لكلّ من يتعامل مع باب عمار من التحلي بالصبر. فباب عمار بدأ يعيش واضعاً رجله في الأبدية. وماذا عن واجباته؟ وكيف تسير أعماله؟ وما قصة محلّه التجاريّ الحافل بركام المقالات التي تكاد تتداعى جدرانه عليها؟ لا يرى العجوز في كلّ ذلك سوى تسلية بالمعنى الحصري للكلمة. ولقد تخطى فوديل مرحلة اكتشافه، مع

العلم بأنه هو الآخر شخص حرّ يتصرّف على هواه، ولا واجب يقيّده على الاطلاق كذلك. ولا واجب يربطه بأيّ مكان.

فسارع إلى الإضافة، آملاً في سماع ردّ، ومستبقاً ذاك الردّ في آن:

ـ ماذا قد يحدث لو علمت ذلك.

فقال له صديقه العجوز:

ـ نعم، ماذا قد يحدث! وماذا يشبه ذلك؟ بإمكاننا أن نستسلم لأوهامنا دائماً.

ـ أوهامنا؟ ولكنّي موجود، ويمكنك أن تراني وتلمسني.

ـ وينبغي أن يكون ذلك كافياً لكلّ شخص. ولكلّ الناس. غير أننا لسنا سوى أوهام عابرة.

من الصعب معرفة علامَ يستند باب عمار في اعتقاده، وما الذي يشغل باله أيضاً. وإن أوضح فكرته بأسلوب يميل إلى الدعابة، فهو قد فعل ذلك بنبرة تتجاهل الأذى الذي قد يحدثه. ولم يستطع فوديل يوماً أن يُدرك ماذا يجول في باله، إلّا أنّه تعرّف صديقه القديم عبر ذاك الأسلوب الكلامي، واستمع إليه يتابع حديثه:

ـ نحن أنفسنا، ولسنا مضطرين إلى القلق بهذا الشأن، والتمزق من الداخل. نكون أنفسنا بمجرّد اكتفائنا بأن نكون موجودين.

وشعر بضرورة التوضيح:

ـ نكون أنفسنا من دون أن نهتمّ بما نحن عليه.

ـ هل هذا كلّ ما في الأمر؟ من دون أن نهتمّ...

فأكّد باب عمار ذلك، مبقياً على نظره ضائعاً في الفضاء الخارجي:

ـ الجواب بكامله كامن في هذه النقطة.

ولكنّ الفكرة التي تقلق فوديل تتمثّل بما يلي:

إنّي في الحقيقة أتغابى لأحصل على المعلومات. ولكن ما الذي يدفعني إلى القيام بذلك. أيّ جنّي غريب؟

فقال حينذاك، من دون تفكير، وكأنّ اليأس قد غلبه:

ـ يا صديقي المحترم، ما المقصود من ترّهات أسئلة أسخف من بعضها البعض، وأصرّ على إضجارك بها؟ إنّي أستغلّ رفقتك الطيبة.

أو ما المقصود بالأحرى من هذه اللطافة والمجاملة! لِمَ أفرط في الكلام، فيما لا أؤمن في ما أقول؟ وأنثر الأسئلة في كلّ مناسبة. لعلّه هوس يسيطر عليّ. ولكنه لا يتّسم يوماً بحسن النية. إنّها كتلة هذيان لا ترد فيها فكرة عاقلة واحدة. أمّا أنا: فإمّا حقل فراغ أو ميدان معركة أو الإثنان في آن معاً. الأطياف تلاحقني وأصداء الماضي تصمّ الحاضر. والأموات يهجرون أضرحتهم ليلعبوا معنا نحن الأحياء ويضاجعونا، ثمّ يتبخّرون ولا يخلفون وراءهم سوى الفراغ والصمت؛ فراغ وصمت أملأهما صراخاً يوقظهم من جديد، أولئك الأموات من بين الأموات، ويجمع الأموات أنفسهم، أمواتي جميعاً. لذلك تراني لا أنتظر إجابات من باب عمّار أكثر ممّا أنتظرها من أيّ إنسان آخر. وهل سأحصل على أيّ منها من... أيّ أحد، من رسول صالح، فلا أهتمّ بها، لأنّ الأطياف بدأت تعطيني إجابة منذ ذلك الزمن الماضي الأقلّ قِدماً ممّا يبدو عليه. فهي من جهتها تجيبني. أولست

طيفاً أنا الآخر، ومنشقّاً يطوف في العالم؟ وتسألونني عن شبابي النسبي؟ ولكن، لنكن واقعيين، فما مدى تأثيره على هذه المسألة؟

قال فوديل ذلك، مع أنّ ذلك لم يكن ما أراد قوله، ولكنه تفوّه به. ومنذ ذلك الحين، سعى جاهداً إلى إيجاد نفسه، واستئناف الحديث، حتى أنّ أفكاره أصبحت الآن في طور البحث عن نفسها وعنه في آن. فسعى إلى لفت انتباه محادثه. إذ يعرفه شحيح الكلام، ويرفض التباهي بعرض معلوماته، والقيام بضروب الاثباتات المعروفة. فتنهّد قائلاً بصراحة كبيرة نسبياً:

- يا صديقي....

إلّا أنّ النداء بقي معلّقاً في الهواء. فشعر فوديل بالحرج تقريباً، وربّما بالنذالة. فمن المحتمل أن يكون باب عمار قد نسي وجوده لأنّ العجوز لا يهتمّ سوى بالذهاب والإياب المستمرّين، بالعرض الدائم وببريق الأشكال والألوان المجزأة المعكوسة عبر فتحة الباب. وتصدر كلّ هذه الحركة من أحد الشوارع المفضي إلى الموقف بمقاهيه وفنادقه ومتاجره وحرفييه وبائعيه الجوالين والصائحين، أحد الشوارع الأكثر ازدحاماً. إستقرّت فيه إثارة الهياج الشعبي بشكل دائم، حتى في الأيام الخالية من الاغتيالات. فلم يسيطر عليه إلّا مبدأ الفرار تحت سطوة نور قاتل. وفي هذا المكان بالتحديد، يملك باب عمار متجراً ورثه عن والده الذي كان قد ورثه بدوره عن والده، ويمارس فيه تجارة الصوف الخام والحصائر المصنوعة من ورق الحلفاء والأقدار المصنوعة في مدينة ندرومة والحبال والغسول وأطباق الكسكس المصنوعة من خشب الميس الفعلي والأمشاط، تلك الأمشاط

المربعة الشكل والمشغولة يدوياً بالسندان والمحبذة أكثر من غيرها لدى النساء. ويتجاوز جزء مهمّ من هذه السوق المساحة المحددة له ليمتدّ إلى الرصيف كما لو كان في قرن الخصب.

لم يتحرك باب عمار، إنّما بقي جالساً مستقيماً على كرسيه الملبس باللبد، متخذاً وضع المتيقّظ. فهل يخشى أن يدوس المارّة بأرجلهم على بضاعته المعروضة والمنتشرة على مستوى الأرض؟ وإذا وجّه أحدهم ملاحظة مماثلة لباب عمار، يبوح له بالحقيقة قائلاً: «هذا ليس صحيحاً؛ فإذا حصل أن سرق أحدهم غرضاً ما، فلن يكون سوى غرض زهيد الثمن».

أمّا فوديل الذي يراقبه من طرف عينه، فراح يفكّر:

حسناً، إنّه لا يراقب ركام بضاعته أكثر ممّا يراقب الشارع. ولكن ما الذي يثير اهتمامه إذاً؟

وبما أنه جالس في الجهة الخلفية من المتجر، تراه مأخوذاً هو الآخر بالشظايا التي يرسلها الاجتماع الفوضويّ تحت سطوة الشمس ويرميها عبر الباب. فيحلّ في المكان انبهار شهابيّ مذهل إلى حدّ الاختناق، حتّى أنّه إنبهار قاتل.

فقال فوديل في نفسه: قاتل بالفعل.

ومع أنّ الشكوى قد غصّت في حلقه الذي أصبح جافاً بشكل مفاجىء، إلّا أنّها مهّدت الطريق لنفسها، آه... سيل من المارّة وسيل من الأفكار. إنّه السيل نفسه، فاستغرق مجدّداً في التفكير: ما من قوة تقطع الطريق على الأموات الذين نجرّهم لملاحقتنا، ما لم تتمثّل... بموتنا. ولكن إذا متنا نحن الآخرين، فسيحيا الأموات كافةً، إبتداءً من الميت الأوّل بينهم، فتبقى لنا بذلك

الأيام الحلوة. أمّا إذا بقينا أحياء، فسيستمرون بتعقبنا واعتراض طريقنا، ذاك الطريق المرسوم بوضوح، وطالما أنا حيّ، تراني أحمل من أعطاني الحياة على كتفيّ. فلا يمكن القول بأنه لفظ كلمته الأخيرة في وضعه المؤجّل والضعيف والمتردّد كميت فعليّ. والإثبات؟

ما زال فوديل هنا محاصراً بأفكاره الشاردة، يراقب الباب وضوضاء الشارع. الإثبات... لقد نسي عن أيّ إثبات يتحدّث. أصبحت شخصاً آخر. الآخر، ذاك الآخر الذي ينقل العلم بموته الحتميّ.

لم يطلق العجوز من جهته أيّ صوت، خلال كلّ ذاك الوقت الغريق. وما إن ينظر المرء إليه حتى يتساءل ما إذا كان يكتفي بالإصغاء فحسب، مستغرقاً في رؤاه تماماً كفوديل، إنّما من غير الممكن معرفة إلى أيّ أصوات وإلى أيّ ضجيج يصغي؛ أو إلى أيّ دعوات أخرى.

وإذا بأفكار فوديل تسرح من جديد بحرية تامة: ولكنّ الحرب دائرة الآن. أيّ حرب؟ الحرب التي يشنّها أهلنا على أنفسهم! إنّها صور سيرك تمرّ أمام هذا الباب، رقصة بهلوانية، بل رقصة موت أثارتها شمس قاسية. الحرب دائرة بأقنعتها المختلفة. حرب أهلية غير متوقّعة. إعتداءات واغتيالات وتهافت على السيارات المفخّخة والفؤوس والسواطير والقذائف المرمية بسرعة فوق الجناح. إنّه احتفال. إحتفال شعبيّ يليق بهذه المناسبة الوطنية. ومع أنه لم يتمّ إطلاق أيّ دعوات، إلّا أنّنا استُدعينا جميعاً، فقد تمّ الإعلان عنها جهاراً. إحتفال تكون فيه المنيّة أوّل مغنية مشهورة تأتي لتقدّم عرضها؛ كما أنّها آخر من يُسقط قناعه

> ليضرب ويدمي ويمحو. إنّها مجزرة موجّهة ضدّ الإفراط في العيش، تستقطب فيها المغنية نفسها أجهزة التصوير كافة.
>
> نجهل من يحمل الساطور والفأس ورشاش الكلاشنكوف. لست أدري. أهو ابن الأخ؟ هل العمّ هو من يضرب ويُدمي ويمحو؟ لا؟ أهو الصهر؟ هل الصهر هو من يضرب ويُدمي ويمحو؟ لا؟ أهو الجار؟ هل إبن الجار هو من يضرب ويُدمي ويمحو؟ الكل. فبالتكاليف نفسها والأساليب السابقة نفسها، يحلّ الأموات الجدد مكان أموات البارحة. وتدور الناعورة غاصةً بالدماء. فما من يوم يكتفي بعقابه.

يسيطر الشارع على نظر فوديل: إنّ النور الذي أصبح صحراوياً نوعاً ما يفصلنا عن واقعنا المادي على هذه الأرض. ثم انتفض للفكرة: إذ بقي الحاضر في إطار الباب مستديماً وثابتاً. فألقى بنظره على العجوز المتصلب والمستقيم في كرسيه. ولم يستطع منع نفسه من استفزازه:

ـ يظنّ شبابنا، المتقدّم في السنّ من جهة أخرى، أنّه يستطيع الإجابة عن السؤال التالي: من نحن؟ قاضياً بعنف على الرجال والنساء والأطفال، ودعنا لا ننسى الرضّع. فهل تظنّ يا صديقي أنّ النتيجة أتت على مستوى تصميمهم، وأنّهم حصلوا على تلك الإجابة، أم سيحصلون عليها؟

ما من إشارة تدلّ على أنّ هذا الكلام بلغ المستهدَف. إذ لم يغيّر على الإطلاق، لا من وضعيته ولا من تعابير وجهه. وبقيت أذناه مصابتين بالصمّ تحت شعر لحيته. أمّا عيناه، فتحدّقان في البعيد، وكأنّهما تراقبان البحر من أعلى السواري: هذا ما يظهره

تركيز انتباهه في وضعيته تلك. ففكّر فوديل: ما من وسيلة فضلى لإثبات فراغ هذا النقاش المثير للسخرية.

فرفع العجوز عنقه حينذاك، بعدما وضع يده في يده الأخرى، جامداً على كرسيه، ومرهفاً حواسّه كافة. ولم يكن بذلك يترقّب وصول زبون مفترض؛ فهذا آخر همّ يشغل باله. ولكنّه وفقاً لفوديل، ينتظر ما ننتظره جميعاً إذا لم يبقَ لدينا ما ننتظره. ثم استشهد بنفسه لمجرّد التسلية، فقال في نفسه: وإن كان الله الاجابة عن الأسئلة التي لا جواب لها؟ تلك الإجابة التي لا يمهّد لها أيّ سؤال؟

ولكنه لم ينسَ الموضوع الرئيس، إنّما عاد إليه تماماً كما فعل باب عمار، إذ قال حينذاك:

ـ إني من جهتي أشك في ذلك.

ـ أشاطرك الرأي. وهل من الضروريّ الحصول على تلك الاجابة؟ وأيّ ثمن علينا دفعه حتّى نحصل عليها؟

واضطرّ الشاب الطيّب أن يلقي خطاباً:

ـ لن نحصل على إجابة حتى ولو ذهبنا إلى بلاد الهند للبحث عنها. ولنفترض أننا أتينا بإجابة، فلا مجال للتفكير بأننا سنكون في تلك الحال أكثر علماً. فالقول: نحن موجودون يعني بحدّ ذاته الافراط في القول وفي الوصول إلى الغاية.

كلّ منهما يغني على ليلاه. ولكن أيّ مرح ماكر يفتح عيني باب عمار ويبرز قسمات وجهه؛ أو بالأحرى قسماً يتمثّل بالأنف والوجنتين والجبهة لم يلتهمه شعر لحيته الأبيض!

فقال فوديل في نفسه: إنّك في الحقيقة لا تعلمني بأيّ جديد يا

صديقي. إلّا أنّ هذا التأكيد، أو ذاك الإقرار المروّج له، قد أفرحه رغم كلّ شيء. وكان ليُفرحه أكثر بعد. إذا كان هذا الخصام قد صلب جيل باب عمار كما يصلبنا. وإذا كان قد أربك أهالينا بنسبة ضئيلة أو كبيرة، أولئك الذين اعتبروا أنّ مهمّتهم الأساسية تتمثل في قيادتنا بالعصا مذ كنا أطفالاً، وركزوا هوسهم على ترسيخ الاحترام في أنفسنا. إحترام نعين نكنّه لشخصهم أوّلاً. تلك كانت إجابتهم. وما كانوا ليسمحوا بأيّ إجابة أخرى. وتشكل هذه الإجابة قانوناً يرتكز إليه والدي، ويزايد عليه من جهته، متمسكاً بحقه الطبيعي في ذلك. ولم يكن مضطراً للدخول في إحدى نوبات الغضب البربري المعروفة لديه، فعناده المتعجرف كان كافياً لإذلالنا نحن. إذ كان من طينة الرجال الذين يرفضون أن تُناقش أوامرهم. فجسّد بالتالي القانون بحدّ ذاته وكأنّه موسى المحفور على اللوح. يا لهول نظرته تلك التي كان يسلّطها علينا من دون أن ينبس ببنت شفة! كانت لتدفعنا إلى طمر أنفسنا تحت الأرض، ولم يكن ذلك بكافٍ. والأسوأ كان عندما تمتلىء عيناه بنظرة ساخرة. فهل تراه كان يتمتّع برؤيتنا نُذلّ أنفسنا أمامه؟ لكنت أخذت بتلابيبه، إلّا أنّ عينيه نفسيهما المختبئتين تحت حاجبين مشعثين، هاتين العينين بلون العنبر في الضوء، وبلون السبج في الظلمة، أبعداني عنه وسمّراني في مكاني. كنت أبدو كذئب مجروح مستعدّ للأخذ بتلابيبه، ولكني لم أرتمِ على عنقه، ولم أصرخ: إذ وجدت تصرّفه طبيعياً في أعماق نفسي. ولو كان مختلفاً، لرفضت تقبّله والخضوع له. فبغضّ النظر عن ثقل حياتنا، كان هذا الأب يحمل ماضينا وتقاليدنا على كتفيه، من دون أن

يحني ظهره. فبدت لنا بذلك قساوته مبرّرة، وتعايشنا معه. ورغم كلّ الأسباب التي قد تدعونا إلى نلعن مصيرنا، إلّا أنّنا لم نكن آخر من يحتقر إلى حدّ كبير الرجال الذين لا يُشبهونه. ولكني من جهتي تمكّنت من استقاء الفضيلة من ضعفي الشخصيّ. ورصدت التركيز داخل أعماقي حتى تمكّنت من إعداد استراتيجية قضت: بترك جلدي له، أي ما لم أكن عليه، واحتقاره. ورحت على طريقتي أدّعي بأنني أتحلّى بقوّة إرادة تضاهي إرادته. فأنا لم أكن ابنه هباءً. وبما أنّ معاملته السيئة لي لم تحملني على الخضوع له إلّا ظاهرياً، كنت أزيد أكثر فأكثر من تكتّمي، وأفلت منه أكثر فأكثر. أمّا هو فحافظ على اندفاعه خلال كلّ ذلك الوقت، فلم يتحسّن، ولم يصبح أسوأ، إنّما بقي وفياً لعاداته، مملاً بتسلّطه، ومنقسماً بين ولعه المتأصّل بالاستبداد وولعه المتأصّل بالعمل بالنسبة نفسها. فقد ترك له أجدادي إرثاً مؤلفاً من عدد من الأملاك التي كان يستثمرها، وكان يتمثّل بهم، فلا ينفق فلساً إضافياً عليها ما لم يبدأ بالربح أوّلاً. تلك تربية عائدة إلى زمن آخر لا يعترف بأنّه من مؤيديها النادرين في عصرنا هذا. وكوني وريثه، يحقّ لي التصرف بتلك الأملاك بدوري، مع أني لست مضطراً إلى الاهتمام بها لا من قريب ولا من بعيد بما أنها تزدهر بنفسها. لا أستطيع أن أتصوّر بأنّ أبي كان شاباً في يوم من الأيام. ولكنّ الذكريات المماثلة تخلّف حسرة في قلبي، لا سيّما في مدى إصرارها على ملاحقتي. إلّا أنّ غيظي السري يكمن في أني لم أجرؤ يوماً على إظهار مدى حبي له وتأييدي له. هذا الفشل الأبرز في حياتي.

قبل أن يتنبّها لها، كانت تقف أمامهم بحضور حاسم لا ريب فيه، مرتدية بنطال جينز أزرق وسترة قصيرة وقميصاً أبيض، وتغطي رأسها كميةٌ من الشعر متدليّة فوق كتفيها بأشلاء وخصل متلاصقة تقريباً. أمّا الوجه، فلا يظهر أبداً لطريقة وقوفها تلك وهي تدير ظهرها للتوهّج القادم عبر الباب. إلّا أنّ بياض عينيها أو أسنانها كان يطلق شرارة لمعان في بعض الأحيان.

مدت ذراعها لتشير إلى المشط الذي تمسكه بيدها وراحت تتكلّم بصوت ضاحك، ولم يُخفها إطلاقاً وجود الرجلين. باب عمار الذي يبدو متقدّماً في السن إلى حدّ كبير، فضلاً عن فوديل. ولكن دعونا لا نتكلّم عنه، فقالت:

ـ عجباً! هل من المعقول أن نجد مشطاً كهذا في أيّامنا هذه!

عجباً! هكذا أوضحت فكرتها. ثم تابعت:

ـ كانت جدتي تملك واحداً مثله. أذكر أنه يشبهه تماماً. ولكني لا أدري ماذا حلّ به. أريد واحداً آخر، المشط نفسه. فالأمشاط التي تباع في أيامنا هذه، تلك الأمشاط البلاستيكية الطويلة لا تدوم معي طويلاً. فهي لا تتحمّل الاستخدام المتكرر، إن فهمتما قصدي. يكفي أن أستعملها مرتين أو ثلاث حتى تنكسر وأودّعها. بكم هو؟

فأجاب باب عمار: ـ بمئة.

أعطى هذا الرقم، مئة. ولم يكن فوديل ليندهش لسماعه يؤلّف أي رقم آخر.

فاستقبل جوابَه تنغيمٌ بشكل أصوات عُقاب منسوريّ كالتالي:

ـ مئة! أوه، أوه، يا إلّهي، إلى هذا الحدّ يا عمّي!

ـ إنّه مصنوع من القرن. سيدوم ليستعمله أولادك وأحفادك أيضاً.

ـ لا تحدثني عن الأحفاد! أمّا بالنسبة إلى الأولاد، فأنا لست على عجلة من أمري. سأدفع خمسيناً فحسب. هذا كلّ ما أملكه من مال. وأؤكّد لك بأنّه كان بإمكاني أن أسرقه منك، وما كنت لتلاحظ شيئاً.

واسترسلت حينذاك في ضحك منغّم مرّة أخرى.

فاقترح عليها باب عمار قائلاً: ـ في هذه الحالة، خذيه كهدية.

ـ أهذا صحيح؟

وافقها البائع العجوز الرأي بالصوت نفسه:

ـ أجل، بالطبع. بما أنك أصرَّيت على دفع ثمنه رغم كل شيء.

ـ شكراً يا جدي! أستودعك!

ووضعت رؤوس أصابعها على شفتيها ووجهت قبلة إلى باب عمار، ثمّ اختفت ضاحكة تماماً كما ظهرت طائراً ولد من لدن أنوار النهار التي ما لبثت أن التهمته بعد ذلك. وقبل أن يتمكن أحد من إدراك حركتها تلك، اختفت، بل تبخرّت في لهيب الشارع بغض النظر عن رنّة صوتها العالقة في الهواء.

فقال فوديل في نفسه: فتيات اليوم. إنهنّ كذلك، شئنا أم أبينا.

إلّا أنّ العجوز قال من جهته:

ـ إن تمّ اغتيالها على بُعد بضع خطوات من هنا، فلن يفيدها مشطها في شيء على الاطلاق.

أما فوديل، فكاد نَفَسُهُ ينقطع: يا إلّهي. أبعد عنها السكين الحجّام.

وتبع ذلك صمت توسّل وتضرّع قطع حديث الرجلين.

ثمّ قال باب عمار في النهاية:

ـ لأنّها فتاة.

ـ والرجال، ماذا عنهم؟

ـ لأنّهم رجال.

ـ والأطفال؟

ـ لأنّهم ما هم عليه: أطفال وحسب.

والآن ننتظر أن يحصل ذلك، ذلك أو أيّ أعجوبة، أو أيّ حدث آخر. ننتظر، وإن لم يكن من داع للانتظار. وفي اللحظة الأخيرة، وبعد طول انتظار سنقول لأنفسنا بالتأكيد: لن تحدث الأعجوبة اليوم، إنّما ربّما غداً... ونؤجّل الانتظار إلى الغد.

حدث كلّ ذلك البارحة. أمّا اليوم فيوم آخر بالتأكيد ـ لعلّه يحمل الخير؟ دقّت الساعة الرابعة بعد الظهر في ساعات المدينة، فوصل فوديل الدقيق في مواعيده. ودخل المتجر قائلاً: السلام عليكم. ثمّ جلس في كرسيه، في مكانه المعتاد الثابت والمحدّد له.

بقي صامتاً لبعض الوقت، ثم قال:

ـ هل من أخبار يا باب عمار؟ لم تتفوّه بأيّ كلمة بعد.

لم يُحرّك العجوز الطيب شفتيه. فأيّ جواب قد يصلح لهذا

النوع من الأسئلة؟ وعوضاً من ذلك، استمرّ في التحديق في فتحة الباب وفي الدمى المتحركة التي تمرّ خلفه، دمى سريعاً ما تحلّ مكانها نسخ طبق الأصل تصيبها الانتفاضات الإرتعاشية نفسها؛ فتمطّ أجسادها تماماً كسابقتها كما لو كانت مثلها تصوّراً تخيلياً خادعاً... إلّا في حال كان باب عمار يصلّي؟ يبدو عليه ذلك.

ثمّ، ومن دون أن تتغيّر ملامحه، إنّما واعياً رغم ذلك بشكل كامل لما يدور حوله، تلفّظ بما يلي:

ـ إنّها هذه كلّها.

ـ هذه كلّها؟

ـ أجل! كلّ هذه المجازر التي تحصل كلّ يوم بشناعة أكبر من المجازر السابقة!

ـ أتربط الأمر بما حصل الليلة؟ إنك تفكّر في فتاة البارحة الصغيرة...

ـ كيف لي ألّا أفكر فيها؟

ـ بالطبع. كيف لنا ألّا نفكّر فيها؟

ورغم ذلك اندهش فوديل بعض الشيء. فلقد ناضل الرجل في سبيل استقلال وطنه: ولا بدّ من أنه شهد على ويلات كثيرة في أيامه. فأخذ الشاب يراقبه. ولكن صحيح بأننا اليوم نبيد بعضنا البعض.

وراقب صديقه العجوز الذي عاد إلى التزام الصمت مجدّداً. مِمَّ سأستاء؟ آه يا باب عمار، ماذا سيحلّ بك من دون صمتك؟ إحمه، فهو غال جداً. واحم نفسك. كما أنت أتقبلّك وأدين لك بالاحترام. وهل بإمكاني أن أقوم بأفضل من ذلك؟

ولكنّ الحكيم المتواضع التزم صمتاً أصبح بالنسبة إليه وسيلة لمواجهة العالم ومراقبته من الأعلى إلى الأسفل، ثمّ من الأسفل إلى الأعلى. وسيلة ونهج لا يمتّان إلى الغموض بصلة، إذ قد يكون باب عمار بالأحرى شمساً حيّة. وإذا قام في الماضي بما أملاه عليه التاريخ: فحمل سلاحاً، إلّا أنّه الآن آخر رجل يمكن أن يفكّر في القيام بذلك من جديد، مع أنّ كلّ ما يدور حوله يدعوه إلى ذلك. يبدو أنّه فهم أنّ كثرة استعمال السلاح تؤدّي إلى استنفاد وفرة البشرية تماماً. كما يؤدّي كرّ سبحة الجرائم اليومية إلى استنفاد اللسان وطاقة الأذنين على الاصغاء إليه، ويطال الغضبَ كذلك في نهاية المطاف. والدموع لا تتجدّد خلافاً للتيارات البحرية السوداء التي لا تنضب ولا تشبع، فتلتقط طيور النورس وأشرعة القلب العالية.

وها هو الكلام يعود إلى باب عمار متساوياً، فتنفصل الكلمات عن بعضها البعض بضربة موفقة:

ـ ماذا يفعل الله إن أراد تضليل النملة؟

فكّر فوديل في الجواب، وقال في نفسه: يمنحها أجنحة. ولكنّ العجوز لم ينتظر الإجابة، إنّما قال:

ـ يمنحها أجنحة.

ـ وإن أراد الله تضليل الإنسان؟

ـ يمنحه أسلحة.

فوافق فوديل على الإجابة بحركة من رأسه. ولكنّ باب عمار احتدّ فجأة وانفجر قائلاً:

ـ ولكن. . . إلى أين يفكرون في الوصول؟ هؤلاء!

وكان مستعداً للمتابعة بالنمط نفسه حين ارتسمت ابتسامة في عينيه. فبادله فوديل بالمثل متواطئاً معه.

عندئذ، قال باب عمار:

ـ ألّا تجد أولئك القتلة صغار السنّ بعض الشيء؟

ـ هل هم كذلك؟

ـ تجري الأمور حولهم كما لو تمّ تخطيهم.

ـ كيف تمّ تخطيهم؟ بِمَ تمَّ ذلك؟ ومن بالتحديد أقدم على ذلك؟ ربّما تمّ تخطيهم، ولكن من قام بذلك؟

ـ البلد والأحداث. نحن! تخطيناهم بأشواط في كلّ ما فعلناه.

ـ كلّ ما فعلناه! ماذا.. وإلى أيّ حدّ وصلنا؟

ـ أبعد من أيّ حدّ بلغوه في يوم من الأيام، هؤلاء، رغم استعدادهم لخوض السباق، هؤلاء الكلاب والمجانين. وها هم الآن يرغبون في إرجاع العالم إلى الوراء داخل رؤوسهم الصغيرة، إلى أبعد مسافة ممكنة إلى الوراء، إلى زمن التبشير.

فرفع فوديل كتفيه استهزاءً قائلاً:

ـ أخشى أن يكون الأوان قد فات.

ـ ليس بالنسبة إليهم!

فما كان من فوديل إلّا أن رفع كتفيه استهزاءً مرة أخرى. ولكنّ باب عمار عاد ليؤكّد من جديد:

ـ ليس بالنسبة إليهم.

إلّا أنّ الرؤى الملموحة من خلال فتحة الباب هي وحدها التي تهمّ فوديل وتأسره فجأة؛ إنّها وجوه تتمايل راقصة، فتشقّ الطريق،

ولكنّ هدفها يكمن في الانبثاق مجدّداً بشكل متطابق، سائرةً على خطاها نفسها، لتعيش عذابها مرّة أخرى.

وأسرف باب عمار في الحديث على نحو غير اعتيادي، رغبةً منه في أن يتمّ البوح ببعض الوقائع.

ـ زماننا يجهلهم. وهم بدورهم يجهلون زمننا وكلّ الأزمنة. إنّ المجتمع ينساهم؛ لذا تراهم يحتقرون المجتمع.

وبدأ يرفع نبرة صوته شيئاً فشيئاً، من دون أن يلاحظ ذلك على ما يبدو:

ـ إنّ فكرة الجوهر تلاحقهم، فيظنون أنهم يتبعونها وحدها. ولا يرغبون إلّا في تلبية نداء صوت الأصل وحده. فهو ينذرهم بنبرة عالية للغاية إلى حدّ أنّهم يفقدون القدرة على الحكم، ويغدون صمّاً لا يسمعون الباقي، لا يسمعون كلّ ما تبقّى.

فوجّه فوديل نظره مرّة أخرى إلى الشيخ الجليل وباغته بسؤال مفاجىء:

ـ بِمَ يفيدهم هذا الصوت؟

ـ بِمَ! لا أدري. لا أحد يدري.

إلّا أنّه من الواضح أنّ باب عمار يبحث عن إجابة شافية أكثر. ففكر لبرهة، وجاء بالجواب التالي:

ـ إنّه نداء لا يمكن الامتثال له إلّا بتدمير كلّ ما هو موجود. فالعودة إلى الأصل تفرض محو الزمن والتاريخ...

ـ وماذا أيضاً فضلاً عن ذلك؟

الجوهر؟ الأصل؟ يا للفظاعة! وتابع فوديل:

ـ لن ينجحوا أبداً؟ لن يفلحوا في ذلك.

ـ إنّما يكونون قد كدّسوا الأموات والأنقاض بانتظار. . .

ـ في ما يتعلّق بالتسبب بالدمار، لقد نجحوا في ذلك!

ولاحت ابتسامة غريبة مرة أخرى في عينيّ العجوز، فأفلت كلاماً فظاً:

ـ يتصورون أنهم بسلوكهم ذاك الدرب يتجهون للقاء الوجه المقدس، ولكنّ الشيطان هو من يدير لهم قفاه. . .

لم يحمرّ فوديل من الخجل، إنّما أدار وجهه، وحاول أن يكتم ضحكته. فالرجل الطيب لن يكفَّ يوماً عن ادهاشه. حتّى أنّه جاء بالجملة الختامية المدهشة التالية:

ـ. . . يكون الأصل حينذاك قد فاز من جديد، فيسود بالتالي حكم الأصل.

ـ نعرف أنّ السماء تقع فوقنا، ولكننا ما زلنا نجهل بأنها قد تقع على رؤوسنا.

أي معنى يمكن فهمه من تحليل نشأ تلقائياً على شفتيه؟ راح الشاب يتساءل: ما دخل السماء في الموضوع؟ ثمّ ترك أفكاره ترحل طارداً إياها. يكفي تأملاً. ونقل اهتمامه إلى الشارع والحشود المزدحمة فيه لإفراغه بعد ذلك، وكأنّها مضخّة. مضخة رافعة ودافعة لا تعمل إلّا بمساعدة عدد كبير من الانقباضات والشهقات. فما الذي يُظهره الجرح المتوهّج، هذا الباب الواقع عند نهاية النهايات: الفوضى بذاتها.

راح فوديل يفكّر وعيناه مفعمتان بتلك الفوضى الصاخبة: إني اليوم أحتمي في متجر. مَن كان ليظنّ ذلك! ولكن حتى منذ زمن الأب والأمّ والمحيط العائلي الكبير، فضلاً عن الخدم الذين

يحيطون بهم ويخدمونهم، ما كان أحد يستطيع أن يتباهى يوماً بمعرفة مخبأ الصبي فوديل، في أيّ ملجأ داخل المنزل، ذاك المسكن الذي كان ولا زال من دون أيّ مبالغة يقوم مقام قلعة أو قصر محصن أكثر مما هو محل إقامة قائم في مدينة أو حي. ومن جهة أخرى، وقسماً بيمين شاب وُلد متمرداً، فما من زائر واحد من زواره المتجولين والمتسكعين الذين لا يُعدون ولا يُحصون بإمكانه تحديد عدد الأروقة فيه والخلوات والمواقع المحصنة والساحات والحجرات والزوايا والمعابر والنصفيات والأرداب. ما عداي. لا شخص، ولا أحد من بين الأكثر تطفّلاً بينهم، ما عداي أنا. فحتى أبتعد عن هؤلاء المزعجين، اكتفيت باختيار غرفة ضائعة من بين مجموعة الغرف الكثيرة الخالية والأكثر عدداً بكثير اليوم بعدما أصبحت لا تعجّ بمعظمها سوى بأشباح تجول في داخلها... ولم ينطوِ أثاثي حينذاك إلّا على صندوق وطاولة وكرسي وفراش موضوع على البلاط. ولم يتبدّل الحال اليوم بعدما لم يتبقَّ أحد سواي للتصرف في المنزل، فضلاً عن الصندوق والطاولة والكرسي والفراش. في الصندوق أضع أغراضي: ملابس وأغراضاً تحمل بالنسبة إليّ قيمة معينة، مثل قفطان كان لأمي أو ذاك الفنجان القديم المصنوع من الخزف الرفيع. إلّا أنّ القفطان هو الأغلى على قلبي، فهو مصنوع من المخمل المزيّن بشريط ذهبي مضفور، ويُحافظ على رقيّه، ويمكنني القول حتّى على روعته، وإن كان يستحيل محوُ الطيّات المطبوعة الآن بشكل نهائي على القماش. أما الذهب الغالي فيه، فلم يبهت ولم يذبل، إنما بقي يلمع بتألّقه الأصلي على لون

المخمل البنفسجي. قرّرت منذ بعض الوقت ارتداء لباس الأبهة هذا ولاحظت أنه يليق بي تماماً. إذ يبدو رائعاً علي بأزراره اللؤلؤية التي تزيّن أكمامه ابتداءً من المعصم حتى الكوع، وبتطريزاته وشك الخرز فيه، وبضفائره الزاهية. ولم أستطع اتخاذ قرار نزعه عني قبل مرور بعض الوقت. ولم ألمسه مرة أخرى منذ ذلك الحين، إنما تركته قابعاً بطياته في قعر الصندوق. ألم يكن هذا العالم يفيض كذلك بالجمال والحنان والحبور؟

أطلت ثلاث هيئات سوداء مضحكة لرجال يافعين هربوا من ضوضاء الشارع، ووقفوا عند المدخل. إنهم ثلاثة؛ ظلوا واقفين عند الباب.

ثم تقدّم أحدهم، وتوجّه من دون تردّد نحو باب عمار. تقدّم والنور المعاكس يغلّف وجهه بقناع، ولا يمكن التأكّد من أي مصدر غير محدّد. ينطلق الكلام ويصدر الصوت الفظّ الذي يقول، بل يهدج قائلاً:

ـ أيها الثائر العجوز ابن اللئيمة، لِمَ لم تتخْ عظامك في الجبال؟ لقد أخطأتَ في ذلك. حملتم السلاح وذهبتم تحاربون مدّعين أنكم تسعون إلى تحقيق العدالة للجميع. أين هي تلك العدالة؟ ماذا فعلتَ لتحقيقها، قل؟ إننا بانتظارها. ولكنك كنتَ سَتُعاقَب عاجلاً أم آجلاً، أيها التيس العجوز. إنتهى أمركم الآن. سترحلون الواحد تلو الآخر. وستلتقون جميعاً في الجحيم. إنّ روحك لا تزال بالكاد معلّقةً بجسدك، معلقة عند طرف أنفك، وما زلت رغم ذلك متمسّكاً بالحياة. لا أحد يستطيع الصمود إلى هذا الحدّ ما عدا الكلاب اللقيطة. تفِهْ!

وإذا به يُخرج ـ ولكن لا ندري من أين ـ ساطوراً مسنّناً، على طريقة مدية نافاجا الطويلة، أطلقت شفرته شرارة. وكانت رائحة ورق الحَلْفاء الحامضة والنتنة تفوح من الحصائر القابعة في رطوبة المتجر الخلفي. فتنشّق فوديل هذه الروائح. وشعر أنّ الداخل لم يَفُحْ يوماً برائحة كريهة إلى هذا الحدّ. فتنسّم الهواء وشهد طعنة. ثمّ قطع نَفَسَهُ وشهد طعنة. ثمّ تذكّر ما حصل معه وشهد طعنة. وربّما شهد طعنة أخرى، لكنه لم يعد يتذكّر ما حصل. ثمّ تذكّر. في المتجر عصا طويلة مجهّزة بعقافة عند أحد طرفيها يستخدمها غالباً بنفسه ليسحب ستارة الحديد ويساعد باب عمار في إقفال متجره. أدرك أنها موجودة بالقرب منه مستندةً إلى الحائط على يساره، ثمّ ما عاد يدرك ذلك. ففي الشارع الملتهب تحت الشمس القاسية، بات التدافع يشبه مشهداً هزلياً. ومن دون أن يغيب هذا المشهد عن نظره، بعينيه المحملقتين، هو من تذكّر تلك العصا، لم يعد يذكر كيف التقطها ووجّهها نحو المعتدي، وكيف أنّ طولها كان مناسباً لغرز عقافتها في صدر القاتل وإيقاعه بعنف ودفعه إلى الصراخ كالحيوان. وقبل أن يصدم القاتل رأسه بالأرض، حظي بالوقت الكافي لاستبدال ساطوره بقنبلة. فرأى فوديل تلك القنبلة تطير باتجاهه، ورآها تلامس صدغه. وكاد الساطور ينغرز في عينه اليمنى لو لم يُشح برأسه، ليس إلى حدّ كبير، إنّما المسافة اللازمة. إلّا أنّ المتواطئَيْنِ مع القاتل ـ المنتظرَين عند الباب ـ كانا قد دخلا المتجر ورفعا القاتل وحملاه كلّ تحت إبط، ورحلا به. إنتاب فوديل شعور بأنّ سائلاً ساخناً

لزجاً بدأ ينحدر على عنقه، ثم على ظهر سترته، ثمّ على قميصه، فأحسّ بالقلق. ولمس السائل بعصبية. ثم أعلن مقهقهاً:

ـ عجباً، انشطرت أذني!

حدث هذا الاعتداء البارحة.

أما اليوم فيوم آخر بالتأكيد. وعند حلول الساعة العاشرة بالضبط وصل فوديل ودخل المتجر. بقي باب عمار جالساً مستقيماً على كرسيه المبطّن بعدّة طبقات من اللّبد يراقب الباب الشبيه إلى حدّ كبير بممر مفتوح على معذّبين محاطين بالنيران الأبدية. لا يقوم بذلك بهدف السهر على بضاعته المعروضة بجزء كبير منها على الرصيف في الخارج. لم يتوقع الشاب مفاجأته في وضعية مختلفة عن وضعية من لا يزال ينتظر حتّى عندما لا يعود لديه ما ينتظره.

ـ السلام عليكم.

ردّ باب عمار التحية بحركة من رأسه. وبقي في مكانه وكأنه لا يتحرك، ولا يرغب إلّا في مشاهدة صخب الشارع. حتى أنه لم يستدر حين طرح السؤال:

ـ وهذه الأذن؟

ـ هذه الأذن يا إلّهي!

جلس الشاب في كرسيه، في الكرسي المحدّد له حصرياً لمتعته، ومزح قائلاً:

ـ إنه مجرّد خدش بسيط. بعد خروجي من المتجر، توجّهت إلى صيدلية. ألقِ نظرة على التضميد الذي أنعم به عليّ الصيدلي.

لم أمت جراء ما حصل لي. كنت بحاجة إلى نزف كمية من الدمّ.

فقال باب عمار:

ـ الموت.

وتوقف قليلاً عن الكلام ليحيط بالرعاية أفكاره وتنبت في آن معاً. ثم تابع:

ـ يعرف ساعته بالتحديد. فلا يصل لا متأخراً ولا مبكراً.

صَمَتَ بعدما عاد إلى تأمّله. فمدينة تلمسان عادت إلى الكلام، تتابع مناجاتها وتروي الحكايات. تحكي بغض النظر عمّا إذا كان الرجلان يسمعانها أم لا.

أُذُنُ فوديل المشطوبة والملتهبة توخزه في بعض الأحيان، إلّا أنه تمكّن من ملاحظة أنّ المتجر لم يعد يفوح برائحة ورق الحَلْفاء الحامضة كالبارحة.

لم يبق إلّا هما الاثنان، أو ربما الاثنتان؟ ولا تزال الطبيعة متشحة بألوان الليل، ولا يزال الجبل صامداً تغطيه سماء رمادية تهمّ بالتخلص شيئاً فشيئاً من لونها الداكن بغموض تام. أما الجبل، فيواجههما بنتوءاته الصخرية بكاملها عارضاً باقات من الأشواك: أطياف مغبّرة بالثلج أصبحت الآن أسيرة بياضها.

لم يكونا (أو تكونا؟) إلّا اثنين (أو اثنتين؟) وكأنهما شبحان يتسلّقان الجبل منذ بعض الوقت. وحدهما يتسلقانه منفصلين عن الآخرين، أو وحدهما تتسلقانه منفصلتين عن الآخرين؟ إنهما روحان تائهتان في خلوات الليل تلك العمياء أكثر مما هما خيالان تابعان لعالم الأحياء يتسلقان الجبل (أو تتسلقانه؟) مقتفيَين (أو مقتفيتين) أثر بعضهما البعض، ومرتطمين (أو مرتطمتَين) ببعضهما البعض. أو بأنهما يلجآن (أو تلجآن) في بعض الأحيان إلى المساعدة باليدين، فيُحتمل وجودُ امرأة بينهما؛ ولا يمكن بالتالي

سوى افتراض وجود رجل يتقدمها ليمدّ لها يد المساعدة. وهل كانا يصعدان؟ نعم، إنما بصعوبة بالغة. فعندما لا تعلق المخالب الفولاذية التي يتسلّح بها أخمص أقدامهما داخل الصخر، يضطران أن يركلا سويّاً رؤوس الحجارة الضخمة المسننة.

ولا بدّ بأنّ ضغاب القاذفات وتهكم المدافع وكلّ ما تساقط من قذائف قد سحقت جميعها أدغال بوناب وحفرتها واجتاحتها على مدى هكتارات. ولكنّ كلّ ذلك قد انتهى الآن وخلّفاه وراءهما. وانتهى سباق المروحيات في الأعلى ودبابات الاقتحام في الأسفل. وبما أنّهما الآن اثنان، أي رجل وامرأة، ولم يبق إلّا هما، فقد إنتهت حتى الضوضاء التي لاحقتهما طويلاً بحيث ما عادا يسمعانها إلّا في البعيد؛ لطمات مفاجئة تهتز لها الأرض. ويُعدّ هذا التطور بديهياً كونهما قد انسحبا باكراً. أمّا الآن، فما عادا يسمعان شيئاً بعدما أصبحا الناجيين الوحيدين. فلم ينجُ إلّا هما الاثنان فحسب. يتسلقان الجبل وكأنه جدار، إذ يبذلان جهداً كبيراً حتى يلمساه بأنفيهما. ومع أنهما يجدفان ليتقدما، إنما لا أحد منهما يبدي أي احتجاج.

وإذا قاما برفع رأسيهما، لتمكنا من رؤية الجبل الذي يكاد يُلامس السماء ببياضه الناصع. لن يتمكنا من رؤية السماء، فهي لم تبلغ صفاء فترة النهار بعد، إنما انعكاس لون الثلج الأبيض في الجوّ. ولم يكن الجو يعبق ألّا برائحة البرد، وأيما برد، يصيب الروائح كلها والأصوات وحتى مصادرها كافة بالجمود. ويبدو كما لو أنّ هذا الهواء قد قطع نَفَسَه وأصبح جامداً تماماً، يبدو كما لو أنّه يرغب في أن ينسى هذان الشخصان وجوده. يتسلق

الرجل والمرأة الجبل بقوة هائلة؛ فتستند المرأة إلى معصمها أحياناً، والرجل كذلك في بعض الأحيان. يبدو أنهما رجل وامرأة، ويبدو أنهما لم يعودا يتنفسان أكثر مما يلزم، كلّ منهما واضعاً قدمه في المكان المناسب من دون التسبب بأي ضجة إضافية. من دون التسبب بأي ضجة إضافية حتى في مكان بهذا البعد، في الجبل. وسط الثلج الذي يخفي معالم خطواتهما. هما بالتأكيد رجل وامرأة، وإن كانا شخصين فانيين عاديين، وليسا شبحين تسري فيهما الروح، مع أنه كان بإمكان شبحين مماثلين أن يتمتعا بالقامة نفسها.

ولكنّ الأمر ليس مماثلاً بالنسبة إلى هذه الصخور الممسوخة أو تلك الأعشاب الحمقاء، فطبيعتها تحول دون تحوّلها إلى أشباح. كما أنها لا تُجيد سوى التصرف بخبث، وسدّ الطريق أمام المتسلقَين بوشاحها الأبيض الجامد.

غير أنّ الثلج المنثور حولهما وعليهما لم يهدر وقته على الإطلاق. فإذا به يمحو معالم الجبل بكاملها، ويدفن وجوه الحجارة وأشجار السنديان القزمة والمصطكا والقطلب والقصب تحت طبقة من السكر الأبيض، ولكنه لم يمحهما، فالكائنان الحيان الوحيدان في هذه الطبيعة لم ينتهِ عذابهما وهما يتسلقان الجبل. فهما لم ينتهيا من التسلق والتنفس والتصبب عرقاً، ولا يتبادلان أي كلمة ولا حتى كلمة بذيئة واحدة أو منافية للأخلاق، بل كانت المرأة تحرص بالأحرى على الحفاظ على مسافة قصيرة وقريبة بينها وبين من يمشي في الطليعة وينجح في ذلك. إذ كان

بإمكانه أن يتقدم بسهولة: أما هي، فتتعقبه عن قرب وتلازمه كظله.

ثم جاء النهار ليلقي في الشرق بحدِّه القاسي الشبيه بحدّ الهوس؛ ويكتفي بذلك. كائناً من كان ذاك الرجل. إلتفت نحو رفيقته كما لو كان يريد أن يصوّب نحوها، ولكن ماذا: أهو كلاشنكوف يرفعه في وجهها؟ غير أن الحركة التي باشر بها اقتصرت على تمريره لها باليد، مجرّد عملية تسليم خالية من اللطافة. ولم يكن ينقص إلّا أن تتّسم خدمة مماثلة باللطافة. وباستعجال غريب، نبح بنبرة لا تحتمل أي ردّ:

ـ إحتفظي به لدقيقتين، ولا تبارحي مكانك. هل تسمعينني؟ لا تـ ـ با ـ ر ـ حي ـ م ـ كا ـ نك.

يمكن رؤية وجـهه بوضوح الآن في أنوار الفجر المائلة: تحميه حتى العينين لحية رجل يعيش في الغابات. قل إنه قناع طبيعي يستحيل انتزاعه عنه. ويحلّ مكان نظره الغائب شعاع مغناطيسي أسود يُجيل طرفه حول المكان بكامله.

تذمّر بصوت خافت أكثر بعد، صادر من بين أسنانه:

ـ أحتاج إلى تنشق الهواء النقي.

فترجمت المرأة ما قاله في رأسها كالتالي: «إنّه يتحدّث عن حاجة ملحة تتآكل أحشاءه». هي فتاة صغيرة السن لا ترفع عينيها عن الأرض، بل تحدّق فيها بشكل دائم. إلّا أنّ ما رأته على بساط الثلج لم يكن ينبغي لها أن تراه، إذ رأت نفسها تُقدم على فعلٍ ما كان يجدر بها أن تقوم به... هي ـ أنا تنزع المجوهرات عن النساء النازفات، المتوفيات؛ إنها أنا، فأنا أسلبهن تلك

المجوهرات. لا نتدخل إلّا بعد أن يتمّ صرعهنّ والتخلص منهن، أنا والفتيات الأخريات من فريق الهجوم. علينا القيام بذلك، فنحن مرغمات على الشروع في ذلك ما إن ينتهي الرجال من عملهم. إنها مجوهرات قرويات نادراً ما تكون من الذهب، ولكنني أدعي بأنها من الذهب على سبيل المزاح. وتكون النساء غارقات في بحرٍ من الدماء فيما لا تزال جروحهن الفاغرة على رقابهن تخفق وتنبض في معظم الأحيان.

أما هو، فكان يبحث عن مكان يقضي فيه حاجته على الحياد. لذا صاح بها قائلاً:

ـ لا تبارحي مكانك، وافتحي عينيك جيداً. هل فهمتِ؟ إفتحي عينيك جيداً! وإلّا....

بقيت صامدة في مكانها مع أنها كانت تفكر قائلة في نفسها: «سألزم مكاني يا بوبيناني العنيد». مع أنها كانت تفكر تفكيراً تهكمياً: «إنه قاتل ومغتصب، ولكنه لن يقول إنه يذهب ليتغوط، بل يقول إنه ذاهب ليتنشق الهواء النقي».

وأطلقت رشقاً نارياً قصيراً بين رجليه.

إنه سلاح أك 47. أصبحت تجيد استعماله لكثرة ما رأت غيرها يستخدمونه أمامها.

ـ وهل أهتم! في مكانك تغوّط. تظن أني لم أرَ أفظع من ذلك؟

بعدما أطلق الزعيم الأكبر صرخة عالية دوّت في البلد وتبعتها أصداء لامتناهية، وقع من طوله وعضّ طبقة الثلج الرقيقة على ذاك المنحدر، ذاك المكان الذي يسيطر منه على الفتاة. وعندئذ،

أقفل فمه الكبير، فمن مصلحته القيام بذلك؛ لا سيما وأنّ شدّة الألم أجبرته على الإمساك بكاحليه، وهو يتلوى بقفاه.

أما الفتاة، فراحت تقول في نفسها: «إنها فرصتي الوحيدة. فرصتي الأخيرة. ألّا يجوز ذلك؟ يا إلّهي. إنها الفرصة الملائمة وإلّا فلن أنجح أبداً». وأخذت تشجعه:

ـ هيا. ولكن هيا، إفعلها. تغوط في سروالك. لا بأس بذلك، نحن في حالة حرب.

وتراجعت قليلاً حتى تبتعد عن متناوله.

لم يقم الرجل المسنّ إلّا بفتح عينيه الجامدتين انذهالاً. عينيه المستحيل سبر أغوارهما إلى حدّ أنّه من غير الممكن التصور بأنّ فكرة قد تمرّ عبرهما أو تزعجهما، «وحتى عندما يذبح الناس؛ وحتى بعد ذلك. بعدما يكون قد كدّس عدداً من الجثث. هاتان العينان المهدبتان برموش كثيفة شبيهة برموش امرأة».

لمّا تفهمه حتى الآن. حصل عليها هبةً بعيد اختطافها مع فتيات أخريات من بلدتها، ما أتاح لها وحدها النجاة من التهلكة. لم تتمكن من فهمه. لم تكن تفهم لمَ اختارها هي بالذات. ولكن ما هي أهمية معرفة ذلك الآن؟

ـ لست إلّا ممسحة بالنسبة إليك، أليس صحيحاً؟ ولكن، هذه المرة جاء دوري. أريد أن أراك تتغوط في حذائك وتتناول ما فيه.

كما لو كان نظر السارق قد تمّ امتصاصه من العمق، تراه لا يتوارى ولا يتداعى تحت تأثير نظرات السجينة التي تجرأت على رشقه بها.

فأنبها قائلاً:

ـ يا ابنة الشقية. إنتظري قليلاً، وسأريك...

ـ لن تريني ما لم أره من قبل.

أطلقت رشقاً نارياً آخر بالعرض بين ساقيه. فاتشح بساط الثلج بندى من الدم. وبما أنه لم يتمكن من الصمود، فتح فاه من جديد وراح يصرخ.

فسألته:

ـ ما الذي كنت تنتظره؟

أخذ يرغي وكأنه يختنق:

ـ واللّه العظيم سأنال منكِ. كوني على ثقة، سأرميكِ للكلاب!

ـ لا تصرخ بصوت عالٍ. أنت تعلم أنّ الجيش ليس بعيداً. سيتمكن من تحديد موقعنا.

أحنت الفتاة كتفيها وأطالت عنقها لتهمس بتلك الكلمات في أذنه من مكانها. كانت تلف رأسها بشال باهت اللون تعقده تحت ذقنها فيعطي وجهها شكل القلب، ويجعل وجنتيها أكثر دائرية مما هما عليه في الطبيعة. وجنتان ألهبهما مجهود تسلق الجبل، وقلب مسنون الحدّ يستقي لونه الأحمر من اللهيب نفسه، وثغر صغير صبياني ملآن وأحمر اللون أيضاً تراه يتحرّك: كلّ ذلك يشير إلى أنّها تبلغ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر. ولكنّ جسدها يوحي بأنّه جسد عتّال إذا أمكن القول، واعذروني على ذلك، مع أنه من الصعب التكهن بمدى حجمها تحت ما تبقى من المشمَّع المحزوم بحبل حول خاصرتها.

لم تعد تغض الطرف الآن، إنما بدأت تحدّق في ما يمتثل أمامها بعينين ضيقتين لوزيتين قاتلتين، شبيهتين بعيني امرأة آسيوية إلى حدّ بعيد. تراقب بهما الرجل الممدد على الأرض، إنما المستمرّ في الزمجرة بفم مغرق رغم تصريف أنفه الدائم. تراقبه من دون أن تشعر بأي إحساس تجاهه، ومن دون أن تراه حتى. ومع أنها لا تراه، إلّا أنها ترى من خلاله ما رأته من مشاهد في حياتها: بضائع معروضة، بل معرض أجساد فاحش. هي ـ أنا، تماماً كسائر الفتيات، تؤدي خدمة موجهة، تنتقل من جثة إلى أخرى، وتهتمّ بالجثث الجديدة، فتريحها من قلاداتها وأقراطها وخواتمها وأساورها ـ أي من كلّ ما يندرج في إطار المجوهرات. غير أنّ هي ـ أنا تعجز عن نزع طقم نقود ذهبية عن عنق إحدى المتوفيات، لأن السلك عالق داخل حلقها المفتوح. ولكن عليّ نزع هذه القلادة عنها. ينبغي أن أنتزعها حتى لا ينتزعوا منّي الحياة. وإلّا لكان هذا الشيطان المرتمي على الثلج قد جعلني أدفع الثمن غالياً. شيطان يراقبنا جميعاً عن كثب، رجالاً ونساءً. لا أتمنى أن يُقابل أي إنسان رجلاً مثله في حياته. ومع أني بذلت جهوداً مضنية، إلّا أني عجزت عن نزعها؛ فقلادة المرأة لا تمرّ من فوق رأسها، رغم أني كنت أشدّ من النواحي كافة بأصابعي الملطخة بالدماء. لم يعد بوسعي فعل شيء، لا مجال لنزعها. فأخبرت الأمير. هذا المعتوه الذي يعد نفسه أميراً، ذاك المتململ بمؤخّرته في الثلج. فحذار إن نسيتَ في يوم من الأيام إخباره بكل ما حصل معك وما لم يحصل، حتى ولو اقتصرت أخبارك على حاجتك للتبوّل. لذا أعلمته بما حصل

معي. فراح يحدِّق في إحدى المزابل الأخرى الماثلة أمامه، وهو يحرّك ذقنه كما يفعل دوماً ويقطب حاجبيه، ثم توجه نحوي وقطع ما تبقى من عنق البائسة بضربة ساطور واحدة. وبات بإمكاني حينذاك أن أستعيد تلك القلادة اللعينة. فالرأس لم يعد يشكل عائقاً بانفصاله عن الجسد. ولكن يا للزاجة تلك القطع الذهبية على ضفائر الحرير المضرجة بالدماء. أتراها كانت عائدة من حفل زفاف؟

خنخن الأمير في لحيته البشرية مطلقاً تهديدات قاتمة تارة، ومغمغماً شكاوى قاسية طوراً، حسبما اتفق.

ـ أيتها الكلبة! ـ.... سترين... لن تخسري شيئاً... أي شيء في الانتظار....

كان قد انقلب على ظهره عندما تلقى الرصاصات الأخيرة، ومع ذلك تمكن من الجلوس.

أما هي، فلم تجد أي صعوبة في إجابته حين استعادت أنفاسها:

ـ وأنتَ، ما أنت؟ هل أنت ضبع حقير؟ ستعرف على الأقل ذلك عن نفسك: أنت ضبع حقير لم يعرف يوماً سوى أن يُصاب بالتخمة من الجثث، ثمّ يأتي بعد ذلك للإنبطاح فوقي.

ـ يا ابنة الفاجرة! يا ابنة العار! يا ابنة الـ... رهـ! رهـ! هوم!....

غلبته نوبة من السعال، فأخذت الكلمات والبصقات تمتزج في حلقه. ولكنها عادت وذكّرته:

ـ ولكنك كنت تريد أن تتغوط، أليس كذلك؟ لا تحتفظ

بتحفك، لا تتمالك نفسك. هيا تغوط على نفسك، كما أنت جالس تماماً. ستشكل بنفسك كومة كاملة من القذارة حين يعثرون عليك. أكبر كومة قذارة يمكن أن يرزوها في لبنان.

وعندئذ، أجابها:

ـ سأريكِ كيف أتعامل شخصياً مع مومس. مع عدوة لله. سترين.

ـ الجيش موجود خلفنا مباشرة. إن كنت مصراً على إظهار قفاك له قبل الانتهاء من التغوط، فلا تستعجل الآن. بل تابع صراخك بشكل أقوى، أليس هذا ما تريده، أيها الزعيم الأكبر؟

ـ إسمعي يا عدوة الله. إعلمي... رهـ!... رهـ!... هوه!

غلبته نوبة سعال جديدة، فخنقت صوته. كيف له أن يكون زعيماً أكبر وهو ليس سوى مماحك مهزوز؟ غير أنّ تضرعه المولود بصعوبة بالغة جعله يصرخ:

الحمد للّه الذي فضلنا على كثيرين من عباده.

ـ فليسقط هذا الثغر المدنس بالدم البشري والمفعم باسم ربنا. لا تأتِ على ذكر هذا الإسم على لسانك. أنصت بالأحرى إلى ما تقوله سورة الإسراء:

«وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليّ من الذل وكبره تكبيراً».

ـ يا بنت الهوى! يا كاهنة بابل!

ـ تدخّلت اليوم اليد الإلّهية لتقضي عليك. وليس عليك إلّا أن تصبر حتى تحين الساعة ويرشح ثغرك بالدم البشري الذي شربته، وتمثل أمام الفريد حيث ستتعرف إلى قوة معصمه....

ـ كيف لكِ أن تكلمي سيدك بهذه الطريقة أيتها الخنزيرة؟ أنا

الأمير عادل؟ أنا من أبقاكِ على قيد الحياة؟ أنا من أعلنكِ محمية الله؟ أنا من نجّاكِ من نار جهنم المخصصة لأمثالك؟ ألعنكِ! أنا الأمير عادل، أتخلى عنكِ وألعنكِ!

وإذا بالمعالم كافة، رغم اختلافها عن بعضها البعض، تبدأ بالذوبان في البياض نفسه. وبالامتزاج تحت الخشف نفسه المنثور عليها بهدوء وثبات تام.

ـ يمكنك أن تلعنني قدر ما تشاء. ولكن إحزر من سيتم رميه في نار جهنم في الحال؟ سيادتك! لقد بدأ الاحتفال به على الأرض. سيتفضل أمير المؤمنين ويتكبد بدوره ملذات أغدق بها على الآخرين.

ثمّ بصقت المرأة عليه وهي تكبت دموعها:

ـ ملذات حية إلى حدّ أنهم ماتوا من جرائها!

ـ لم يكونوا سوى كافرين، وقد طهروا الآن أرواحهم بالتضحية.

ـ أتعني أنّ الله يحب رؤية هرق الدماء؟

ـ بالطبع، دم أعدائه. الله يريد ذلك. الله يفرض ذلك.

ـ تغوط في سروالك على راحتك. وليكن التغوط صلاتك الأخيرة قبل أن يلقي الجيش القبض عليك، الجيش الذي تسمعه يقصف جحور الثعالب التابعة لكم. ستكتسب بذلك مكانة مميزة في النيران الأبدية حيث أظن أن الجميع سيتساءل: من هذا المسكين المتغوط في كل اتجاه الذي يظن نفسه، بل يعتبر نفسه سيداً بالفعل، ولكن ليس أي سيد، إنما سيد الحرب تحديداً!

ـ وأنتِ سترين ما الذي ستكتسبينه. . . .

على الثلج، كانت بقعة ندى الدم قد اتسعت حول الرجل. ولكنه لم يكن يعي ما يحصل. ويبدو أنه لم يكن يركز فكره إلّا على حركة تلك اليد الشبيهة بحيوان زاحف. يزلقها نحو الغمد المعلق بحزامه. أمّا الآن فتراها تغلق على خنجر في أغلب الظن، فأحكم قبضته عليه. ولم يتوقف خلال كل ذلك الوقت عن إسماع الفتاة شتماً.

إلّا أنّها رشت تلك اليد بالرصاص، فضلاً عن أسفل البطن.

فقام الرجل بما يفعله المرء للتخلص من غرض كريه: حرّك أصابعه المسحوقة بغباء تام. فاندثرت مئة نجمة حمراء جديدة على بساط الثلج الرائع. ولكن لا يبدو أنه كان يقدّر ما يحصل له، فهو ما زال يحاول الحراك. إلّا أنه سرعان ما أدرك أنه لم يعد سوى مقعد، فتخلى عن الفكرة.

وقرر أن يمنح نفسه قسطاً من الراحة وكأنه دب مخبول وصموت يحرك رأسه برفق. سنرى إن كانت فترة استراحته تلك ستطول أم لا. ولكن سرعان ما استدرك خطأه وانطلق من جديد وهو يستمر في تحريك رأسه، منتشياً من الكلمات، ومسترسلاً في رشق اللعنات والحماقات. وأخذ يلهث بصوت حاسم:

ـ أنتِ، بل أنتم جميعاً يا خدام الشيطان السيئين، إنّ مجرد رؤيتكم تسيء إلى الخالق. وستعرفون قريباً مصيركم جميعاً! فمن لا يأبه بالله، لا بدّ من أن تحلّ عليه اللعنة. فكل إساءة تُقابل بإساءة، هكذا يكون حكم الله يوم الحساب. هذه نهايتكم. وهذا عقابكم!

ضاق نَفَسُهُ، فتابع إصدار أصوات متنافرة، ولكنه تسلح بالقوة ليقول:

ـ أما أنتِ، فأنا من سينال منك مهما فعلتِ.

ـ عبثاً تشهد للشيطان في دعوى الله. أما الآن يا تيس الحبشة، فاعلم أن نشرف يعضى نسيد أولاً. ستنتقل في الطليعة إلى رحمته تعالى.

تتم التضحية بالفتيات أنفسهن عندما يظهرن، لنقوم نحن بعد ذلك بنزع الأقراط الصغيرة عن آذانهن بكل بساطة. ولكن الأخيرة... في غمرات الموت يا عزرائيل! أسلب روح هذا الشيطان في غمرات الموت! ما إن رأيت الصغيرة الحبيبة مقطعة بطعنات سكين، حتى اقتربت منها: كانت لا تزال تمص إبهامها. كانت ذراعها مبتورة على حدود الكتف، والإبهام معلقاً عند طرفها، ولكنها بقيت، حتى وهي ميتة، تضغط بأسنانها على إصبعها. كانت ترقد بسلام، ممدّدة على الأرض بين الآخرين، الراشدين، وعيناها الفاتحتان تلمعان زرقةً.

بدأت لمحة غامضة من براءة الطفولة تحلّ شيئاً فشيئاً مكان تعابير الشابة المرة والقاسية. حتى أنّ ابتسامة مريبة لاحت في عينيها، وظلت تخيم على قسمات وجهها، فيما كانت تحدق بنظرها المستقر تحت الخط الرابط بين صدغَي الحاجبين في مَن تظن أنها تغلبت عليه، لا بل في مَن تظن أنها جرّدته من قدرته على الأذية. غير أنّ هاتين العينين لم تسعيا بإطالة النظر إليه سوى إلى تفحص ما يتخطاه، أي كل ما هو خارج عن شخصه. فالثلج بدأ يتساقط في الأعالي بساطاً رقيقاً وخفيفاً، رذاذاً شبه مرئي،

يُقال إنه يفتقد إلى القوة، رغم أنه يخنق التلال والوديان بذروريته. وذُهلت برؤية مشهد أكثر واقعية، بل أكثر من واقعي يشع ببياض مختلف في الأعالي الأكثر بعداً. أين أصبحا؟ هل انتقلا إلى الجهة الأخرى من العالم؟ والناس؟ هل اختفوا؟ جميعهم؟

بغض النظر عن هذا الشخص القاسي المغتاظ من جلوسه في الثلج، والمدعي بأنه أمير، والذي أخذ ينعق من جديد:

ـ ماذا دهاكِ! لِمَ تنظرين إليّ هكذا؟ هيا، فلننتهِ من الأمر! مذا تنتظرين؟ هيا، لا تردعي نفسك!

ثمّ قال مشدداً على كلّ كلمة، وكأنه يسعى إلى إقناع نفسه:

ـ مهما حدث، لن تنسيني. أبداً.

ـ أيها الوحش، هل تقول إني سأتذكرك!

تنبهت الفتاة للشق الذي يقضي على صوتها حين تتوجه بالكلام إلى ذاك الملتحي المقرف، إلى تلك الفزاعة، ولكنها تخطت خوفها مجدداً وقالت:

ـ سأتذكر دوماً كيف كنت تقتل المولودين الجدد من بين من تقوم بقتلهم، بضربهم بأغصان الشجر. أنتَ فعلت ذلك بيدك. رأيتك تقتلهم. ولم يردعك صراخهم الشبيه بعويل جراء الكلاب ولو لمرة واحدة. لا، كيف لي أن أنساك؟ أمن الممكن نسيان الطاعون والكوليرا بعدما يكونان قد قضيا على عظامك؟

ـ كنتُ أظهر شفقتي تجاه أولاد الكافرين هؤلاء. أوفر عليهم اليوم عبء تحمّل أخطاء أهلهم وعبء ارتكاب أخطاء أخرى في الغد، مع مرور الوقت...

سعل بشكل خفيف، فتوقف لبرهة. وسال الدم من ركنَي فمه. ولكنه تمكّن من الإعادة والقول:

الحمد للّه الذي فضلنا على كثيرين من عباده...

وإذا بدفقة رابعة من الرصاص تُسكت صوت الكبرياء من مصدره: داخل الصدر. عندئذ قالت الفتاة:

ـ يا مدنّس الكلام الإلهي!

لم يتحرك إثر الصدمة، إنما بقي جالساً يحدّق فيها بعينين حزينتين. حيث بدأت تتشكل دموع راحت بعد ذلك تضيع قطرة تلو الأخرى داخل لحيته، تلك اللحية اللعينة المشعّثة والمتسخة.

وضعت الفتاة سلاح الكلاشنكوف على بساط الثلج في متناول النظر. أما هو، فلم يتذمر، ولم ينبس ببنت شفة. وراحت تدور حوله. ففحت الروائح الكريهة وراحت تنتشر في الجو. مجرد روائح نتنة؟ إضطرت إلى إغلاق منخريها. كان هو من ينشر رائحة العرق. ويتصبب صمغاً خفيفاً ناجماً عن طبقة قديمة من القذارة، وماذا بعد؟ يمكن أن نُضيف إليها روائح ركام الجثث النتنة التي تجتاح المنازل حيث يتمّ ذبح الخروف يوم العيد المقدس.

باشرت المراهقة بتسلق الجبل من جديد، إلّا أنها لم تستطع الاعتماد بشكل فعلي على يديها.

ولم تكد تبلغ القمة حتى أشعل وميض فوسفوري من الحديد الناري طبقات المرتفعات الأرضية المؤثرة. فكرات الثلج البَرَدِيّة الشكل لم تشأ التوقف عن التساقط بغزارة، حتى أنها نقدت وجه الفتاة بكامله حين نهضت لتواجه العظمة الساكنة التي قدّمت لها

عرضاً لا مثيل له. كيف يمكن لهذه الإنسانة الضائعة نوعاً ما أن تتمتم قائلة إن ما من أحد حولها ليُلقي نظرة على هذا المشهد، وإن ما من أحد ليشهد على كلّ ذلك. وأنا، ألستُ بأحدٍ؟ أعني بقولي يا حمقاء إن ما من أحد ليُفسد المشهد. فإذ كنت أفسده أنا؟ سنعرف ما ستكون ردّة فعله في تلك الحال.

ظننت أن الجواب على سؤالها أتى بشكل صرخ كلّ من ينبس هاتفين باسمها: أما ـ ريلا! أ ـ ما ـ ريـ ـ لا!

ولكن لا، إنه الأمير. يناديها فحسب. ومنذ تلك اللحظة. توقفت حبات البَرَد الكبيرة عن الإنقضاض: فندائف الثلج انهمكت بتغليف الجبل مرفرفة برقّة، ومتباطئةً في تحرّكها.

ابتسامة الأيقونة

لاحظ راسّك أنها هذه المرة قالت:

ـ نعم، ماذا قلت؟

ولكن من أين تراه قد انبثق ذاك الارتجاف الذي أصابها بهزة في اللحظة نفسها؟ ليس من رخاوة وجهها المتحجّرة، وليس من أي جزء من أجزاء الطرد المكوَّم على الكرسي والحالّ محل جسمها. فمن أين إذاً؟ في الأمر سر خفي.

وماذا عن ذلك الصوت الذي لا يمت بأي صلة إلى الصفات البشرية هو الآخر، ذاك الكابوس الذي تحوّل إليه صوت كما لو أن صاحبه قد خضع لعملية في حلقه؟ ولكن رغم أن نينا كانت مدخنة من الطراز الأول، إلَّا أنهم لم يضطروا يوماً إلى قطع أوتارها الصوتية، فالأمر لم يصل بها إلى هذا الحد. إنه مجرد عضو بقي طويلاً من دون نفع. والآن ما عاد يفيدها في شيء.

تحاشى، بل اتقى مفاجأتها:

ـ قلت لك... ألّا ترغبين في الخروج لبعض الوقت؟

إلّا أن محاولته تلك لم تقابلها أي رجفة ولا إجابة، وحتى أنها لم تسأله: نعم، ماذا قلت؟

إذ بدا وكأن راسّك يمكث في جانب معين من الحدود؛ وهي في الجانب الآخر. ربما كانت تراه من البعيد البعيد: ولكن لا يبدو بالمقابل أنها تدرك ما يحاول جاهداً أن يفصّل لها من كلمات.

وبقيت هناك جالسةً كما لو أنها وسط الصحراء فيما هو جامد في مكانه يراقبها وكأني به وسط صحراء أخرى. وراح يردد اللازمة المعروفة نفسها من دون أن تخمد همته:

ـ جولة قصيرة يا نينا. فلنخرج.

ربما كان لديها رأي في الموضوع، إلّا أنها احتفظت به لنفسها. ولكن راسّك لم يستسلم؛ إنما تحلى بالصبر وكرر كلامه بعد مرور بضع ثوانٍ:

ـ نينا، نينا! فلنخرج لنقوم بجولة قصيرة!

ولكنه أخفق في سعيه مرة أخرى. وراح ينتظر مجدداً من دون اضطراب. فهو يعلم: أن الإجابة تأتي دوماً إذا بقي المرء منصتاً، كما أنها لن تكون أي إجابة غير متوقعة، بل الإجابة المرتقبة عينها.

أما نينا، فلم تكف عن تركيز انتباهها على تلك الكوة المطلة على أبنية مشتركة أخرى، حتى أنها راحت تتشرب نورها بعينيها، عينين كابيتين أنهكهما تلف خفي. ويبدو أن التلف نفسه قد لهوج ذلك الجسم الجالس على كرسيه بجنبيه السمينين والطافحين عن كرسيها، وأضفى عليه لون السمرة. ولكن راسّك لم يفقد الأمل

من مصالحتها مع الواقع. فقام بالنهيم كالفيل مخالفاً قواعد اللياقة والأدب:

ـ جولة قصيرة!

حينذاك رجع نظر نينا البليد والخالي من التفكير لينصب عليه. فانتهز راسّك الفرصة حتى يصرّ عليها محاولاً إقناعها:

ـ ألّا ترغبين في الخروج لبعض الوقت؟

ـ الخروج؟

راح يناشدها ويدعوها بيديه الممدودتين وكأنه يأمرها قائلاً: تعالي، تعالي!

فاتكأت بثقلها على الطاولة ونهضت. وبدأت تتقدم: إنما ليس نحو الباب، مع أن راسّك حاول عبثاً أن يرشدها إلى الاتجاه الصحيح، ولكنها تاهت وباتت الآن على درب مجهول.

توجهت نحو هدف استشعرت به وحدها وهي تكشط مشمع الأرضية بنعليها الباليين. فتأمل الرجل الحذاء القديم الذي تجرجر به قدميها، وتأمل ذلك الوجه المنهار بالقذْر نفسه تماماً. فغشت الدموع عينيه. وراح يتساءل فيما كانت من جهتها ماضيةً بخطاها البطيئة الأشبه بخطى سلحفاة: لِمَ أُنكر واقع أن نينا تتمتع بمَلَكَة البصيرة التي تقود السائر في نومه مباشرةً إلى حيث يظن أنه عليه الذهاب؟ أهو افتراض عبثي من قبلي؟ إلّا إذا فكرت في أنها لم تقم باختيار طريقها إلّا بعد تسلحها بيقين ثابت في كيانها بأنها تركض باتجاه اكتشاف، بنوع اليقين ذاك الذي يراهن المرء بناءً عليه على كل ما يملك، حتى على جلده إذا كان ذلك كل ما بقي له ليكسو به عظامه.

ثم تأوّه راسّك قائلاً في سره: آه لا، ليس هذا، وهو على أتم الثقة بأنه لم يقم سوى بالتعثر في مسعاه لاستغراقه في الأحلام. فانتزع نفسه من أحلامه وأعاد عرض مجموعة حساباته الاعتيادية: اليوم وبعد خمس عشرة سنة، هل سيكون قادراً في النهاية أن يقرر ما إذا حصلت المسألة في الأمسية نفسها أو في أمسية أخرى؟ المسألة قديمة للغاية إلى حد أنه لا يستطيع أن يتذكر. ثم هل كان عدد الأمسيات المماثلة كبيراً جداً؟ بالتأكيد، إذا حصل الأمر في أمسية أخرى، فلا بد من أن يكون قد جرى خلال الأمسية الأخيرة: أمسية تلك النزهة عند الغسق. ولكن عدد النزهات المماثلة كان هائلاً أيضاً! لا أتحدث سوى عما حدث منذ خمس عشرة سنة، خمس عشرة سنة وبضعة أشهر إضافية. أو هل أن كل حدث يتم منذ ردح من الزمن لا يصلح بعد ذلك إلّا ليلعب لعبة الملاحقة والهذيان والإخطاء في التاريخ أو على الأقل في الساعة، حتى ولو كان الأمر متعلقاً بحدث من هذا الوزن؟ أهذا ممكن؟ وماذا لو كنت أنا من يمزج ما بين الأمور بحق الجحيم؟ إذ لطالما مزجت ما بين الأمور، لطالما غصت في عالم من الأحلام.

وخمس عشرة سنة...

لم يتوقف راسّك عن اجترار كلامه: خمس عشرة سنة تشكل ردحاً طويلاً من الزمن، هذا ما عدا الأشهر الإضافية. وبِمَ كنا مشغولين أنا ونينا قبل مرور الخمس عشرة سنة تلك؟ بالغوص في عالم الأحلام، بالغوص في عالم الموت. كنت على بعد أميال من الشك في الأمر شخصياً، أما هي؟ أما هي فلا: الآن يمكنني

أن أؤكد ذلك من دون أن أضطر إلى دفع أي ثمن. من جهتي، لم أكف خلال نزهة نهاية الزمن تلك منذ خمس عشرة سنة عن تلاوة كلام منمق على مسامعها من مثل:

ـ كان معنا رجل أيضاً، رجل ضيب، أذ...

أما هي فراحت تسخر مني انطلاقاً من خلفية ذلك العصر وعلى خلفية الهستيريا النشوانة من غاز النيون. ما زلت أسمع كلامها يطن في أذني:

ـ ماذا ستجد بعد؟ ما حشي الدماغ هذا!

في أي أمسية قالت ذلك؟ يا لسؤالها المغضب والشرير القادر على تحديكم بحق ولغم ذاتكم! لا بل إنه يحملكم على القيء.

حشو، أيتها البلهاء، وليس حشياً! ولكني لم أعلق على المسألة، إنما تابعت قائلاً:

ـ أذكر...

ـ للمرة الأخيرة أقول لك دع الأمر وتقدم.

غير أن تلك الصور السابقة للطوفان يمكنها أن تعزف في آذانكم موسيقى بسيطة عذبة ومحزنة أكثر من أي صور أخرى. إنها قادرة على إغراقكم بالحنين. فمن المفضل عدم ذكر الموضوع.

ـ تذكري يا عزيزتي المواطن الغريب الأطوار. كان يتنقَّل من مدعو إلى آخر، وما إن يقترب من ثنائي حتى يقول وهو يباركهما: «أعلنكما منفصلين باسم رتابة الزواج».

غير أن الضحكة التي ابتلعها راسّك ثانيةً نجحت مع ذلك في إغاظة نينا. فهددته قائلةً:

ـ أقول لك ذلك للمرة الأخيرة. قد تكون لديك نية مبطنة يا راسّك، ولكن ذلك لن يغير شيئاً في المسألة.

أحس بأنه مستعد أن يركع بحق الجحيم وأنه يشرف على طلب العفو. ثم تماسك نفسه.

ـ لن تمنعي الناس عن الكلام الآن؟

أَوْشَكَ أن يقول، ليس الناس، إنما الرفاق ـ ليقلد نينا بطريقة ساخرة. إلَّا أنها صرّت على أسنانها قائلةً:

ـ كما لو كانت تلك هي المسألة المطروحة. وأشعر أن الأمر لم ينته بعد! هيا، كفانا دوراناً حول هذه البيوت الحقيرة.

ـ لمَ علينا أن نعود باكراً؟ ألقي نظرة...

ـ دع الأمر وتعال.

ـ جولة قصيرة فحسب.

إحترست نينا من التنازع معه، إلَّا أنها بلّغته بنبرة قاتمة:

ـ لقد حل الليل.

ـ لم يحل الليل بعد على حد علمي. إنما يكاد يحل. لمَ علينا أن نعود لمجرد أن الليل يكاد يحل؟

ما قامت به نينا في تلك اللحظة كان: النظر إليه بازدراء. فوجه نظره إلى مكان آخر، ساعياً لمعرفة وجهتهما، إلى أي جهة يتجهان، كما لو كان مصيرهما متوقفاً على ذلك.

فنصحته بالتالي لا أكثر:

ـ كف عن المجادلة. غداً....

أطرق راسّك رأسه واستقر في مكانه مبعِداً ما بين ساقيه. ولم يكن ما ارتسم على قناعه الساخر بشكل مفاجىء فكرة، إنما كان

بالأحرى إحساساً عميقاً، الوسواس بما لم يقله يوماً. ليس فكرة بقدر ما هو إحساس أو وسواس شَكّل: إجابةً، الإجابة المنشودة، إجابةً انتَظَرَت لمدة طويلة جداً قبل أن تكشف عن نفسها. فاستقر في مكانه ناسياً الساعة والمكان والظروف وسط ظلال البيضاء العائدة بصفتها متحرّشة بالرجال لملامسته بجنحيه كدخان من دون نار...

دخان من دون نار ولكنه تبأ له قد رجع إلى عدمه، تبخر وانحل في الهواء، اختفى!

فانتابه شعور بالقلق:

ـ ماذا؟ ما الذي يحصل؟

ـ لا شيء، هيا، ما بك!

ـ إنتظري قليلاً، لقد قلتِ: غداً.

ربما كان ذلك ما لم يقله: غداً. أما نينا فغضبت وفقدت السيطرة على نفسها وقالت:

ـ ماذا علينا أن ننتظر غداً؟ أصبحنا عند الباب.

الباب! ها هي الكلمة، كلمة تم إفلاتها في النهاية، منذرة «بالخطر وحاملة» الصاعقة. الباب. وكانت نينا من تلفظ بها. فتدفق سيل من الدم الساخن إلى وجه راسّك، إلى دماغه، وظن للحظة أن أنوار الحي القاتمة أخذت تتلاشى. أما الشعلة في عينيه فقامت على عكسها بالانسحاب دفعةً واحدة. إنها كلمة لا يجوز التلفظ ولا البوح بها. فراح يقول في نفسه: سأنهار، سأقع في أرضي.

ثم قال بنبرة تعود دائماً لتولد من جديد بعد كل محرقة:

ـ يمكننا أن ننتظر لبرهة، أليس كذلك؟

ـ علينا أن نعود.

ـ هل أنتِ على هذا القدر من العجلة؟ لم نفعل شيئاً بعد، لم نَرَ شيئاً حتى.

فقالت:

ـ غداً.

ـ غداً؟

ـ غداً صباحاً.

قال لها:

ـ لن يكون المنظر مماثلاً، سيكون قد تغير من الآن حتى صباح الغد. لو كان بإمكان كل شيء أن يبقى كما هو الآن... مكان خالٍ ولا يتغير، إنه جميل.

راقبت نينا الليل وأصيبت بالدهشة، فقالت بصوتٍ بَلَغَ صداه إلى البعيد:

ـ الطقس جميل! هل توصلتَ إلى ذلك بمفردك؟ الطقس جميل؟ عجباً، أنت تكذب أيضاً.

ـ لا، ليس هذا ما قـ...

إلَّا أنها قاطعته. فمهما يكن ما سمح لنفسه بقوله، فهي لم تبالِ بسماعه.

ـ إذا ظننتَ أننا سنبقى نتسكع في هذه الشوارع، فأنت تخدع نفسك يا عزيزي! عليك أن تأتي وبسرعة.

ـ هيا... لحظة فحسب. في الحي أسر عديدة غير آل راكازين لم نرها ترجع؟

ـ أنتَ، للتلفظ بالحماقات، لا تفوّتُ فرصةً واحدة،

ـ لا تقلقي. قلتُ ذلك لمجرد أن أقول شيئاً.

وأرفق راسّك مزحته بضحكة صبيانية صريحة وغير متوقعة، بضحكته السابقة! ولكنه لم يطلقها بكل قواه، إنما بما يكفي لبث التنميل في أنفه. وبعدما انطلق، ظن أنه من المسلي أن يضيف:

ـ أمر واحد لن أستطيع أن أصدقه هو أن يكون نديث ضلع في المسألة.

ـ في أي مسألة؟

ـ إهدأي. أردت أن أقول ببساطة إن الناس يرحلون وينسون أن يرجعوا ولا نعرف عنهم شيئاً ويكف الجميع عن التكلم عنهم. فمن نحن بالتالي؟ النامون والسكيرون وشركاؤهم!

دائماً يستعيد الذكريات نفسها، ولا يدري ما إذا كانت صحيحة أم خاطئة، فهو لا يتعرف نفسه بشكل أفضل على الإطلاق في نزهات الماضي المسائية تلك. وليسترجع بالتالي تلك الليلة التي قضت عليه بعد مرور خمس عشرة سنة عليها: تراه لا يساوره حيالها إلّا الشك والحيرة! إذ لم يبق أي شيء في مكانه، حتى أقل الأشياء قد تغيرت، سواء ما قيل أو ما تم إنجازه في تلك الأمسية أو في الليلة السابقة أو التالية لها بالمقدار نفسه. ولم تغير أي واحدة منها اتجاهها. كان يضيع وقته وكأني به يبحث وسط فوضى تعم متجر سقاط. أما نينا فكانت أشبه بدِلفية متعذرٍ تغييرُها وغير قابلة للعزل موضوعة جانباً، هي وصوتها المرعب الأقرب إلى خيبة أمل.

ـ تفوهت بما يكفي من الحماقات اليوم. علينا أن نعود.

لم تنطق إلَّا بكلام مهين لا غير. فما من كلام غيره يرشح دماً ويدعو إلى هذا الحد من القيء. وما من كلام غيره يشكل تنبؤات تعود لتفرقكم إلى هذا الحد في حالة من النفور، في خليط التخيلات والغموم المدعو الطفولة. ولم يطل الأمر براسّك حتى بدأ يتذكر فصول الشتاء تلك حين كان يعود من المدرسة في عتمة الليل الحالك ويصاب بالرعب لدى رؤية المنزل القديم لأنه كان عليه أن يعبر باب عربات في لجة الظلمات ليصل إليه. كان يفضل أن يعرّض نفسه للفرم كوجبة طعام على أن يجازف بالتقدم خطوة واحدة نحوه. إذ كانت هيئة بيضاء تطوف في المكان وتتخذ لنفسها شكلاً عند أولى إمارات الغسق. فيصرخ الفتى كل ليلة طالباً النجدة عند المدخل. ولم يصرخ يوماً أمي! بل كان يصرخ: أنيوتكا! أنيوتكا، شقيقته الكبرى، تلك نفسها التي تعرّضت للتوثيق بعده ببضع سنوات ولم يعرف أحد شيئاً عنها منذ ذلك الحين.

زل لسانه فصاح أيضاً أمام نينا في تلك الأمسية الشهيرة، تلك الأمسية القذرة ـ ولكن أي واحدة منها؟ ـ:

ـ أنيوتكا! أنيوتكا!

إلَّا أنه تمالك نفسه لعدم شعوره بالفخر إزاء صراخه، بيد أنها كانت قد بدأت بتوبيخه:

ـ هل رأيتَ أشباحاً؟ ماذا يجري لك؟ هل تسعى إلى زرع الاضطراب في الشارع؟

فدافع عن نفسه قائلاً:

ـ لم أرد أن أتسبب بالأذى. لا تقلقي. كل ذلك بات بعيداً الآن.

ـ أنا أقلق؟ ومن زعق بشكل يظن المرء لدى سماعه أن أحداً قد أقحم مفرقعة في مؤخرة مطلقه؟ من لا يجرؤ على التقدم حتى نرجع إلى المنزل؟

ـ حسناً، حسناً ـ فلنقل إني تصرفت بشيء من الحماقة؛ ولكن ذلك لا يحصل غالباً.

ـ بشيء من الحماقة؟ بل قل إنك رعديد فعلي.

كانت إجابته حاضرةً ولكنه فوجيء بسماع صوته يُبح حين خرجَت منه الكلمات:

ـ لست حاقداً عليك لوصفك إياي بالرعديد، أنت تعلمين. لست حاقداً عليك بصدق.

أما نينا، فهزتها نوبة بهجة جنونية واستسلمت بالكامل للتلوي من الضحك والتبصيق بشكل متكرر.

لقد وصفَتْني بالرعديد في تلك الأمسية، برعديد فعلي. ولم تتضايق لدى قذفها تلك الصفة مباشرة في وجهي. ولكن ماذا جرى لها اليوم وإلّامَ تحولت؟ إلى كسيحة لا أكثر ولا أقل؟ أعود بعد خمس عشرة سنة إلى البيت لأجد ماذا؟ تلك المطرة المجردة من مقبضها ويديها؟ وليس امرأة في الانتظار. والأسوأ أنها ما عادت تتمتع بقدراتها الذهنية وقد فقدت حسها المشترك. فعليّ أن أُطعمها بالملعقة الصغيرة من الآن فصاعداً وأن أبدل لها حفاظاتها. لم يوافقها كثيراً قضاء خمس عشرة سنة من حياتها مسترخيةً ومتحررةً تماماً من دون أي أعباء تثقل كاهلها. كنت منذ بعض الوقت أقترح عليها أن نقوم بجولة ونخرج على سبيل المثال: إنما حتى يدخل كلامي إلى رأسها، اضطررت إلى تكراره

لعشرين مرة متتالية. إنها حالة تستحوذ عليكم فيها الرغبة بالإيذاء بطبيعة الحال. ولكن ما جدوى من إلحاق الأذى بها؟ في السابق كنت أخجل لأجلها مما تسببه من أذى للناس، مما تشكله من إهانة للحياة، إهانة تمشي على ساقين وتعكس ظلاً. حسناً، إنما لم تعد الآن ما كانت عليه ولم أعد أخجل إلّا مما سببته لي من أذى. من قد يرغب حالياً في الاستهزاء بذلك؟ بشخص لم يعد يملك من الصفات البشرية إلّا المظهر؟ ولا يثير الغضب أكثر من أي غرض جامد؟ لقد نهضت بناءً على طلبي؛ ولكن جهدها لم يساعدها إلّا على النهوض، إذ لم تعرف حين وقفت في أي اتجاه تمضي. فأشرتُ لها إلى الباب معتمداً على قدرتها على إنجاز المهمة بمفردها. وها هي تبدأ بالحراك ولا ترى وهي تستمر في تقدمها إلّا ما ترغب في رؤيته فحسب. فلحقتُ بها وشددتُ على ذراعها. وبات الأمر منذ ذلك الحين أشبه بالشروع في تحريك تمثال الفارس. وبناءً عليه، أدركت أنها لا تنتعل سوى خفّيها ولا تلبس بحق الإلّه إلّا فستاناً لا شكل محدد له، كيساً مقززاً مصفرّاً مطرّزاً في المنزل ـ أو ما يشبهه؛ إنما متى وكيف استطاعت أن ترتديه وهو ما زال يفوح برائحة التبغ العادي النتنة مما كانت تلفه في ذلك الزمن، ومقدمه منقط بمواضع احتراق بحجم رؤوس الدبابيس؟ هل أعرض هذه الفزاعة أمام عيون الجيران؟ لقد تبدل الزمن. لذا مهدت لحركة دائرية حتى أعيدها نحو كرسيها. فلم تُبدِ أي مقاومة على الإطلاق.

أصرّت على السخرية في تلك الأمسية مطلقةً صوتها العالي. سخَرَت ما طاب لها في تلك الليلة المصيرية.

ـ ما من شيء يقال، فأنت بالفعل ماهر في ترتيب الأمور!

فتحداها قائلاً:

ـ وماذا لو ناديتُ الله؟ ما رأيك؟

إستسلمت للقهقهة مجدداً، وكان الأمر فظيعاً مرة أخرى. فراح يتأملها. إذ أوشكت أن تبصق دماً. ثم أجابته بحدة وبسرعة وهي تحوزق:

ـ ماذا سيفعل بي إلّهك بحسب ظنك؟ يضع لي روث كلب تحت قدمي حتى أنزلق فوقه؟

قرر راسّك أن الأمر يكفي وأن الدعابة بدأت تتحول إلى قيء. فهل يغضب؟ هل يقوم بخنق تلك المرأة؟ وحده المتخلف عقلياً يفكر في القيام بأمر مماثل.

أما هي فتابعت حديثها:

ـ أنت تقف في جميع الجهات في آن معاً. تكون في جانب وتقف في الوقت نفسه في الجانب المقابل، دائماً في الجوانب، ما يعني أنك لستَ من أي جانب. أليست تلك الطريقة الفضلى حتى لا تكون في أي مكان؟ وألّا تكون في أي مكان هو أن تكون في الجهة الأخرى، في الجانب الآخر، في جهة العدو. غير أن تلك الكلمات أفرَحت راسّك! فقهقه، إلّا أنه غيّر الموضوع:

ـ إسمعي، أتعلمين ما سنقوم به ذات يوم؟ نزهة طويلة عبر البلاد. سنستقل الحافلة الكبيرة أو القطار، إنما ليس القطار الحادي عشر! شجعته نكتته: إنما ليس القطار الحادي عشر! على

القهقهة من جديد. ولكن سرعان ما رنّت نبرة صوته بنغمات متموجة وغنائية.

ـ آه لو أننا نملك مركبة قديمة! لكان ذلك رائعاً بالفعل! نتوقف حينما نريد. وننزل أينما نريد، إن كان في فندق أو في مزرعة أو في منزل ريفي عند أبواب المدينة لدى أناس طيبين، أينما كان... فما من طريقة أخرى لتقدير جمالات أي بلد، وفي المقام الأول بلدنا، هذا ما يسمى بالتقدير.

مات الحلم على شفتيه مع انتهاء كلامه. إلّا أن صداه كان يتريث مكابراً إبان تلك الليلة.

غير أن نينا لم تبد على الإطلاق معترفة بفضلها في التفكير أولاً في هذه المسألة وسط السكون الذي تلا قبل تبدد تلك الرؤية بالكامل. ولم يبد عليها أنها تشاركه في رأيه على الإطلاق، وهي تهمس كما لو أنها خائفة من القضاء على ذلك السحر.

ـ علينا أن نذهب الآن.

ـ فوراً.

ـ حسناً إذاً، تقدم.

ـ ماذا، أنت تمزحين! علينا أن نستعد. يلزمنا وقت حتى نستعد، أما هي فعادت من جديد إلى نغمتها القاتمة:

ـ حتى نعود؟

ـ حتى نقوم بنزهة طويلة.

ـ لا، ولكن هل ما زلت تفكر في ذلك؟

فارتجل راسّك حينذاك الشعر التالي على نَغَم عِدّية:

قيل إن إيفان الأجدب

يملك كونيوك غوربونوك

لأنه لا يملك سيارة
قيل إنه يملك حصاناً أحدب
يمتطيه حيثما يذهب
مع أنه قيصر والكل أعلم.

ليس من المضحك أبداً أن ترى كيف تمضي خمس عشرة سنة وتعود بلمح البصر عينه!

سمع نفسه يخطط وهو جالس في مقعده الكتاني مداً ذراعيه على مسنديه. وراح ينظر إلى نينا فيما كان نصف جسدها متوارياً وراء الطاولة، نينا تلك بعدما تحولت إلى امرأة ـ جذع وراء تلك الطاولة، وراء كل الأشياء، بعدما باتت في مكان آخر، في عالم آخر.

سمع نفسه يخطط، حتى أنه لو أراد لاستطاع أن يرى أفكاره تنعكس على الحائط قبالته. خمس عشرة سنة ذهاباً وإياباً تنعكس قبل أن نفكر في ذلك؛ وربما في وقت أقصر من ذلك حتى. حتى أن تلك النزهة الليلية والأخيرة بالمقدار نفسه، راحت تعوم بعيداً جداً في الزمان: هي أيضاً في بداية الخمس عشرة سنة تلك، مع حلم المركبة القديمة المتواري لحظة نشوئه!

ولكن لا شيء يساوي القطار، أو كان يساوي القطار الذي وُضعت على متنه في اليوم التالي من دون أي معرفة كانت بأي وقائع في رحلةٍ غير مضمونة العودة، في يوم تالٍ كان يوشك أن يصل ويشرق فيما كان الليل ينقضي ونحن نضيّعه معاً، أنا ونينا والشيطان بيننا. وحتى أعزي نفسي، رحت أفكر في ذكرى كونيوك غوربونوك، الحصان الأحدب العائد إلى سنوات طفولتي الظريفة.

واستقيت من الحكاية الساخرة رثة؛ إذ نستمد البهجة دوماً من ضمن إمكاناتنا:

قيل إن إيفان الأجدب
يملك كونيوك غوربونوك
لأنه لا يملك سيارة
إلخ.

ماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك؟ ماذا تركوا لنا سوى ذلك نفعله أو نقوله؟

لو كنت فقدت عقلي في بعض الأحيان منذ عودتي، لما كنت دهشت على الإطلاق. أو لنقل إني ربما كنت لأُدهش قليلاً. أما في ما يتعلق بتلك المرأة المحصنة هناك وراء الطاولة والمضغوطة داخل ثوب لا شكل محدد له، داخل كيس مصفرّ مدروز في الخصر، فهي ما عادت الآن تقوم إلّا بالإصغاء إلى الكلام المدوّي داخل رأسها، رأسها الضائع كلسانها الضائع. أين ضاعا؟ لا أحد يعلم ـ تلبس أسمالاً ليست سوى الفستان، الكيس نفسه أو آخر شبيه به منقط بنقاط سوداء تركتها السجائر المشتعلة، النقاط السوداء نفسها. ليس أبشع من غطاء الأسمال إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار، لا بل هو أشبه ببزة جاهزة أسكنها تماماً كما تسكن السلحفاة قوقعتها، أي ما تصبح عليه الثياب ما إن أضعها على جسمي، قوقعة بالمعنى الحرفي للكلمة حتى ولو كانت مستقاة من متجر.

مهما كان ضعيفاً احتمال موافقتها على الخروج، فالليل قد حل في كل الأحوال ليحجب القبائح كافة لحسن الحظ: رحيماً إذاً بالتأكيد تماماً كما كان في ذلك الزمن، قبل خمس عشرة سنة،

في الليلة المقصودة، المقصودة أيضاً وأيضاً. وماذا أيضاً لو حصل ذلك في تلك الليلة أو في ليلة أخرى، فماذا سيتغير بعد ذلك؟

كان الفراغ يزداد كلما مضوا قدماً، هما والشيطان ثالثهما، ذات ليلة. لا تحملهما إلى الأمام خطاهما بقدر ما تحملهما مشاجراتهما، ولم تكن لهما وجهة معينة في بيئة لم تكشف إلّا عن أبنية معلبة في كل الزوايا وفي كل الأبعاد. مضوا قدماً. ومع أن الشيطان كان صامتاً، إلّا أنه كان يصغي إلى أحاديثهما الضاغنة، ماشياً إلى جانبهما حين يمشيان ومتوقفاً حين يتوقفان، إذ لم يتواجد صعاليك غير أولئك الثلاثة ليتنزهوا ويدوروا في مدينة تشهد على نهاية الأزمنة. أين ذهب الناس؟ هل باتوا أرواحاً ميتة تم إجلاؤها؟ وتمت إعادة مساكنها الحقيرة إلى غريبها الأولي غير اللائق؟ وهي تنتظر القيامة في مكان ما؟ كانت مربعات النار الشبيهة بلعبة الدومينو تلمع عند الواجهات في أمكنة متفرقة. لا بد من أن الطائشين قد نسوا إطفاءها قبل رحيلهم! أما نينا وراسّك، فبالكاد كانا يلقيان نظرة من دون انتباه إلى مدينة الأموات تلك، إلى تصدع تلك الواجهات. وراح راسّك من جهته يفكر: أنه بإمكان الذئاب أن تأتي مسرعةً من سيبيريا لتتفرق في ما بيننا وتعوي؛ أما نينا، فلنقل إن ما كانت تدبره نينا داخل رأسها، ربما كان الشيطان مطّلعاً عليه، أما راسّك فلا. فهو كان مرهقاً في كل حال، ليس من التعب إنما من حجم الفراغ الذي بدا وكأنه قد ضرب حولهما؛ وفارق نفسه تماماً كما تصور الشقق في العالي وقد تخلصت واحدة تلو الأخرى من ساكنيها المبعدين إلى مكان

قيامتهم ـ أو إلى مكانٍ لن يجدوا ما يترقبونه فيه. وراح يقول في نفسه إنه إذا كان على الحياة أن تستمر، فعلى الموت أيضاً أن يستمر من جهته ويتابع عمله.

حصل ذلك خلال تلك الليلة. إنما كان ذلك منذ خمس عشرة سنة. حينذاك كشف راسّك عن مكنونات قلبه لنينا:

ـ كنا نحتاج إلى شيء من الشفقة في وقت ما.

أكان يتوجه بحديثه إلى نفسه أكثر مما يتوجه إلى نينا؟ محتمل. كانت تلك الليلة قد حلت منذ بعض الوقت، مع أن هذا التفصيل ليس مضبوطاً تماماً على الإطلاق. كان يحتفظ بتلك الكلمات لنفسه ثم أخرجها كما لو كان يفكر بصوت عالٍ؛ حتى أنه بالكاد سمع نفسه يفتحها وينزعها. ولكن ما إن اجتازت شفتيه حتى فهم أنها تتطلب شرحاً.

فقدم الشرح التالي:

ـ صحيح أنكِ قد تواجهين مصاعب شتى إذا لم تسلميني. أقسمي أن ذلك ليس صحيحاً إذا كنت جريئة كفاية. هيا أقسمي.

أكان هذا ما يفترض به أن يقوله؟ لكنه لم يكن بحاجة إلى كلام أكثر حتى يشعر بأنه قد تخلص من عبء، خصوصاً عندما أدرك أنه صرّح بوضوح: أقبل وأوافق على ما يوشك أن يحصل؛ أفوّض أمري إلى الله.

أما هي، فجاءت إجابتها جلية:

ـ هذا لا يعنيك.

لا يعنيني! قال راسّك في نفسه. من منا يشعر بخوف أكبر إذاً؟ هي؟ أم أنا؟ وممَ يخاف؟ نظر إليها ونظر إلى البعيد وراءها، إلى

أبعد نقطة استطاع أن يراها. لم يكن من أحد سواهما في تلك الليلة، ولا شيء حتى. أين كان الخطر متربصاً إذاً؟

إنحنى وحيّا تلك الجادة الكبيرة الأشبه بمفرج مسوّر بالأبنية ووافق قائلاً:

ـ لم أرد ذلك في السابق. ولكن ذلك كان في السابق. أما الآن فالأمر سيان بالنسبة إليّ. إني مستعد أن أترك كل شيء وأعود. هل سيتبعني آخرون؟

لا بد من إدراك أن هذا الإبراء قد سلّمه راسّك إلى الرجل راسّك بصفته رجلاً حراً وليس كأول معتوه وافد.

سجلت نينا ما حصل وهي هادئة تقريباً، بل قل كسيدة محترمة:

ـ تحسن فعلاً.

وجددت موافقتها متنهدةً:

ـ تحسن فعلاً. أما إذا كان سيتبعك آخرون؟ إنه عدد قليل من الناس الأكثر خطورةً.

ومع أن عمليات تبادل الرصاص بينهما كانت دامية إلى حد كبير حتى الآن، إلّا أنها تحولت فجأة إلى مشاركة في الآراء، أو إلى أمر مشابه. فلم يعودا سوى ثنائي يتفاهم بالإشارة، ثنائي لطالما تفاهم بالإشارة. حتى أنهما لحظة كانا يختاران أن يسكتا، كان صمتهما يهتدي إلى الكلام مجدداً.

غير أن راسّك خاطر بالقول:

ـ لم يكن آل كافر خطرين. كانوا خطرين؟

ـ كانوا خطرين.

ـ آل كافر؟

لم تتكرم بإضافة ذرّة موافقة أو ذرّة نفي. ففكر راسّك في أنها اعتبرت بأنها قد بتت هذه المسألة. ولكنها بعد مرور ردح قصير من الزمن معادل لخفقان قلب، أوضحت بعدما غيرت رأيها:

ـ آل كافر؟ من يبدون ككل الناس، هؤلاء هم الأخطر. العديمو الجدوى والمهرجون هم من ينبغي أن نراقبهم جيداً.

هل تذكرت أن تقديم معلومات لمن حولها وتوجيه المواطنين يدخلان ضمن إطار دورها؟ أصيب راسّك بالاشمئزاز وخجل من سماعها وهي تعيد تقديم أضاليل مماثلة.

هو نفسه كان ليلقي خطاباً مماثلاً على نحو أفضل.

ـ إنما هل كانوا أفراداً أبرياء أو غير أبرياء؟ هذا ما أود معرفته.

فقالت نينا بعدما استدارت نحوه حائرةً:

ـ أبرياء! كيف ذلك؟

ـ إذا لم تقم أي محكمة بتوجيه أي تهم ضدهم.

ـ من؟

ـ آل كافر؟

ـ ماذا قلتُ للتو؟ خطرين كانوا!

لو أن طيوراً كانت متواجدة حولها على الأقل، توصل راسّك إلى هذه الفكرة رافعاً أنفه في العالي، حتى ولو كانت طيوراً ليلية، وحتى ولو لم تتواجد في المكان أشجار متفرقة حتى تستقبلها؛ طيور تكتفي بالطيران وسط هواء الأبنية الأسير ذاك؛ لا تقوم بالتغريد، إنما بالطيران فحسب: من الصعب أن نعرف ما إذا

كان أي مما يحصل لنا الآن كان ليحصل في تلك الحال. بقيت مضاءة سدّى تلك النوافذ ذات الجفون الحمراء المحروقة لفرط ما شاهدت عيونها التلفاز. سمع نفسه يجيبها:

ـ أفضّل الانتهاء من الموضوع الآن. فهمتني؟ أشعر بالتعب.

وبعدما أفلت منه هذا الاعتراف، أستسلم لضرب من الضحك ملؤه الهزء المتشنج، ولكنه لم يكن أكثر لياقة من ضحكة نينا الملعلعة منذ قليل.

فألقت نينا عقيدتها في وجهه:

ـ تُعطى الأولوية لخير الكل.

إستغل راسّك ضحكته الصارّة وجاءها بردّ سريع أقرب إلى الجدل الفارغ عينه لمجرد التعبير عن سوء نية كما لو كان مغفلاً:

ـ الكل بالتأكيد، ما خلا الناس مثلي.

ثم عطس بقوة، بقوة كبيرة. وعوضاً من أن يدعها بسلام، فضّل المبالغة بهزله مخاطراً بأن يضطر إلى التعويض عن الأضرار الحاصلة بأضعاف مضاعفة. فبصق التالي وهو يعطس من جديد:

ـ مسكينة نينا، كان بإمكاني أن أحذو حذوك!

ـ بماذا تفضلت؟ ما هذا الكلام غير المفهوم؟

ـ كلامي غير المفهوم مفاده أني لا أساوي أكثر منك رغم المظاهر، وأنه كان بإمكاني أن أقوم بالمهنة نفسها لو كانت الفرصة مؤاتية، فرصة تَعلُّم الحرام من المال السائب. (ما بي أستسلم للتهريج، أي لعبة ألعب وماذا أستنظر منها؟) فأنجز ما لا يحرص أحد على إنجازه، إنما ما ينجزه أحدهم دوماً، أي شخص كان ينجزه لأجلنا.

ـ أنت أيها الخبيث، يجدر بك أن تحتفظ بشفقتك لنفسك، هذا أفضل. فأنت ستحتاج إليها في القريب العاجل.

توقفَت وسط تبادل الملاطفات ذاك حين ظهرت بالقرب منهم وسط صراخ الإطارات واشتعال المصابيح: سيارة إسعاف ريفي. كانت تبدو، لا بل كانت ما يظن الجميع أنه يعرفه ويمتنع في الوقت نفسه عن الإقرار به.

بخِفة سعدانَين نزل منها بسرعة أرعنان هما من القردة الفعليين مع أنهما يرتديان بذلتين بيضاوين، ثم أخذاه من وسطه وبدآ بجره نحو عربتهما. راح راسّك يتخبط مثبّتاً رجليه بالأرض، فتوصل إلى كبح تقدمهما علماً أنه ليس شخصاً ضعيف البنية على الإطلاق. وإذا كانا لا يستطيعان السماح لنفسيهما بإيساعه ضرباً في مكان عام، فهو لم يمتنع عن إيساع أضلاعهما لكزاً بكوعيه. وبدا المشهد ـ أي ما فضحته أنوار وسيلة المواصلات من نزاع بين الرجال ـ وكأنه يجري نقشه داخل برودة الحجر؛ إذ مرت لحظة سكون كاملة.

ثم صاح راسّك:

ـ نينا، ماذا...

وعاد إلى الضحك من جديد.

راح يضحك ويقهقه.

راح يضحك مقهقهاً.

ضحك بطريقة فاحشة إلى حد أنه تم فتح نافذة بعنف في أحد الطوابق وانهالت منها اعتراضات وحماقات متجانسة:

ـ أسكتنَ في الأسفل! أوقفن هذا الصخب أيتها الساقطات الثلاث! ولكن ماذا تردن؟ منع العمال من النوم!

هكذا كانت البشرية ملبودة داخل مساكنها الحقيرة دوماً، البشرية تلك.

إنطلق صوت تلفاز مدوٍّ من مكان آخر انصبّت أصواته الشبيهة بالخوار في الشارع لحظة كانت نينا تتوجه بالكلام إلى راسّك. راسّك المسيطر على نفسه بصعوبة:

ـ ماذا إذاً!

أطلق ضحكةَ المجنونِ نفسها الصادرة من قلب ركام الفحم والكلس الجاف الذي تماهى معه إلى أن أصبحا واحداً، وزمجر مجدداً:

ـ نينا ماذا تـ....

إلّا أنه خنق ضحكته وأصدر صوتاً شبيهاً بالعواء بعدما بدّل رأيه:

ـ لا، لا شيء، لا تقلقي!

لا شيء! لم يجد سوى هذه العبارة حتى يلقيها في وجهها. عبارة تعبر عن النهاية المتوقَعَة، أهي اتهام؟ من كان ليخاطر بجلده حتى يعلم؟ إنه إحماض يلجأ إليه أحياناً ليقوله في سره. وماذا لو كان متأكداً من أنه سينجو من المعتقل ويرجع منه سليماً معافى وأنه يحتفظ بالجزء المثير للاهتمام بالدرجة الأكبر من أجل العودة؟ إن كانت نينا أو القردين أو هو راسّك أو الليل أو شارع سترويتلاي: لم يبد أنه بإمكان الأشخاص ولا الأمور المجردة المحيطة بهم أن تتحرك وتهتز.

ثم عادت الأمور إلى نصابها وانطلقت، من جديد، الحياة التي كانت لا تزال على قيد الحياة من دون مفاجآت. أما العبارة، فعاد راسّك واستخدمها مرة أخرى إنما بصوت منخفض:

ـ لا شيء.

وراحت المرأة توضح المسألة للمرضَين:

ـ فعلت كل ما في وسعي لأدفعه حتى الباب ليحصل ذلك من دون شهود. إلا أنه لم يبرح مكانه. أظن أنه كان يشك في الأمر. يحترس، فهو أكثر مكراً مما يبدو عليه.

رغم بعده، أحدث صوت نينا المنوِّم بلبلة أكبر بعد إذا كان ذلك ممكناً.

حمل كل من السعدانَين بالبذلتين البيضاوين قائمته تحت إبط رشت بعد أن أعيتهما الحيلة ليرفعاه وهو يدوّس في الفراغ وركض بتلك الطريقة حتى شاحنة الحيوانات حيث قذفاه في دخنه منسقين ما بين حركاتهما الأقرب إلى حركات القرود. وفي خلال مدة لم تتعد الثانية كانت الأبواب تصفق وراءه. وبعد ثانية أخرى اندفعا داخل الحجرة الأمامية ضاربَين بعقبيهما. وبعد ذلك بثانية انطلقت المركبة وسط صرير المطاط الذي ينهش الرصيف.

وبعد مرور بضع ثوانٍ تقريباً. دوّى كذلك صوت إخماد الحرائق. وانطفأت الإضاءة التي كانت تقطع كل شارع إلى تتابع سفن صهاريج ثقيلة، ثم تم إطفاء تلك الأخرى بدورها. فعادت المدينة المهجورة بعدما تم اغتصابها لتغرق من جديد في ظلمات نهائية.

ولم يبق إلّا صوت طرق الأقدام الضخمة. شخص واحد كانت أقدامه تطرق وتطرق.

راحت فكرة تطرق أيضاً وتضيّق رمّث. تشبه فكرةً راودته منذ خمس عشرة سنة: ليس أوديب من يريد. أن يحلم بالكائن، نعم؛ أن يحلم بالالتقاء بالسفنكس، نعم. ولكن من يحلم هو تماماً كمن يطلق ريحاً وسط العاصفة. أما أن يتمتع أوديب بالأحداث. فمسألة مختلفة، أوديب مَن ينتظر زيارتَه لسفنكس ممدداً على الرمال ومشرفاً على الموت، أوديب من يعرف حتماً كيف يجيبه في هذه المناسبة ويحصل مقابل جوابه على وعدٍ بمصير: حتى إنه أكثر من ذلك: يرى ذاك المصير يدخل حيز التنفيذ ويدوم بما يكفي حتى تخرج منه بعينين مفقوءتين؛ أما هذه، فمسألة مختلفة...

مسألة مختلفة عن مجرد الاضطرار إلى مجابهة ذلك السفنكس، الأنثى بحلمتيها المصنوعتين من الورق المعجن، الجالسة هناك على كرسيها، مخدرةً ومحرومة هي بالأحرى من عينيها.

في تلك الأثناء ساد صمت طويل ومزعج، وكانت الملائكة وحدها من يتحدث. فألقى راسّك نظرة إلى الأيقونة من وراء كتفه. كانت في زاوية الغرفة تبتسم، يحرسها ضوء متحرك صادر عن مصباح خفيف النور.

يظهر أن أوّل حجر تبليط مرشوق كان فعالاً للغاية: إذ أدّى إلى انفجار الجدار الزجاجي وانطلاقه في دويّ شبيه بضحكة مبتهج.

ثم جرت ضحكة الزجاج المنكسر نفسها، وارتدت على طول سرداب السوق التجاريّ.

كانوا متحدين تماماً حين قاموا بفعلتهم وقذفوا الحجارة. إذ انتصب أولئك الغلمان كصور ظلية ضامرة بمواجهة صف الواجهات الزجاجية، وحملوا حجارة مكسّرة في أيديهم، ومضوا في فعلتهم متحدين على ضوء المصابيح اللاصقة الأخضر. ومع أنهم لم يكونوا سوى صبية، إلّا أن أحداً منهم لم يكن في غمار خوض تجربته الأولى على ما يبدو.

ثم ما لبثت جدران الزجاج تلك أن أصبحت سريعاً مجرّد ذكرى، هي وانهيارها المتدفق. وحينذاك اقتحمت العشيرة المتاجر مطلقة صراخاً صاخباً يطلقه في العادة الهنود الحمر. ولم يحتاجوا

إلى البحث عن باب يندفعون منه إلى الداخل: بل استخدموا الواجهات كممرات ومعابر. فلِمَ يبحثون عن أبواب بعدما تحطمت كل الأبواب؟ وهكذا دخلوا، إذ كان عليهم الإسراع.

أسرعوا في عملهم، وكانوا عنيفين في هجومهم. فاعتبروها مذبحة، وخلفوا وراءهم الدمار. واستخدموا لذلك إما قضبان الحديد أو قبضاتهم أو الحراب أو مفتاح الميكانيكي حسبما اتفق. حتى أنهم عمدوا إلى الضرب بالسلاسل الحديدية. ينغصون عليهم حياتهم؟ يردون بالتحطيم. هل يبتاعون بهذه الطريقة بطاقة أكيدة لدخول السجن؟ ولكنها الحفلة رغم كل شيء! ما يدعو إلى الابتهال بالقلب، ما يدعو إلى التهلل من القلب.

تظنون أنكم تعرفون صبية المدينة هؤلاء لمجرد أنكم لاحظتم هنا أو هناك هذا أو ذاك أو القطيع الكبير كله. ولكن حاولوا أن تروا ما إذا كنتم قادرين على الاحتكاك بهم عن قرب ووضع اسمٍ على هيئة واحدة من أشكالهم ومناداة واحد من أولئك الماكرين باسمه. ستتعلم فوراً يا صاح أنه لم يكن يجدر بك القيام بذلك، بل كان الأجدر بك ألّا تُلح. تجد بين هؤلاء مثلاً بشكل عشوائي تيكلو البالغ بالكاد عشر سنوات من العمر؛ كما تجد دون وتييري ـ الهجومي وشرقية (فتاة) وزنزيل ولابل وفرناند ـ الناجي ـ من ـ الماء ونينجا ضمن مجموعة أكبر سناً بعض الشيء؛ ومجموعة أخرى أيضاً أكبر سناً بقليل من الأولى مؤلفة من فينات (فتاة أخرى) ودل سول والياس وزولو وباتيستا وكلوكلو وتان تان ـ المازح وزيدان ـ الهداف وفريدي ـ الحوت وغونتران ـ ديزل... والآخرين، كل الآخرين تباً! على رأس كل منهم تقريباً قبعة بواقية

أمامية مردودة إلى الخلف، ومغروزة عميقاً لا تنفصل عنه يوماً، حتى أنها قد تكون في بعض الأحيان موسومة بإشارة لاكوست، فهذا أمر أكيد! ولكن هيا، صوبوا نظركم باتجاه ذاك الصبي البالغ من العمر أربع أو خمس سنوات. إنه يهاجم بقضيبه الصغير على المعلبات في قسم الأغذية يضربها بيد آملاً إتمام مهمته بنجاح من دون شك، ويمسك بيده اليد الأخرى. لا تنقصه الجرأة، قرّر بذلك أن يشارك في كل غارة ولا يتخلف عن غيره، إلّا أن أحداً لا يتنبه يوماً لوجوده في الموعد المضروب. إنه غريلو. لا يتخلى عنه ولا يزال يبلل فراشه.

نعم، نعم! يبلل فراشه ويعتبر نفسه من وزن مهاجمة متجر كبير. هل نسيتم ذلك الوقع عند محطة مون برناس؟ هو والآخرون معه، ثم يصل بهم الأمر إلى أن أصبح كل شيء على الأرض بسرعة خرافية لم يتأخروا قط: إذ أصبح العملاق مقطعاً إرباً إرباً في لمحة بصر. أليسوا أشبه بكلاب حراسة ضخمة أو بكلاب أسترالية متوحشة. هؤلاء السوقيون؟ إنهم أكثر توحشاً من الكلاب الأسترالية المتوحشة يا صاح، خصوصاً عندما يباشرون العمل! بل عندما يسعون وراء القذارات المهيأة لاصطيادكم: المسماة بالدعايات. فيتحركون لإدراكها وإصابتها؛ وعندما يضربون بشدة في كل جانب، ويقلبون المكان بأمه رأساً على عقب بسرعة هائلة. ولكنك لن تفاجئهم متلبسين يوماً، مع أنهم يتركون وراءهم جبلاً من الدعايات لوحدها.

أما فتاتا تلك الحركة الأشبه بكلبتين سلوقيتين، فلا تزعجان نفسيهما هما الأخريان. فالشرقية المرتدية قميصاً رياضياً جلدياً

وبنطال جينز ـ جينزاً عليها لترتديه أن يكون لديها الحمامة التي يشعر الصبي بفخر كبير لعرضها، مع أنه لا علم لأحد بمدعاة الفخر فيها ـ منهمكة بتجريد ثوب من بطانته بطريقة منهجية وبإسقاطه على جسمها والتخلع كمغنية روك بطرحة شعرها البني المحنى المتدلي إلى أسفل مؤخرتها. قبل أن تترك ذلك القماش الرديء، وتمسح به قدميها فيما تُنزل واحداً آخر معتقاً. وتعيد الكرة من جديد بطريقتها المنهجية الدائمة.

أما فينات، فاكتفت بإحاطة صدرها الأشبه بمزح كي بثلاث حمالات صدرية من قسم الملبوسات نفسه وتلبس سروال داخلي فوق جوربيها الشفافين. ثم راحت تتثنى متقوسة ركبتيها وواضعة يديها على فخذيها على طريقة مارلين مونرو من دون أن تنظر إلا إلى نفسها، إلَّا إلى مؤخرتها. فالتصور التخيلي المخادع منتشر على نطاق واسع ضمن أوساط مماثلة. فما نصيب الآخر منهن سوى سرقة الأحلام نفسها؟ فضلاً عن أنها قد تُقسم بالله تعالى بأن ذاك السروال الداخلي باللون الأبيض الوردي هو ضرورة قصوى، لا سيما فوق جوربين شفافين سوداوين. تعرفون تماماً أن الفتيات لا يتغيرن أبداً.

ولكن مَن مِنْ بين المحاربين الذكور المسمّرين وغير المسمّرين قد يهتمّ لأوهام مماثلة؟ فهم قد وصلوا بالتخريب والجز من جميع الجهات إلى حدّ إقامة الفوضى داخل البازار، وتحويل المكان إلى بؤرة خراب جميلة. وما من أحد يُفيد من تلك العمليات أكثر من فريدي ـ الحوت، ذاك الفلاح السمين المتكرش: ولكن ذلك أمر طبيعي نظراً لما يقوم به. ماذا يجترّ؟ إنّ ذلك الصبي الشحيم يقوم

بالتهام الحلويات. يفرز الأكياس واحداً تلو الآخر، ناشراً ثلاثة أرباع محتواها وداساً الباقي داخل قمعه. إنما سينتهي به المآل إلى الإنفزار بدوره تباً له، تماماً كتلك الأكياس التي يفرزها! ولكن ها هو دل سول يأتي ليغدره من وراء رأسه بصفعة خارقة يجيدها لاعبو الجودو تجعل فريدي يدور حول جوفه ويتقيّأ القذارات التي حشا نفسه بها. أما ردة فعل فريدي؟ فجاءت بأسلوبه الفلاحي: عبر التباكي كالمهرج والاختباء خلف كتفه المرفوعة كدرعٍ واقٍ. ولكن المسألة أخطر من ذلك بكثير. إذ يمكنكم تصوّر مدى الأضرار اللاحقة بالمأكولات، والتفكير: بأن الدبابات اللعينة لكانت واجهت صعوبة في قذف تلك الأغذية المجلدة بعيداً عن قوالبها، وذلك في ظل وقت قياسي مماثل بالطبع، وفي التخلص من أدراج الزجاجات المختومة تلك ومن المقدار نفسه من الرفوف الجدارية الملأى بأصناف المربيات وبالكميات الكبيرة من المعكرونة المضمونة صناعتها من القمح القاسي بالكامل، ومن البن المضغوط، ومن البسكويت المعدّ من المادة البروتينية الدبقة في الدقيق، ومن علب اللحمة المجهزة بتواريخ صلاحية الاستهلاك، فضلاً عن الكميات الهائلة من السلع نفسها التي تبدو وكأنها تتعقبكم كيفما تنقلتم كزبائن بنظراتها المجهزة بالأشعة السينية الخاصة برجل الرسوم المتحركة الآلي غولدوراك.

أما الأولاد فقد سبق أن مضوا إلى جانب آخر، فيما كنتم لا تزالون تبحثون في المسألة، وانتقلوا إلى متاجر الخزفيات الصينية وأجهزة التنوير والتلفزيونات والترانزستورات والستيريوهات والكمبيوترات والهواتف. فعمّت فيها فوضى تفوق بألف مرة ما

سببوه في السابق من خراب. إذ راحوا يدمرون كل ما يقع تحت أيديهم، ويهشمونه بسرعة خيالية؛ ويكسّرون أجزاء الآلات الداخلية كلها حتى لا تصبح سوى مجرّد مواد بلاستيكية لا قيمة لها. ففي المتاجر أعمال مخزية لا حاجة لنا بها. بل قل إنها تملأ العالم!

غير أن عملية التدمير لا تنفكّ توسّع مداها. والشيطان بشخصه هو من يتلوى من الضحك في الداخل بعين متقرحة حين نطق راديو بقرقعة مفاجئة وبقي الصبية المدهوشون جامدين في أمكنتهم، وسقطت الثواني في القطارة بشقاء لشدة ترددها. ثم يحصل ما لم يكن في الحسبان: إذ يُلقي كل واحد بذراعه على كتف الآخر، فيشكلون جميعهم صفاً، وينطلقون في رقصة شعبية يونانية رافعين أرجلهم في الهواء وسط حقل الأنقاض المسبِّب الدوار. فالموسيقى المشرقية بطابعها العام تلائم رقصة مماثلة.

أسترعي انتباهكم إلى أنهم صبية ظرفاء ولطفاء جداً. إنما لا بدّ من الحذر من إغاظتهم حتى لا يتحولوا على الفور إلى عاصفة عنيفة، إلى إعصارٍ كاريبي. فقد سخّم فائض من السموم دمهم في سنّ صغيرة جداً. لذا شكلوا عصابات، وراحوا يهاجمون ويطرقون؛ كما لو كان الأمير عطيل وأتباعه من بدو الهان قد عادوا للقضاء على الأخضر واليابس. ولو استطاع هذا المركز التجاري نفسه أن يتكلم، لكان سبق أن قاء بغزارة. فلقد مرّ مركز باتكلان المصفوع بأوقات عصيبة تحت حراسة ضوئه النيوني الشبيه بضوء مشرحة نتن؛ بعدما توارى الماكرون واختفوا وتركوه وراءهم هذا المساء؛ بعدما أصبح حالياً متجر أسقاط مصعوقاً وقد لفظ

أنفاسه الأخيرة تحت وميض ضوئه النيوني الطيفي. فالإعدام يستغرق في كلّ مرة وقتاً أقصر ممّا يبدو عليه في الظاهر.

ومنذ ذلك الحين، لاذوا بالفرار في صفوف متراصة بعيداً في المدينة. وبعضهم ركب منفرشخاً على ظهر صاحبه، وراح الواحد ينادي الآخر ليخبره مرة أخرى عن أعماله البطولية ومآثره، ويُفرط في نيل رضاه: تكرّم منه. فهم فخورون تماماً بإنجازهم تحفة فنية جديدة من خلال قيامهم بمجرد رفع البضائع المعروضة. وتلك التحفة الفنية ليست على الإطلاق برداءة الشيء المعروض في ساحة جان ـ جوريس من قبل البلدية، والأشبه بكذا مغوّط لن تحرزوا ما هو عليه حتى ولو راقبتموه متربعاً على عرشه. أهي سيارة مسترجعة مسحوقٌ مقدّمُها وصالحة بالتالي للطرح؟ تم تصنيفها على أنها مكعّب، ثم جرى تحزيمها وإرفاقها بإشارة تفيد بأنها بضاعة فاسدة. أُقسم بشرفي أنها موقعة من قبل القيصر، يوليوس المتطلب على ما يبدو بما أننا ملزمون بإعادة كل ما هو له. إنها باختصار الكذا الأكثر تغويطاً الذي قد تراه في حياتك. لذلك، نقدّم لكم نحن أيضاً تحفة فنية أخرى مماثلة مع أننا لا نزال صبية صغاراً، وسنهزّ الشرّابات التي يعيدها لنا المعتوهون أو كل ما هو لنا بكل بساطة. وإذا لم تكن ممهورة بتوقيعنا، فما على المعتوهين سوى وضع منظار مزدوج على رؤوسهم. فالنقوش الأثرية المنتشرة في مدينة بل فو، تلك الكاتدرائية الأشبه بالسجن بإسمنتها البالي، والمصفرّة إلى حدّ إصابتك بالكآبة، أليست هي الأخرى تحفاً فنية؟ قد تكون مُغْفَلَةً بالفعل؛ ولكن إذا تصورتَ أن

لا أحد هنا يعرف الفنانين أصحابها. فلا بدّ من أنك تعاني من عطل في جهازك. وبما أننا فنانون، فنحن أيضاً نلبي دعوة العروض.

ـ لقد وضعنا لمسةً أخيرة جيدة على متجرهم. لا يا نينجا؟ كانت عملية تنظيف ضخمة!

ـ أخشى فقط أن يقوم أحدهم بمكانسة نشرطة في هذه الساعة. فإذا كنت متعلقاً بردفيك ولا تريدهم أن يتعرضا لكيٍّ بحديدة بقوة خمسة آلاف فولت، فمن مصلحتك أن تحرّكهما.

ـ بلا مزحاٍ، لقد أتلفتُ لهم ما يساوي حقيبةً ملأى باليوروات، يا أصحابي!

ـ يا لكمية ما ابتعتُه! يا لكمية البضاعة الرديئة التي خنّعتُها هناك! إستمتعتُ إلى حدّ أنّ معدتي فرطت، واضطررتُ أن أبحث عن حمام.

ـ ماذا؟ هل خرجتَ بجوهرة يا كلوكلو؟

ـ بالفعل! لقد نشرتُ روثي. عد إلى هناك لترى ما إذا كان يتلاءم مع باقي الزينة.

ـ أنت بطل يا كلوكلو في تسويد العالم. أنت ملك الأبطال في استراحة التوسيخ.

ـ لا تملك شيئاً في القِدر الذي تحمله بين أذنيك! إنها المهارة بالذات يا دبي الصغير: أن تحشو أفواههم بذلك.

أما الحصان الكبير المفرقع فقال من جهته:

ـ الفرار كفتيات متغوطات؟ يا لها من نصيحة مغفّلة.

ثم صاح الحصان الكبير المفرقع:

ـ تباً لكم، دقيقة فقط!

ـ قل يا مباشر، لقد حطمنا مراحيض الأنذال؟ لا؟

حينذاك قام غونتران ـ المباشر ـ لأنه يلقيك أرضاً بضربة مباشرة ـ بتوبيخ البليد الذي يحمله على كتفيه:

ـ لا تتكلم بسوقية يا غريلو. حسناً؟

ـ ما الأمر يا مباشر؟ ألم نقضِ على المركز التجاري؟

ـ أجل، لا بأس بما فعلناه!

ـ بلا مزاح. لقد أشعتُ الفوضى بما يساوي على الأقلّ حقيبةً ملأى باليوروات...

ـ توقف عن الضراط من حنجرتك يا فريدي ـ الحوت! لستَ سوى ضارط. من سيصدق ضارطاً ومستمنياً مثلك؟!

ـ إنتبهوا أيها الأصحاب، لن تتوهَ عنكم المرفسات الراكضة وراء مؤخراتكم إن لم تكفوا عن الثرثرة.

ـ سيطاردونني أنا إلى أن ينفثوا دماً.

ـ لا تفقدوا العنان يا صغاري حتى لا تقعوا بين أيدي الشرطيين.

ـ سيسلمون مفاتيحهم، سيموتون قبل أن يُمسكوا بي أنا.

فرّ هؤلاء الفنانون المثيرون للفتن والأشبه بأسماك داخل الماء لا نجدها يوماً حيث نتوقعها أن تكون. إنها الساعة العاشرة مساءً في ليلة من حزيران/ يونيو لم تُبكر في القدوم على الإطلاق، إنما بدأت تحلّ من دون استعجال فيما كانوا هم يلوذون بالفرار بعدما أطلقوا ضربة ابتداء هزيم رعد الموسيقى الليلية. ولعنة الله عليك إذا كان المكسّرون هم من يدفعون!

لقد قَدِمَ كل رجال الدرك في البلد مجهّزين كرواد فضاء بُعيد انتهاء الاضطراب. وانتشروا وسط الفوضى التي خلّفها صبيتنا الأوغاد وراءهم، غير عالمين بما يجري حولهم. وماذا لو كانت الصاعقة تضرب مرتين في المكان نفسه؟ إنما عليهم حالياً أن يجرّوا أحذيتهم العسكرية من هنا، والتحدث بصوت خافت من هناك كما لو كانوا يتحكمون بالوضع. يا لهم من فاشلين.

أما نحن، فنقبع جميعنا، ما عدا واحداً أو اثنين منا، جالسين أو ممددين على المنحدر الأجرد المشرف على السكك الحديدية. إنه مخبأنا حيث نلتقي قدر الإمكان في أغلب الأحيان في زاوية عند ضواحي المدينة. قلتُ المدينة، إنما عليّ بالأحرى أن أقول الحمامات لشدة بؤس مدينة بل فو تلك، أو لما ستتحوّل إليه في القريب العاجل. فكلما تقدّم الزمن، كلما أصبحت أشبه بما ستكون عليه. ومصيرها أو بعبارة أخرى قَدَرُهَا مكتوبٌ على هيئة بؤسها، على هيئة بئر مرحاضها الذي لم تعد ترفض حتى الاختباء منه، بل تراها تعرضه لأول من يأتي لزيارتها.

إن صغاري المتوحشين، حملوني كلهم هنا هادئون للغاية، نشعر جميعنا بالأمان هنا. ومع أن قعقعة الحديد في الطريق العام تصرّ على خرق سكون الليل، ولكنها لا تعكّر صفوه، فها هو ليل المدار الصيفي البدائي يفوز، يحمله تنفسٌ طويل وعميق... ويحلّ سكون جميل.

راحوا ينصتون إليّ فيما كنت أشرح لهم أن الكلب الجيّد يصيد بحسب أصله:

ـ ولكنكم لستم سوى جراء ما زالت ترضع من حلمات أمهاتها. تجهلون أن ملايين السنين قد تتالت قبل أن يظهر أي

غرض في العالم، أو ما يُسمى غرضاً، فلستُ أتحدث لا عن أشياء ولا عن أدوات. ثم تلتهب الأشياء الباطلة والأدوات الباطلة وَالحَمْلُ المبطَّل، وظهرت بعد ذلك الأغراض وسدّت سريعاً أفق الإنسان، وأشعلت فيه سريعاً عطشاً مهلكاً، عطش الامتلاك. حتى أنه أصبح متغلغلاً في عظامه اليوم. إذ بات اليوم مهووساً بما يظن أنه يملكه: أصبح الغرض ـ السيد، ولكنه ليس سوى عبد مملوك فَقَدَ توازنه، فَقَدَ رؤيته للعالم، فَقَدَ إدراكه له، وما زال الأحمق سعيداً رغم ذلك! أما أنتم، فأكثر ما يثير فيكم العجب هو أنكم تعرفون كل ذلك بشكل فطري. أعرف أنكم تعرفونه، وأحسّ بذلك. كيف؟ لا آبه لمعرفة كيف أعرف ذلك. أسخر من معرفة كيف تعرفونه. فالأهمّ: أنكم ما زلتم تحملون رائحة الأصول الممسّكة، إذ أشعر بها تلفح أنفي. وما زالت الأرض في عيونكم أيضاً تُعِدُّ بعناية حلمَها الطفولي، حلمَا المستقبلي. مباركٌ من يخبّىء في داخله هذا الحلم، حوض السمك ذاك الذي يحوي الحياة. ولكن ليس من لا يحلم يا إلَهي إلَّا بأغراض تافهة، إلَّا بتحويل الإنسان إلى غرض تافه، ما إن يتمّ تصنيعه حتى يصبح صالحاً للرمي في صندوق القمامة.

أحسست بانفعال مفاجىء يخنقني، ثم ما لبث أن تركني فيما كانت عيناي تغرقان في عيني الليل، عينين مرعبتين لشدة شغفهما، ولقلة استعدادهما للإستيقاظ، ولكنهما مقبلتان حتماً نحو التحرير...

واجهتُ صعوبة في استعادة الكلام، ولم أتوصل سوى إلى التمتمة قائلاً:

ـ أجل باتت الروح جافلة؛ لذا انسحبت اليمامة الجميلة، ذاك الكيان الحي عندما أحسّ بالخطر. أما الإنسان المدلّل فتراه لا يصبو إلّا ليصبح رجلاً آلياً يتمتع بكل ما يرغبه من مواصفات. أطراف وأعضاء يمكن تفكيكها وتبديلها في ما بعد، ورميها لاحقاً: كلّها أمور تدعو إلى الابتهاج وتهنئة النفس. أليس كذلك؟ ولكن العقدة تكمن في احتمال ألّا يستمر الإنسان في تشكيل ضمانة للإنسان، فمن سواه سيضمنه؟ هل عمي الغرب أن يكون أعمى إلى هذا الحدّ حتى يُراهن على مظاهر الراحة عوضاً من المراهنة على إيمانه بنفسه! ولكن العملية ابتدأت للأسف. وفي نهايتها سنصبح مجهزين بأشباه موصلات ومحشوين برقائق إلكترونية، فلن نصلح حينذاك إلّا لتزويد مكوّناتنا بالطاقة اللازمة لعملها. يا رجال العالم الآليين اتحدوا! فالمستقبل يحتاج إلى عونكم. ملك الخلق الجليل المعتَرف به سيصبح الآن ملكاً مضحكاً بعدما بات من الممكن استنساخه بكثرة، ملك الكهوف ذاك الأكثر غباءً بين الملوك. المحلّف المتحمس لعربات النقل الفضائية وزوج الهاتف النقال والإنترنت المخدوع سيحكم على مظاهر خادعة، وبعدما يُصاب بالجنون الآلي سيكون قد نسي أنه خَلَقَ الآلهة وشَيَّدَ الأهرام وأشرف على ولادة المعجزة الاغريقية وأنجب شكسبير وابتكر نظرية النسبية هل أقنعوه بذلك بما يكفي: من الآن فصاعداً ستقوم الآلة بذلك عنه، وبإمكان الصغير أن ينام مطمئن البال. يظن أنه يعرف ماذا يربح جراء ذلك. أما بالنسبة إلى ما يخسره بُخْشي؟

بخشي! لاقت هذه الكلمة نجاحاً جلياً لدى صغاري الأوغاد.

إذ انفجروا مقهقهين جميعاً في الوقت نفسه، وراح الأطفال الصغار يهتفون متنافسين بأسلوب حماسي:

ـ بخشي! بخشي! فليحيَ المتعكّز! مرحَىَ أيها النبي ـ المتعكّز!

وَصَلَ الليل مع ضوئه، فلم يُلقِ أيَّ ظلّ. الليل حاضر بشفافية مفرطة إلى حدّ أنه لا يمكن التميز بينه وبين الغسق الذي لا يلقي كذلك بدوره أيَّ ظلّ، مع أن الساعة تقارب الحادية عشرة ليلاً. وهم هنا يصيحون: بخشي! بخشي! كم قطار قد عَنَّفَ الخندقَ تحت أقدامنا باتجاه أو بآخر، من دون أن يُعيره أيّ منا اهتماماً؟ إني واثق أن أكثر من قطار قد مَرَّ فصبغ الليل بسكب حممه وهزّ الأرض. ولكن أحداً لم يتنبّه له. عندما توجّه موسى إلى اللّه قائلاً: «مَن أنت؟»، أجابه الله من وصف دغله المضطرم وقال: «مَن أنا؟ ما يُمكن أن يكون!».

أسمع صوتي يرتفع منتشراً وصادراً عن ذاته كما لو كان فريداً من نوعه، ناشئاً كذلك مما يمكن أن يكون، مما نتمناه إلّا يكون مجرد ضاحية مبهمة بلهجتها وقذارتها، بل أمراً مغايراً أفضل بقليل من حي معزول منخور ومخدوع:

ـ وها قد وصلتم يا أولاد الضيق إلى عالم يُنتج نفايات أكثر مما ينتج خبزاً للجميع. يتغوط عدداً هائلاً من منتجات تهبط علينا إلى أن نضعها في سكة التصريف. التصريف! إنه هدف زمننا ورمزه وواقعه. التصريف وإرسال كل شيء إلى صندوق القمامة، إلى المجارير العامة. ماذا إذاً؟ هل ينبغي أم لا ينبغي تكنيس تلك الوحول عاجلاً أم آجلاً؟ ومن يُمسك بتلك المكنسة الآن؟ أنتم!

أيديكم تلوّح بعنصر النظافة ذاك. وَلْتُزِلِ الريحُ كل الأوخام، فهذا يتطلب العجلة. الريح والإعصار من أجل التنظيف. هيا يا أبناء العبيد وعمال التنظيفات وملتقطي القذارات وبناتهم! فمن سواكم في عصرنا الجميل سيمحو عن سطح الأرض محاكاةً ساخرة للحياة بلغت هذا الحدّ من الفظاظة والخزي؟ من سيقوم بذلك على نحو أفضل منكم؟ تعرفون ما يُسمى بالجهاد في بلاد صديقكم حسين....

ولكن الصبي حسين قاطعني آنذاك معترضاً:

ـ هذه بلادي! بلا مزاح، ألم أولد في بن فو؟

ـ إهدأ قليلاً. أنت أيضاً لديك تاريخ. لا يسعك فعل شيء حيال ذلك يا بنيّ، ولا يمكنك أن تحوّل أجدادك إلى غانيين. فضلاً عن أنك لن تكسب الكثير في تلك الحال.

وهكذا بعدما هدأ حسين، راح يتذمر بعض الشيء ثم التزم الصمت. غير أن احتجاجه حثني على إنهاء كلامي كالتالي:

ـ هل كنتم تتصورون أن القمح كان ينمو في هذا المكان حولنا منذ زمن غير بعيد؟ نعم؟ ولكن أين أصبحت تلك الحقول التي كانت تؤمّن ما يعطي الحياة للناس على الأرض، ويجعلهم يخلفون الموتى: الخبز والقربان؟ حتى أن الأزهار والأكاليل نفسها قد اختفت هي الأخرى ودُفنت تحت بلاطة إسمنت. يا لهذه العبودية! نفقت خلالها الأرض بكيانها وخيراتها. أما الحجة: فواجب التضحية في سبيل التقدم. حسناً إذاً، فلنرَ ماذا حصل! لقد تقدمت الهمجية مموّهةً بغطاء ذهبي من الثقافة والفن والجمال: فتلك شعارات وحجج لا يمكن تفاديها. ولكن التنكر

المضحك لم يختلق طوال التاريخ أسلحة أشدّ حذقاً وبالتالي أكثر فعالية من تلك التي يستخدمها اليوم ضد الإنسانية. غير أن الدولة الهلينستية الأولى تلاشت ما إن تبيّنت أن أرغفتها الرائعة تقوم على ظهور عبيدها.

ما إن انتهيت من التلفظ بتلك الكلمات الأخيرة حتى سمعت أحد صغاري التافهين يطلق صوتاً يتراوح بين النباح والخوار لأنه يمرّ بمرحلة التغير لاقتراب بلوغه، ويصيح بأعلى صوته فاصلاً ما بين المقاطع اللفظية:

على وجه شعرة!

أيقظ صراخه الآخرين، فانتهزوا الفرصة وراحوا على الفور يكررون وراءه:

على وجه شعرة!

إلّا أني لم أتبين أنه يقصد القول وجهي وليس وجه إلّا في ما بعد؛ يا لهم من أوباش! إذ راح طرزان الصغير كالاتايود المرتكز على ركبتيه يتابع النعيق من مكانه:

على وجهك شعرة!

فانطلق من جديد كل الباقين الجالسين منهم والمتمرغين في الأرض على حدّ سواء:

على وجهك شعرة!

وتابع الزعيم غير الناضج:

على وجهه شعرة!

فكررت الجوقة ثانية:

على وجهه شعرة!

وتماماً كما ثارت العاصفة ووصلت إلى أقصى المعمورة على

الأرجح، عادت وهدأت. فانتظرتُ أن يغلّف السكون الليل قبل أن أُخرج صوتي الجهوري:

ـ حسناً، لا بأس، لا بأس. لـ ـ قد ـ فـ ـ همـ ـ تكم! صدقوني، أشعر في أكثر الأحيان أني أجود في خطابي فيما أنتم تستعدّون بجانبي للموت من الضجر. ولكني أشعر في أكثر الأحيان أيضاً أني أبصق في الهواء فيرتدّ بصاقي إلى وجهي؛ وأني أستخدم فمي تماماً كما يستخدم المرء مؤخرته: أفرّغ منه الهواء. ولا أتخلى عن توهّمي الحالم بأن ما أقوله قد يدخل من إحدى آذانكم من دون أن يخرج من الأخرى؛ وأن معجّنة الكبد والتوابل القائمة داخل رؤوسكم ستستغني عن آرائكم وتسجّل المرسَلة في جميع الأحوال؛ وأنكم ستتعلمون كيف تجابهون بفكر واسع الأفق وعينين مفتوحتين الدولة الهلينستية الجديدة التي تتنشقون هواءها اللطيف ـ تتنشقونه، تتنشقونه فحسب. مَن منكم يذكر ماذا قلتُ قبل قليل عن الدولة الهلينستية الأولى؟

ـ أنا أيها النبي ـ المتعكّز!

ـ أنا أيها النبي ـ المتعكز!

ـ أنا أيها النبي ـ المتعكز!

ـ وقلتُ يا أرانبي أن؟...

حينذاك تقدّم كالاتايود المستعدّ دوماً للمجازفة، وسبق الآخرين بالقول:

ـ إن الدولة الهلينستية الأولى نفقت يوم اكتشف بعض الرجال أن رجالاً آخرين كانوا يجلسون فيها على عبيد!

أخذت رائحة بخور حرّيفة تنتشر منذ بعض الوقت. لا بدّ من

أنّ أحدهم قد أشعل سيجارة حشيش ومررها للآخرين بعدما سحب منها نَفَساً. ولكن لا أحد اليوم يستطيع القيام بأي شيء حيال ذلك. إنما ما أهمية تحشيشهم مقارنةً بتعاطي المخدرات القوية في أحياء الكوكب الراقية؟ فمعي يعرف الأولاد على الأقل أنه لا بدّ من التنبه وعدم الاستسلام للمغالاة.

لذا ارتأيت حينذاك أنه عليّ أن أغيّر الأسطوانة. فرحت أنشد وأغني في آن:

أرادت جلالة اللبوءة أن تعرف لتوّها
من أي دول قامت السماء بخلقها.
فاستدعى الأمير بواسطة المنتدبين
كلَّ تابعيه الطبيعيين،
وأرسل إلى كلّ حدب وصوب
منشوراً مختوماً داخل ثوب
مفاده أن الملك سيترأس طوال شهر كامل
مجلساً عامّاً يتم افتتاحه الشامل
بمأدبة ضخمة تليها في الحين
جولة في حدائق فاغوتين.
وراح الأمير يتفاخر بقوته
متباهياً بتلك البادرة الكريمة أمام رعيته.
وإلى قصر اللوفر دعاها.

ثم لزمت الصمت لبرهة متوقعاً حركات رياء من قبل مستمعيّ. إنما يبدو أن الجلسة كانت لا تزال منعقدة، إذ صرخ أحدهم:

ـ ماذا إذاً أيها النبي ـ المتعكز، هل توقفت أم ماذا؟

لمن خُنَّةُ البط تلك؟ إنه كالاتايود مرةً أخرى. غير أني حاولتُ أن أخدعهم، فقلت:

ـ أبحث عن التتمة.

لا صحة في قولي على الإطلاق. ولكن ها هي الاحتجاجات تعلو من كل حدب وصوب، حتى أن بعضها لم يكن على قدر كبير من التهذيب:

ـ هيّا، لا تتوقف أيها النبي ـ المتعكز!

ـ لا تتصرف كالمغفل، هيا!

ـ كن لبقاً وأكمل!

ماذا لو غرّرت بكل أولئك الأغرار، وجعلتهم ينتظرون؟ مجرد فكرة خطرت لي، ولنرَ بعد ذلك ماذا سيحصل. إنما على حدّ معرفتي بهم، فما الذي لا يقدرون على فعله! سرعان ما تبخرت رائحة القنّب الهندي حتى أنها لم تعد حاضرة في الأجواء إلّا كروح يلويها الحنين. أما أنا، فلم أستطع تمالك نفسي لفترة أطول، إذ لستُ حريصاً لا على نيل معاقبة فظيعة، ولا على إتعاس صغاري. لذا بُحْتُ لهم بالتتمة:

وإلى قصر اللوفر دعاها.\
يا لذاك القصر! ركام من الجثث النتنة\
سرعان ما وصلت رائحتها\
إلى أنوف المدعوين. فسدّ الدب منخريه،\
إنما كان عليه الاستغناء عن مظهره\
وإغاظة الملك بتقطيب وجهه. فالأمير الغاضب أرسله\
عند أفلاطون ليُظهر هناك اشمئزازه كما طاب له.\
توّاً رحّب القرد بتلك الصرامة؛\
وراح لشدة تملّقه يثني كحمامة نائحة\
على غضب الأمير وذاك العرين وتلك الرائحة.\
فما من رائحة عنبر وما من جنس زهر

إلّا ويساوي الثوم بسعره. ولكنّ تملّقه
لم يلاقِ نجاحاً باهراً، بل نال جزاء خرقه.
واتضح أنّ سيادة الملك ذاك، زوج اللبوءة كان من أقارب
كاليغولا.
وبما أنّ الثعلب كان قريباً منه؛ سأله صاحب الجلالة
ماذا تشتمّ أنت! تكلم بصراحة وانسَ المهال
ولكنّ الآخر اعتذر على الفور
مدّعياً أنه مصابٌ بزكام حادّ، ولم يستطع سوى القول إنه لا
يتمتع لذلك بحاسة الشم. وهكذا نجا بجلده ببساطة تامة.

على الفور أنّبني كالاتايود:

ـ تباً، هل توقفت من جديد أيها النبي ـ المتعكز؟

ـ ماذا يصيبك هذا المساء أيها النبي ـ المتعكز؟

هذا الصوت الرنان الثاني يعود إلى حسين إن لم أكن مخطئاً. إنما غطى عليه صوت ديبانغو الأسود الممكن تعرّفه نسبةً إلى نبرته العميقة، نبرة سوداء، كان يتذمر بكل بساطة قائلاً:

ـ آه لا، توقّف مرّة أخرى! هل هذا ممكن يا أمّ الله؟

فقلت له:

ـ نعم، ما من أمر أعظم من ذلك.

ـ أيها النبي ـ المتعكز، إن قصتك المنافية للعقل جميلة رغم كلّ شيء، مع أنها تستخدم لهجة غير مفهومة لم نستوعب نصف ما جاء فيها...

جاء هذا المديح على لسان البنت الشرقية.

ثم عاد كالاتايود ليضرب على أعصابنا بنقيقه المنزلق بين الصوت الخفيض والزائد الحدّة:

ـ ألم يكن تأثير حديقة الحيوانات هو ما هيّج الأسد أيها النبي
ـ المتعكز؟ لقد حدثتنا في المرة السابقة عن تأثير حديقة الحيوانات. وكيف أن كل الأشياء تبدو على أثره كما لو أنها قد رأت أشباحاً.

يا لتلك الأسئلة التي يطرحونها عليّ!

سارعت في القول:

ـ إنه تأثير طبقة الأوزون أيها القرد. تصبح على أثره السماء سوداء للغاية إلى حد أنّ ضوء النهار يعجز بعد ذلك عن الصعود ثانية إلى السكاك حيث وُلد. وإذا حصل ذلك، لن ترى أمامك من حل سوى البحث عن جحر فأر تختبىء فيه.

أعدتُ التفكير وأنا أقدِّم له تلك التفسيرات، فعدلت عن رأيي وسلّمت برأيه:

ـ ربما يكون رأيك صحيحاً على كلِّ حال. ربما يكون تأثير حديقة الحيوانات الذي تحدّثتَ عنه شبيهاً بكل ما تريد.

ـ أرأيت! إن رأسي ليس فارغاً. لا أكتفي بمجرد نفث الدخان من منخريّ لإبهاركم!

يا لفرحته بعد انتصاره في المجادلة! لا أستطيع إلّا أن أكون سعيداً لأجله أنا أيضاً.

بات الليلُ يحدّق فينا من بين المباني المرتفعة بعينيه الغائرتين إلى حد أننا ما عدنا نرى بعضنا البعض بوضوح. وفي تلك الساعة راح الريف المتاخم يحاصر بظلماته المدينة التي خنقت ضوضاءها قربه. فأرهفت سمعي لسكون انحجاب الرؤية المطنب. وحده الطريق العام هو من يحافظ الآن على اضطرابه وسط ورشته

الممتدة إلى اللانهاية البعيدة. أما المدينة وراءنا فَسَكَنَتْ وسط سلامٍ لم يُطلعني على أي جديد.

لا بدّ من أنّ وقت الافتراق قد حان إذاً. وهكذا ابتدأ التشتت بمجموعات صغيرة. فرحل كل اثنين أو ثلاثة معاً، وهم يتبادلون كلاماً مهموساً، إذا حصل أن تحدثوا.

ربما مرّ بعض الوقت على احتدام النزاع وبداية العراك والهجوم؛ وربما مضى على ذلك وقتٌ طويل. ونحن، ماذا كنا نبتكر طوال ذلك الوقت؟ كنا ندع ذاك النبي ـ المتعكز البصاق يخدعنا بقصصه التملّقية. فتسديد الضربات المتتالية هو أمر لا يؤيده. أما الآن فبدأنا نتجه بسرعة نحو المشاجرة الحامية من دون أن نشكّ في ما يحصل. وأخذنا نفرك عيوننا: فالبارود كان يدوّي ولم يكن لنا أي علاقة بالأمر، على عكس صبية المدينة الآخرين، عصابة مومو، جماعة الجيف النتنة تلك. كانت لهم يدٌ في المسألة. فمومو ذاك جيفة حقيقية، أُقسم لك، وكذلك زمرته كلها، وربما تكون على القدر نفسه من النتانة. إلّا أنّهم كانوا متورطين في المسألة ومشتبكين في قتالٍ مع الشرطيين عند مستديرةٍ تدور فيها المعارك في كل مرة، عند النقطة المسماة بمركز الصعاب في بل فو، تلك المدينة الحقيرة إلى حد أنه من المستحسن تسميتها مدينة الدخلاء. والليل بات منكراً واشتد فيه القتال، وراح يقذف في وجهنا الدخان والنار، حتى أنه بدأ يحرق السيارات. وأصبح أشبه بالجحيم، لا سيما عندما يرقص فيه الهالكون إكراماً للأزلي صاحب الحوافر الظلفاء، تماماً كما يصفه لنا الكهنة البائسون.

لم يبق أمامنا سوى أن نقوم على الفور. . بإبعاد الأولاد الذين كنا نجرجرهم خلفنا من مكان إلى آخر، مثل غريلو وزنزيل وباقي عصابة المسوخ ـ ولكنتّ تيكلو رفض الإصغاء إلى المنطق وأراد الصعود نحو النار، وراح يتبعنا كيفما تحركن. إنه صعب وعنيد، ذاك الجرو. وكم يُشكل من تهديد صريح لنا!

نفذنا من وراء الدركيين. إذ كان علينا أن نأخذ احتياطنا ونلتفّ حولهم لنواجههم وننضمّ إلى اللصوص والمبتزّين، جماعة مومو، ونُظهر تعاطفنا مع أولئك الأوغاد. فما أن احتدم القتال حتى سُوِّيَت المسألة، ولكنك لن تتخيل مدى انزعاجنا من تحوّلنا إلى أصدقاء أتباع مومو حينذاك نظراً لكونهم أعداء أعدائنا؛ وإذا أردتم التحدث عن احتدام المعركة، فلقد احتدمت بالفعل. وطالما أنك فقدتَ صوابك بالكامل، لا تستطيع أن تعيَ كيف تتجه رجلاك ولا ما يتآكل أحشاءك ولا ما يخطر في بالك. لا تعي إلّا أنك تلوذ بالفرار. ولا تشعر إلّا بغضب شديد وحقد أعمى يجعلان دمك يغلي، وتحترق بالكليروسين تماماً كتلك السيارات الرديئة التي تبدو وكأنها تحترق بألعاب عيد القديس يوحنا النارية، خصوصاً وأننا نحتفل تحديداً بهذا العيد.

ذهب البعض لجلب ذخائرنا من الكهوف حيث نخفيها تحسباً لما يطرأ في تلك الكهوف من نتانةٍ مصدرُها بول الحيوانات أو أعقاب السجائر القديمة أو الجعة الفائضة على الأرض، إن لم يكن جرذاً ميتاً أو حتى رائحة البهيمة البشرية بما أنه لا خيار لنا في بعض الأحيان سوى الإختباء داخلَها نحن أيضاً. وها هم الأكثر حيويةً وعجلةً يعودون محمّلي الأيدي. يا للفرحة، لدينا كل

ما يلزمنا! صفائح ملأى بالوقود ومفرقعات ومطارق وكلاليب، إضافة إلى حربة وخرق مماسح وبعض مفكات البراغي. لم يبق أمام تلك السيارات الضخمة من خيار حينذاك سوى المكوث في أمكنتها. فإذا بقيت اثنتان أو ثلاث منها لم تنشِ بعد، فما عليها سوى انتظار دورها الآتي بالتتابع. ضربةُ كلّاب من هنا ومفكّ براغٍ من هناك تُطيحان بغطاء الخزان، فتُقحم في فمه فتيل ممسحتك المبللة بالوقود بعدما تكون قد تنبّهت لإشعاله، وإلّا لا تكون سوى امرىء بليد. ثم تندفع راكضاً بأقصى سرعتك: فنتيجةُ فعلتك تأتي بسرعة البرق، حتى أن السيارة تظنّ نفسها مُذَنَّباً وتحجب لك نور عينيك. كما أن الأسر نفسها بدأت بالخروج من المباني، الرجال بثياب نومهم وشعرهم الطويل المتطاير ترافقهم نساؤهم برؤوسهنّ المحشوة بالملاقط. وكأنها حفلة الرابع عشر من تموز/ يوليو! فتنعم بالنظر بطرف عينك إلى صدورٍ قد أغنتها صاحباتها كلّ أكثر من جارتها، ورحن الآن يمزجن الهواء فيها بالبنزين المشتعل بالقرب منهنّ.

حتى ولو نفدت منك الخرق، فأنت لا زلت تملك مفرقعات، أليس كذلك؟ ما عليك سوى إشعالها ورميها في فتحة التهوية. ولكن إذا حصل أن نفدت منك الخرق أو المفرقعات، فما زال لديك كتلةٌ في يدك، لا؟ تكسر بها واقيةَ الريح وترشّ الداخل بالبنزين الممتاز، وبعود ثقاب واحد تُنجز ما عليك فعله. وإذا نسيت بعد ذلك استخدام ساقيك ستحرق بالتأكيد شعر ذراعك الرافعة.

إن الاهتزاز النبضي يولّد لديك إثارة بركانية غير معقولة بحق

الله. وحين يبدأ الأرنب الذي تحوّلت إليه بالهجوم على الصيادين، تقتفي أثر الشرطيين. ثم يحين دورهم. ولا يكون الأمر أقلّ روعة في تلك الحال. ولكن هيهات أن يضعوا أيديهم علينا. إذ راحت الأُخَيَّاتُ يُفْشِيْنَ لنا المعلومات من الشرفات بواسطة هواتفهنّ النقالة؛ لا بدّ لنا من إعادة الاتصال بهنّ. والويل للدركيين إذا ظنوا أنهم سيمسكون بنا. فنحن نعلم مسبقاً من أين يصوّبون. ومع أنهم يهاجموننا بقوّة، إلّا أننا سرعان ما نصبح بعيدين عنهم يفصل بيننا عدد كبير من سراديب مضمة. لكن على ثقة أننا نعرفها كلها كجيوبنا أو ربما كجيوب زبون غني. لقد أصبحوا على وشك الإصابة بزكام سيستمرّ لعشر سنوات متواصلة لمكوثهم في انتظارنا وسط مجاري الهواء: لكننا نباغتهم دوماً من حيث لا يتوقعون ظهورنا، فنبرز أمامهم بسرعة لنوقعهم في الفخ ونقذف عليهم من جديد مفرقعات ومسامير كبيرة وحجارةً تكسر لهم زجاجهم الواقي، ونثير بذلك حفيظتهم.

راحت الدواليب المشوية بفعل الحرارة تنفجر معاً بأعداد هائلة؛ نستطيع سماعها. كما تفوح في الهواء رائحة الصمغ الذائب. ولكن ما همنا إن اختنقت بل فو، فالقتال دائر. والأمر بالنسبة إلينا أشبه بمهمّة، بحرب بقاء. كيف عبر النبي ـ المتعكز عن ذلك؟ قال: «كل الأنظمة تفشل. فالمدن تصبح كبيرة جدّاً، أكبر من الناس ومن دمى السلطة التي تتدخل في إدارتها. لم تعد سوى آبار هستيرية لا يحيط بها شيء».

إلّا أنّه أضاف رغم ذلك: «ولكنّ عالماً جديداً يقوم اليوم على أساس الاعتراف بالأخ المفقود». وهذا يلائمنا تماماً، نحن صبية

مدينة الدخلاء، ربما بدرجة أقلّ من البلبلة والتحريض، ولكنّه مع ذلك يلائمنا. ونحب كذلك أولئك الدركيين الأنذال، إنما ليس إلى حدّ مبادلتهم القبل. فهم لا يتصرفون بلباقة ـ ونحن أيضاً نحذو حذوهم! غير أننا نلهو معهم كثيراً، أُقسم بشرفي.

منذ متى والمعركة دائرة بشكل مستمرّ؟ منذ وقت طويل كيوم الأجر، منذ رأونا ننزل باتجاههم، وأخذوا يصرخون: «يصل غيرهم! الأنذال الصغار! إقبضوا عليهم! من هنا! من هنا!». أما نحن فتوقّفنا على مسافة منهم لنتساءل عما يحصل وعما ينبغي فعله في خلال ثانيتين فحسب، ثانيتين تلزمانك قبل خوض الحرب، قبل هجومك على أولئك الخالات بكل قوتك. وبما أن المصارعة قد بدأت ولم يتمّ إبلاغك بذلك، تتقيّأ غضبك لتَفَاجُئِكَ، تتقيأ أقذر شتائمك.

وكما لو أن الوقت لم يمرّ ولم يتحرك، لم تتوقّف جدران اللهيب والدخان عن التصاعد والضياع وسط مرحاض الليل، وسط مفرّغ قذاراتِ ليلةٍ يضمّها في الوقت الحالي حريقٌ ملتهبٌ بين ذراعيه. أعيد تذكيركم بمعلومة أفشيتُ بها منذ بعض الوقت ومفادُها أننا شكّلنا جبهةً واحدة مع عصابة مومو من دون مناقشة ومن دون البحث في هوّياتنا. ومع أن الوقت لم يمضِ، بقينا نشيطين كثيرانٍ تنبّهت لِعجلة في الزاوية. فسنشنّ غارة على أولئك الشرطيين ونرتكب الفظائع بحقهم، وسنرى كم سيبلغ عدد العُرج الذين سينهضون بعد سقوطهم.

لا بدّ أنكم قد استهلكتم قصةً مماثلة مرّات عديدة على التلفاز، ولن يلزمكم رسمٌ لتوضيح المسألة. إذ نقف نحن الفاسدون من

جهة ونتبادل الضربات مع الحشرات قبالتنا، حشرات خرجت منتصبة من الحديقة الجوراسية بهيئاتها الضخمة داخل قوقعاتها. هم يركضون غير مدركين ما يفعلون ونحن نضرم النار. إنما نحن لا نستخدم سوى عيدان الثقاب فيما هم يوسّخون المنظر بآلاتهم. وماذا يحاولون جاهدين أن يثبتوا بوسخة محدثة؟ إنهم يحمون تلك العربات الرديئة البائسة العائدة إلى زمن غابر؟ ولكن ها هي الآن تقوم مقام مواقد الجمر. أو قبعة الأب بوجره التي عثرتم عليها لدى لمّامي الخِرق حيث يتم التخلّص من كل القذارات الرثّة؟ أو نوم سكان المنطقة العميق، تلك الجياد الرديئة الخرقاء المستنفِدة كل وسائلها؟

يا لفرحتنا! وبئس أولئك الشرطيين، فهم لم يتوقفوا عن الركض وراءنا علماً أنهم ما عادوا في سنّ الثانية عشرة ولا الخامسة عشرة ولا حتى العشرين، ونحن لا نُطلق عليهم سوى عيدان الثقاب. فإذا اقتضت الحاجة، ستسقط على رؤوسهم نيران بنغال كباقات أزهار، ونقوم بعرض مؤخّراتنا الصغيرة أمام أولئك المغرورين.

إنحنى الرجل السمين والقصير والعريض المنكبين بشعره الكثّ العصيّ المنسوج ببعض الخيوط الفضية فوق ملفّ راح يقلب في ذلك الحين صفحاته الثلاث مرةً بعد أخرى وهو يمطّ شفتيه شعوراً منه بملل عظيم، وكأنه مذهول بهزل ذاك الملفّ التافه، إلّا أنه لم يكن يسمح لنفسه إلّا بهزّ رأسه بعض الشيء. وباستثناء التنحنح من وقت لآخر بشكل منتظم، لم يسمح لنفسه إلّا بهزات الرأس

القصيرة تلك، فما من شك بأن شكل شفتيه مقولب ضمن هيئته على هذا النحو منذ الولادة.

فراح تيكلو الواقف أمام مكتبٍ يصل إلى نصف صدره يتساءل في نفسه: «تباً له، أهذا هو شكل قاضٍ؟ إنها بداية سيئة. لا يبدو متساهلاً أبداً».

وإذا ترك مقعده واستقرّ عند قدميه، قد يتحول إلى كونان الهمجيّ، ذاك المتوحّش. إلّا أنّ قوة الطبيعة لم تدفعه سوى إلى رفع رأسه ورَزْنِ تيكلو بنظره. فاضطرب الولد وراح يتساءل: «ماذا يحمل تحت نظارتيه السميكتين، بيضتين مقليتين أم ماذا؟».

ثم بدأ يقرأ إحدى تلك الورقات بصوت... بصوت مهذب للغاية إلى حد أنّ الأذنين تستغرقان بعض الوقت لإدراك ما يحصل:

ـ جان ـ لوي باند...

ـ توقف! توقف يا صاح! إنك مخدوع تماماً، ليس بشخصي، إنما بإسمي، فأصدقائي لا يدعونني سوى تيكلو. موافق؟

هكذا قاطع الولد كونان. فأجابه كونان:

ـ إجلس.

وأشار بذقنه إلى المقعد المكسوّ بالجلد الأخضر والمتأهّب مقابل المكتب.

فرفع تيكلو نفسه ورجع القهقرى ليجلس على المقعد الضخم. ومع أنه وجد مكاناً ينتصب عليه، تشبّث بغرابة بالمسندين ولم يَبْدُ مرتاحاً لوضعه.

ـ أصدقائي هم عائلتي الفعلية، إذا فهمتَ ما أقصده يا صاح.

ـ يا سيدي القاضي.

بما أنّ ذهنه كان مأخوذاً بسخافات شتى تسيطر على تفكيره، كرر الطفل على نحو آليّ:

ـ يا سيدي القاضي يا صاح.

واستطاع في النهاية أن يستملك المقعد ويستريح في جلوسه. ولكنه بالكاد تمكّن من احتلال ثلث نصف قعر مؤخرته لشدة نحافته وشحوبه وفتوّته وعجزه.

وأخذ يُصغي إلى القاضي الذي تابع القراءة:

ـ إحدى عشرة سنة.

وجّه ذلك القاضي من جديد نظارتيه المدمجتين بعدة أجزاء نحو تيكلو، ثم أصدر القرار التالي، بعد تأمّل:

ـ لا تبدو بهذا السن.

فراح تيكلو يضرب صدغه بسبّابته قائلاً:

ـ قد لا أبدو بهذا السن، ولكنك لا تعلم ماذا يوجد في الداخل يا صاح.

ـ يا سيدي القاضي.

ـ يا سيدي القاضي يا صاح.

فما كان من الرجل ذي النظرة المستحيل تحديدها إلّا أن أستعلم:

ـ ماذا يوجد في الداخل إذا كان من الصعب تحديده؟

ـ تفكير، أو ما قد تسميه فهماً يا صاح.

ـ يا سيدي القاضي.

ـ حسناً، حسناً، لستُ أصمّاً. يا سيدي القاضي يا صاح.

إنقضى ربع ساعة ثم نصف ساعة ثم ثلاثة أرباع الساعة على هذا المنوال. ومكث الاثنان في مكانيهما، الرجل والولد المحرومان من إدراكهما للوقت، السيد الجدي الصامت بشفته السفلى الضخمة المتدلية، والصبي المتعاطي خليطاً كلامياً، مستعيناً بشكل غير منتظم بالجدية وبالمزاح المبتذل.

ـ أنت تملك كل ما ترغب فيه يا صاح، إعترف بذلك. المال والمنزل حيث لا ينقصك حتى جهاز التحكم بالتلفاز عن بعد. ويحميك الشرطيون. تأكل كل ما تشتهيه، يكفينا أن ننظر إلى البطن الذي ابتعته. ستحتاج عاجلاً أم آجلاً إلى نقّالة لتحمله معك.

حينذاك أصدر تيكلو من أنفه ضرباً من الضحك الهازىء، وتابع:

ـ أليس صحيحاً؟ ومع ذلك، فأنت من يأتي ليشرح لنا نحن الآخرين ممن لا يملكون شيئاً، لا عملاً ولا طعاماً، ولا حتى حجرة كلب ننام فيها أحياناً. تأتي لتوبخنا: عليكم أن تفتحوا عيونكم أيها الصغار، عليكم أن تتنبّهوا إلى أنّ السن بانتظاركم. وأنتم القضاة ترون في ذلك عدلاً يا صاح.

ـ يا سيدي القاضي.

ـ يا سيدي القاضي. حسناً، حسناً يا صاح. لا تغضب.

ـ وما هذا الذي يحصل حالياً؟ أهي الحرب؟

؛ـ إذا أردت. إنها الحرب المقدسة. أنا أخوض الجهاد.

ـ كيف ذلك، الجهاد! الجهاد ليس من اختصاصك. إنه يصلح للمَغَاربة والعرب. أما أنت ففرنسيّ.

ـ قد أكون فرنسياً، ولكن لا مصلحة لي في معرفة ذلك. عربياً أم من أي جنسية كنت، أنا لا أشعر أني أفضل منهم، ولا أعيش بشكل أفضل منهم، لذا أخوض الحرب المقدسة معهم جميعاً.

ـ ضدّ من؟

ـ ضد كل أصحاب الخزنات، كل أشكال الأنذال الذين يملأون جيوبهم ويُعَسْكِرون حراساً ليليين في كل مكان. ويسخرون من القضاة؛ ضد كل من يهزأون بنا جميعاً.

سكت تيكلو بعدما زمّ شفتيه، ولكن عينيه تابعتا الكلام، وكأني بهما تُصدران صفيراً من داخل قشة مجوّفة.

فاستعلم القاضي قائلاً:

ـ وماذا بعد ذلك؟ عندما تكونون قد انتهيتم من مهمتكم؟ ماذا ستفعلون يا صاح؟

ـ بعد ذلك، النبي يعرف ماذا سيلي، سيضع الأمور في نصابها كما يجدر بها أن تكون. وسيرى كل مغفّل يرجع ماذا سيحلّ به!

ـ ونبيك، ما اسمه؟ محمد؟

ـ لا بدّ من أنك تمزح، أنت مغفّل تماماً كالآخرين. إنه النبي المتعكز. هو يعرف.

ـ يمكننا التحدث إليه؟ أين يمكننا أن نجده؟

ـ لا يمكن لأحد أن يراه. فإذا رآه الناس، سَيُخبرون عنه في ما بعد. وهذا لن يحصل يوماً. فنحن لم نبلغ هذا القدر من البلاهة بعد. أنتم المغفّلون يا صاح، سترحلون جميعاً يوماً ما.

ـ لأنكم ستستمرون في أفعالكم الغبية.

ـ أما أنا، فعندما أرحل من الكهف حيث أنام وأتغوط، أظن

أنه لن يبقى أمامك من خيار أفضل من الرحيل أيضاً. ضعني في السجن وسترى بأي حال سيصبح بفضل أفعالي الغبية.

ـ أفعال صوص منتوف الريش مثلك؟

ـ أجل، هذا لأنك لم تكترث لرؤية ما إذا كنتُ صوصاً منتوف الريش. ولكن لا خيار أمامي سوى أن أكون الصوص الذي تتحدث عنه إذا كنت ستجلس على مؤخرتك بهذه الطريقة. إذ يبدو أنك حين تضع مؤخرتك تلك على هذا المقعد، تصبح عاجزاً عن نزعها عنه. إنما إعلم أني في بعض الأحيان لا ألتهم سوى الهواء الذي أتنشقه لأنه مجاني. أكنتَ تعلم ذلك؟ بالطبع لا، فأنت لا تهتمّ للحصول على عرائس النيل ما دمتَ حاصلاً على كل ما ترغب فيه من فضلات المائدة، من دون أن ننسى التحلية. أَقْسِمْ أنّ هذا هو الواقع.

وهكذا انقضى ربع ساعة آخر ونصف ساعة آخر وثلاثة أرباع ساعة أخرى. وبقي القاضي والولد ماكثين في مكانيهما ـ وبدأت تفوح رائحة فحل الماعز في الغرفة ـ وهما لا يزالان محرومَين من إدراكهما للوقت، الرجل يسترجع بهيئته المشمئزة الأوراق الثلاث المضروبة على الآلة الكاتبة ثم يتركها، والصبي يتظاهر في بعض الأحيان بأنه يقذف نفسه من مجثمه وكأنه يريد الطيران وسط الريش، ولكنه يعود ويتشبث بمسندَي مقعده اللذين يشكلان ساعدَين متوازيَين ويشغّل فمه الثرثار إلى أن يفقد صوته، فيقول مازحاً بالتهكم المعروف لدى أهل الضاحية:

ـ لديك كل شيء، القانون والباقي. ونحن الآخرون لا نملك شيئاً، لذا فما من قانون يتحكّم بنا. لا نملك سوى عوائق

مزعجة، فضلاً عن قانونك البائس في حال أتى ليرانا في مناسبات معيّنة أو ليتغوّط على رؤوسنا لأننا لسنا سوى مُضربين أنذال غير مثقفين وغير مؤدبين وغير مهمين ولا نتمتع بروح الجند المناسب. ماذا يا صاح؟ لقد أربكك كل ذلك!

إنتظر الرجل التتمة بعينين وكأني بهما غارقتان داخل حساء من الزجاج. ولكنّ أحدهم قام بقرع الباب بشكل مفاجىء. فغصّ تيكلو بحازوقته وهو يثب وثبة كانت سترسله إلى السقف لو لم يتمسك بمقعده.

إستدار القاضي نحو الباب. بهيئته نفسها الضجرة والكئيبة والجسورة.

ـ نعم؟

دخل مدافع أو شخص من هذا المقام مرتدياً الثياب الملائمة لوظيفة مماثلة. يبدو أنّ القاضي يعرفه، إذ صوّب بندقيتَيه باتجاهه.

ومن دون أن يحيي تيكلو أو ينظر إليه، ولا يهمّ إن فعل، قال الأحمق الاختصاصي بادّعاء المزاح:

ـ هل تخلّصتم من هذه الحشرة الطفيلية أيها القاضي؟

ـ ماذا يجري؟

ـ أتذكرون فتى السوء الذي أطلق عليه رجلٌ من بل فو عياراً نارياً من نافذته. لم يتحمل الضربة الصغير المسكين. مات لدى وصوله إلى المستشفى.

فتنهّد القاضي مطلقاً زفيراً وقال:

ـ آه.

ـ هل علينا أن نرسله إلى المرسال؟ أم ماذا؟

ـ يمكنك أن ترجع إلى بيتك يا جان ـ لوي. إذهب يا بني.

راح تيكلو يتساءل إلى من توجه القاضي بكلامه وشعر أنه يجلس على أداة تعذيب. ثم أدرك ما حصل: «إليك أيها الرأس الفارغ». وانفعل مفكراً: لقد استغرقه قول ذلك وقتاً طويلاً!

ـ شكراً يا سيدي القاضي.

وانسحب بسرعة من دون تأخير كالأرنب الوثاب.

حسناً، لقد تمّ تنظيف مدينة بل فو أولاً من هياكل سياراتها بعدما أسلمت الروح بسبب النار وليس لأي سبب آخر، ومع ذلك فالنتيجة جاءت ساحقة، واستلزم الأمر أسطولاً كبيراً من سيارات الشحن لرفع ركام الأنقاض؛ ثم جرى تنظيفها من كل ما تركه الحريق من قذارات مبعثرة في كل مكان بعد كلّ ما حصل من صخب في تلك الليلة. وهكذا إذاً تمت تعبئة البازار الكبير داخل ألواح خشبية قد تظنها تابوتاً والبازارَ الكبير في داخلها الجثة. ولكن إذا تصورتَ أن التخلص من أوساخ مزبلة سيجعلها مكاناً أنظف ويحولها إلى بهجة للعيون أشبه بمنتزه فرساي، فلا بدَّ لي من أن أسخر منك. ولتسقط اللعنة عليّ لو أحدث التنظيف أي فارق يُذكر. فبل فو لا تزال ما كانت عليه من مزبلة؛ وستبقى كذلك في الغد وبعد غد أيضاً. ستبقى هي نفسها وسط بؤسها وقذارتها، حتى أنها تبدو الآن كالبلوعة أكثر من أي وقت مضى، لا بل أشبه بالشحّاذة! ويُشعرك مظهرها بالاكتئاب. ولكن المشهد بعيد عن الاكتمال. وبإمكانك دائماً أن تعثر على جزء أكثر حزناً.

إذ يبدو كما لو أنّ الحريق قد اجتازه من طرف إلى آخر. فأبنيتها نفسها تبدو محروقة وتفوح منها رائحة الاحتراق.

إلّا أن المشهد يختلف إذا نظرت من جهة ساحة جان ـ جوريس حيث تمّ رفع ضريح لذكرى كلاتيود الصغير. فهذا الأخير قد أصابته قذيفة في رأسه ألقته صريعاً قبل أن يتمكن من التأفف، وهكذا غاب عن الوجود؛ غير أن صورته حاضرة بحجمها الكبير تحيط بها كميات كبيرة من الزهور. لا بل كميات هائلة منها. وفي ما يتعلق بالنظافة، فالركن نظيف وكل منا قدّم له زهرة عن نفسه. حتى أن من لا يجدون ما يأكلونه كانوا في الطليعة بعدما سرقوا الزهور من الحدائق العامة كجزء من واجبهم. واستمرّ عدد كبير من الناس بتقديم الزهور. إلّا أن ذلك أمر طبيعي نقوم به من أجل فتانا ومن أجلنا نحن أيضاً، أهل بل فو، لأنهم يقتلوننا بهذه البساطة، يقتلوننا كلما نزل إلى الشارع واحد منا. باتت جبال من الزهور تحيط بها، وإذا وقعتَ عليها من دون أن تعرف ما الداعي إليها، ستتلوى من الضحك وتقول في سرّك: «عجباً، عشنا لنرى! سوق أزهار في بل فو». ثم تلمح الصورة وتلمحك بدورها بشكل تلقائي. بِمَ تراه يفكر ذاك الفتى صاحب الصورة، لا أحد يعلم. لا أحد يعلم بما يفكر بوجهه الصامت، مع أنّ لسانه كان مسنوناً جدّاً في السابق. ولكنّ حقيراً من بين حقيري العالم الكثر، نذلاً جباناً أخرج بندقيته الرديئة وراح يقنص على الناس من شرفته. وتحمّل صبيتنا الضربات.

حضر القاتل شخصياً ليثرثر في ما بعد ويُخبر كيف أنّ الصبي

كان سيُشعل سيارته وأن ما من سبيل آخر للتصرف مع اللقطاء الفرنسيين ممّن ليسوا سوى عرب. ومع أنه فهم أنّ رجلاً يصوّب نحوه فوهة بندقية: إلَّا أنّه كان ليُضرم النار لأنه يدافع عن مصلحته. فما من وسيلة أخرى تنفع مع اللصوص الأشرار. لا برهان لديه؟ ولكنهم جميعاً لصوص في هذه المنطقة، وهذا واحد منهم! الكل يعلم لمن يصوّت وكم يتباهى بذلك. لقد أوقفته الشرطة القضائية: ماذا تراهم سيفعلون به؟ ماذا لو عاد سريعاً ذاك المتقاعد؟ عليه توخّي الحذر في تلك الحال.

كان تيكلو يتسكع هناك، واثقاً من أنه سيلتقي ببعض رفاقه في تلك الأنحاء. كان يعتمد على تلك الفكرة وهو يتمشى هناك. ولكن من هو صاحب تلك البنية المتينة الذي راح ينظر إليه من الأفق؟ يستطيع أن يُقسم بأنّ رجلاً يوجّه صلبه نحوه: هو تيكلو من بل فو. ماذا لو كان ذاك صلب كونان؟ ماذا لو كان الهمجي قد جاء إلى المدينة؟ لا، إن عينيك تراوغان وتخدعانك يا تيكلو، أنت ترى ما تريدان أن ترياه. ولكن أُقسم بأنه كونان! هو نفسه وبذاته! ولكنه ليس أكثر أناقةً من كتّاب حانة لا يقصدها إلَّا العاطلون عن العمل والمتنقلون بين البطالة والأشغال التافهة، حتى أنّ ماكراً حفر فوق بابها عبارةً تجرّح بالوكالة الوطنية للاستخدام.

أثناء الاستجواب في ذلك اليوم، لم يكفّ عن جعل تيكلو يكرّر وراءه: «يا سيدي القاضي»، فيما أنه كان من الجلي أنه هو السيد القاضي بجلوسه على مكتبه. وهو الآن هنا! جاء بنفسه ليتلاشى في هذا المكان المغلق حيث لا يخاطر الناس العاديون بوضع أقدامهم داخله، فكيف بالأحرى القضاة. كان تيكلو يجيبه:

يا سيدي القاضي يا صاح! حسناً. لقد فهمت. أما الآن فيسير بمفرده في المدينة بهدوء تام. ألا يبدو ذلك جيداً؟

لم يعد بإمكانه أن يتمالك نفسه. فرح يركض ويتبع كونان وقلبه يخفق داخل صدره.

وما إن أصبح قربه حتى أخذ بيده بالقوة. ورفع تمث اليد الضخمة في الهواء. فأمسك بها ولم يُفلتها.

ـ ماذا يا صاح، أنت في مدينتنا الفوضوية؟ من كان ليصدّق!

ـ يا سيدي القاضي.

ـ حسناً. يا سيدي القاضي يا صاح.

وانطلقا يتابعان مسيرهما في الاتجاه نفسه حيث بقيت الحواجز نفسها والأبنية المرتفعة تحجب الرؤية، إلَّا أنها كانت مزينة بالأغطية والقمصان وثياب الأطفال الداخلية، كما لو كان الاحتفال بالرابع عشر من تموز/ يوليو سارياً في تلك الأنحاء طوال السنة. وسرعان ما جرّ الولدُ الراشدَ وراءه.

ـ أنظر إلى المكان حيث نسكن نحن الآخرون. ألّا تشعر بالخجل إن كنت تعيش هنا؟ ولكن لا أحد هنا يعرف الخجل. فالكل إخوة في الخجل من حيثما أتوا، من أميركا أو من مدام غشقر...

ـ مدغشقر.

ـ لا بأس يا صاح، من مد... كما قلت. ولكن ذلك لا يحول دون أن تكون متساوياً مع الآخرين ما إن تطأ قدمك بل فو.

ـ تبدو بعض الأبنية وكأنه أعتيد طلاؤها مؤخراً.

ـ وإلى جانبها تجد أبنية أخرى مغطاة بنقوش جميلة، لا؟ أتعرف ماذا. . .

توقف تيكلو عن النظر إلى القاضي بطرف عينه ووجّه نظره إلى مكان آخر قائلاً:

ـ إنّ الموسى العجوز في بل فو المسماة الخالعة ملابسها الداخلية: هي تماماً كتلك الطوابق عندما تلطّخ وجهها بمساحيق التجميل وتخرج لتقوم بجولتها في الحي. عليك أن ترى ملابسها أيضاً، فهي جديرة بأن تُلقي نظرة عليها. وإذا كان من ذَهَبٍ يغضيه، فهو لا يتمثّل بالخردة التي تعلقها في عنقها أو تضعها على ذراعيها أو تزيّن بها أذنيها، بل بالفستان الشمسيّ الباهت المنساب على جسمها. لا بأس به لارتدائه في المساء؟ وتزيد تألّقها بفضل تنورة رقص داخلية تلبسها فوقه، حتى أني سألتها مرةً ما إذا كانت بيت عنكبوت! فأجابتني: «إنها تول يا صبي».

ـ إنه تول.

ـ أنت تعرف كل شيء يا صاح، وإذا كان ذلك في سبيل المفاخرة، فلا بأس! ولكن أوّلاً انتظر حتى تعلم كيف أنها تُشمّر عن ذلك الفستان وتلك التنورة الداخلية أمام الرجال، فيُصابون بالذعر ويبدأون بالركض. عليك أن ترى ذلك. لا يستطيع أيٌّ من أولئك البله أن يتمالك نفسه. فما تريهم إياه يرعبهم إلى حدّ أنهم يصبحون مستعدين للاحتماء بشيطان الجحيم.

فتمتم القاضي قائلاً:

ـ أصل العالم.

ـ بماذا تفضلتَ يا صاح؟

ـ لا، لا شيء.

ـ لن أكون أنا من سيذهب معه. يمكنك التأكد من ذلك. المعلم قال لنا إنّ بعض الناس يُسمون أنفسهم بخلعين ملابسهم الداخلية ويفتخرون بذلك. أهي إشاعة؟

ـ على الإطلاق. حصل ذلك أيام الثورة.

إطلاقاً إنما بقيت ثاقبة ومرتابة وقاتمة كما كانت على الدوام كان شخصاً يعرف نفسه مهزوماً من البداية ولكنه لا يبتغي سلاحه. بل يسعى لإنقاذ وضعه البائس في الحياة. أظن أن اسمه كان فرانسوا. ولكن أحداً لم يكن يتذكر إسمه.

يا لفظاعة الموت! ولكن هل كانت حياة الكلاب أفضل منها؟ غير أنك لم تكن لا كلباً ضائعاً ولا وحيداً يا فرانسوا. ولستَ وحيداً حيثما مضيت. فمعك الإخوة كلهم. إذا أردت أن تحيا، فهكذا ستكون حياتك. وإذا حاولت أن تقول لي العكس، فأنت لا تنطق سوى أكاذيب. إنهم هنا، الأصدقاء، إذا أردتَ أن تنظر من حولك، إنهم كلهم هنا.

إنهم يسهرون بجانبك وليسوا مستعدين لمبارحة مكانهم، أولئك الفتية.

رفع تيكلو نظره إلى القاضي وقال له:

إرتاب تيكلو في الأمر، فراح يهزّ رأسه كما رأى القاضي يفعل وهو يمطّ شفتيه.

ونسي يده في يد الرجل وراحا يمشيان ويتحدثان بكل بساطة. وما كان على مدينة بل فو سوى أن تذهب إلى الجحيم. فحتى لو كان هذا السيد الوقور يتعامل مع الشرطة؟ وماذا بعد؟ فتيكلو لم يُحسَّ نفسه يوماً ـ كيف؟ ـ بهذه الراحة وبهذه المعنوياتُ المرتفعة

والمحلّقة عالياً حتى أنه كان عليه أن يبتلع ريقه في بعض الأحيان ليتمكن من التنفس.

وراح يرفرف كحشرة مؤذية إلى أن توصّل في النهاية إلى إيصال كونان عند الصورة. كل ما تبقى من كالاتايود، صبيّ لم ترم له حياته الضعيفة يوماً هذا القدر من الورود، حتى أن ساحة جان ـ جوريس باتت تسبح وسطها.

أجل!... إنه كله في داخلها، بوجهه نفسه الذي لم تُملّسه لمسات المصوّر. ولكنّ نظرته هي ما بقي بشكل خاص على حاله. يعتريه الحزن نفسه، لم تتغيّر.

ـ هي يا صاح، سأرافقك إلى عربتك. أين هي؟

ـ لقد ستقليت الحافلة حتى آتي إلى هنا.

ـ تريدني أن أصدق ذلك...

ـ وسأرجع بالحافلة. لا أملك سيارة.

ـ أحسنتَ يا سيدي القاضي! فلنتقدم حتى موقف الحافلات! لقد رأيتَ على الأقل كل ما يمكن رؤيته. كيف وجدت منطقتنا؟

ـ مؤكّد يا صاح.

إنهم مجتمعون من جديد حول النبي ـ المتعكز. وما زال مكان الالتقاء هو الميدان الواسع نفسه على حدود الأرض البائرة المشرف عمودياً على سكتَين حديديتين من على ارتفاع عشرين متراً. وكانوا في الصباح الباكر قد رافقوا جثة كالاتايود حتى المقبرة.

وبعدما تركوه هناك، ذهب كل واحد من جهته.

العاقبة المحتّمة

ها هي شجرة التين تُلقي بظلالها في الصحراء. فترتسم بشكل جانبي وكأني بها تفتح مجموعة أيديها عند أطراف القدر نفسه من السواعد الموصولة ببعضها البعض.

سأقوم برفع إشاراتي عند الأفق.

لا يزال الضوء شاحباً أوّل ولادته. ولكنّ هذا الضوء نفسه سيتحول شيئاً فشيئاً إلى حمّى هادرة.

والهواء يُسمع صوتاً خافتاً؛ والصوت يمتد إلى ما لا نهاية.

ولا أثر لأي أقدام على الأرض، ولا لأي علامات أخرى تترك ختمها في الرمل.

وشجرة التين تلقي بظلالها بعيداً في السماء.

هل قامت الصحراء بما يؤهلها لاستحقاقها؟ أهو حلم يزور الصحراء؟ أقصد وجودها في هذا المكان.

في هذا المكان حيث لا تصل أي طريق ـ ومن أين قد تصله أي طريق يا ترى؟ في هذا المكان الذي لا تنطلق منه ولا حتى طريق صغيرة واحدة ـ فإلى أين عساها تؤدي؟

أما الهواء فيمضي في طريقه. يمضي ولا يفكّر في العودة إلى الوراء على الإطلاق.

وماذا لو كانت الصحراء قد شقّت صدرها، فأنتجت شجرة التين؟

سأقوم برفع إشاراتي عند الأفق.

ولكن من يقبع هنا ولا يكفّ عن القول: سأقوم برفع إشاراتي عند الأفق؟ ولكن مَن؟ أهو السكون المتألّق؟

هذا السكون الذي أيقظه: سكون وحشي.

وبعد مرور دقيقة، أخذ عبد يُزلّ قدمه في النوم من جديد، وهو ممدّد على ظهره.

لم يَعِ ذلك تماماً، ولكنه أحسّ بنفسه يستسلم وهو يُرهف سمعه ويصغي.

ثم ما لبث أن استعاد حواسّه، وشبك يديه تحت رأسه. وراح يُصغي فاتحاً عينيه في الظلمة. أخذ يُصغي.

ثم نسي أن يُصغي، إنما ظلّ مستيقظاً.

كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت تتسلّل من تحت الباب، فتعكّر سواد القطران، وتنتهي بالذوبان فيه والتخفيف من حدته. ولم يكن عبد يسمع إلَّا صوت التنفس الهادئ الصادر عن زوجته النائمة إلى جانبه، وعن ولديه الأبعد منه بقليل. وكان الأربعة مصطفين في خط واحد على مستوى الأرض على محشى مؤلف من حصائر قصب وفُرش قاسية بقساوة ضَمِية الشعير. والمرأة مستديرة باتجاه الصغيرين: ينامون مغمورين جميعاً بضبابة دفء شهوانية.

ألّا يَبْلُغَهُمْ أيُ صوتٍ من الواحة بأسرها أمرٌ يمكن فهمه: فالوقت لا يزال مبكراً.

غير أنّ عبد كان مصاباً بالحيرة. فأفرط في التنبه إلى الفراغ. وراح يُصغي إلى البعيد كما لو كان قد ترك بإصغائه بلده ليهاجر منه إلى بلد أجنبي. حتى أنه رأى نفسه يقف ويتجه نحو الباب ويفتحه ليدع إشراق الصباح يشق الغرفة كما لو كان فأساً قاطعةً، فيما كانت مهدية والصبيّان ينقلبون متنهدين في نومهم، والصبيّان مختفيان تحت الأغطية من رأسيهما حتى أخمص أقدامهما. فراح عبد يشك في حصول أمر ما.

إنه خيال رجل ممدّد في الظلام فاتحاً عينيه. لم يدم حتى لمدة تكفي لإشعال قشة واحدة. ولكنّ عبد كان يظنّه واقعاً خلال كلّ ذلك الوقت.

خلال كل ذلك الوقت، لم يستطع أن يدرك إلَّا السكون.

أكان سكوناً عادياً؟ لا، بل كان من النوع الذي يجذبه كالهاوية.

كان ينقصه إنذار الصباح، ذاك الشجار المعلن عنه: إصطكاك سعف نخيل يحركها الهواء ومشاجرات عصافير صياحة؛ صراخ الساعة الأولى.

لو كانت بالعشرات، أو حتى بالمئات، وحتى لو كان الأمر متعلّقاً بالملايين منه، فمن غير الممكن سماع النحل يمشي.

وهذا بالضبط ما ظنّ عبد أنه كان يلتقطه. هذا كان الانطباع الذي تلقاه.

فترك ثلاث ثوان تمضي قبل أن يضع يده على كتف زوجته. كانت مهدية تدير له ظهرها، فهزها بتحفظ.

سبحت بحيوية لترجع من النوم إلى الهواء الطلق، وتنفست عميقاً. واضطرت وسط السواد المحيط بها أن تفتل رأسها باتجاهه، وتخلع رقبتها لتتوسله:

ـ يا الله، ما الأمر؟...

فأصرّ عليها قبل أن يدركها النوم من جديد:

ـ مهدية، مهدية.

ـ نعم، ماذا؟

وجاءت رنة استفهامها مصحوبة بشكل واضح بإعياء ألف سنة متتالية.

ـ مهدية، إصغي قليلاً.

ـ ولكن ما الذي يحصل؟

ـ ماذا تسمعين؟

وأحسّ بها ترهف سمعها هذه المرة.

ـ لا شيء... في الواقع. لا أسمع شيئاً.

ـ لا شيء؟ هكذا!...

ثم أعاد الكرة:

ـ هل أنتِ واثقة؟ إصغي بعد.

ـ ولكن ما الذي يحصل؟

ـ بالضبط: لا شيء. إصغي إذاً.

فتذمرت قائلة:

ـ إني أصغي. لا أقوم بشيء سوى الاصغاء. ولا أسمع شيئاً.

ـ بالضبط، لا يمكننا سماع شيء.

ومن دون أن يفاجئها ذلك على ما يبدو، إعترفت مهدية قائلة:

ـ أنتَ محق، لا يمكننا سماع شيء. ولكن من فضلك قل لي ماذا يحصل؟

أرجأ الرجل إجابته. ثم لفظ الكلمات نفسها بصوت خَرَق الظلمة كرشقة ملّاح:

ـ ماذا يحصل:

وجلس في فراشه دفعة واحدة، ضاغطاً على صُلبه. وبدأ يلبس أسمال النهار فوق ثياب نومه: قميصاً وبنطالاً انتقاهما بشكل عشوائي من دون أن يراهما.

واقتدت به مهدية، فنهضت هي الأخرى: ولكنها كانت من جهتها مرتديةً كامل ثيابها. إذ كانت تلبس فستانها أثناء النوم، فضلاً عن قميص نومها. ولم تقم سوى بنفض أهدابهما لإزالة التجعد عنهما.

ـ أنتَ محق، لا يمكننا سماع شيء. ماذا يحصل برأيك؟

وكان صوتها ذاك قد تجاوز حينذاك إعياءه السحيق ليسأل الرجل بنبرة لم ينسَ يوماً التسلّح بها في الأوقات الحرجة أو المنبئة بأمر خطير ـ أو في أي وقت كان في الحقيقة ـ، نبرة هادئة تعني من دون أي لُبس وسط انتظار ملؤه الثقة بأنه إذا كان عليهم القيامُ بأمر لا بدّ من فعله، فهي، مهدية، تعتمد عليه في ذلك.

فأجابها:

ـ الذي يحصل؟

ثم بَتَّ المسألة قائلاً:

ـ علينا أن نخرج ونرى بأنفسنا.

فوافقته على الفور:

ـ نعم. علينا أن نخرج ونرى بأنفسنا.

فتح عبد باب الغرفة على ثبات سماء صافية ضخمة يعجز الإنسان عن وصفها. إنها وجه المصير، وجهٌ لا يحمل أي مفاجأة لسكان طريف الأصليين، شبيه بنفسه دائماً، يوماً تلو الآخر.

تبعت مهدية زوجها في الفناء.

أما المفاجأة، فكانت البرد القارس، الإبر التي يتسلح بها فجر آب/ أغسطس نفسه ليخترق بها عظامكم. ومع أنّ مهدية كانت من تلك البلاد، إلّا أنها لم تكف عن تدليك ذراعيها العاريتين قرب عبد غير المتأثر بالبرد متسلحاً بأكمام قميصه وبخمسة وسبعين كيلوغراماً من العضلات وبمتر وخمسة وسبعين سنتيمتراً

من الطول تقريباً، ومتحلياً رغم ذلك بمظهر فتيّ. ومع أنها كانت من تلك البلاد، غير أنّ مهدية الأصغر منه سنّاً بشكل جليّ أخذت تفرك ذراعيها لتلطيف كيّ الصبح.

أما تلك السماء، فكفّت عن الاهتمام بها بُعيد ملاحظتهما صمتها الكامل. وَعَبَر عبد صحن الدّار، وتوجّه من دون أن يتلفظ بكلمة نحو البوابة الخارجية جارّاً مهدية وراءه كظله. فقَلَب الجازعة التي كانت تسدّ مصراعَي البوابة الثقيلين، وجذبهما نحوه.

وعندئذ، شاهدا راخية الرمل التي تزيّن الممرّ فضلاً عن شبكة الأزقة في البعيد.

ولم تعد مهدية تقف متراجعة خلف عبد، إنما أصبحت الآن بمستواه، تكاد تلمس كتفه بكتفها. تراها هيفاء ونشيطة في اللون الوردي الحائل لفستانها الطويل المشدود بحزام إلى قامتها على نمط ضمّة قمح، ورأسها يُظهر علامات ملله، ووجهها يتحلّى بنعومة مؤثّرة، اختار جمالُه بكامله العينين مركزاً له، عينين تلاحقانك بعنبرهما السائل، وتشنجان حلقك باختبائهما تحت حاجبين سوداوين كالفحم؛ أما هو فيقف هناك بالطبع ببنطال من النسيج المحبّك، منتفخ في الوسط بعض الشيء، وقميص بسيط من القطن الخام. رفع كلاهما رأسيهما نحو السماء. ماذا كانا يحاولان أن يقرآ في صفحاتها؟ أكان لديهما فكرة واضحة عما يبحثان عنه؟

أرجع عبد نظره إلى الأرض. ونادى زوجته:

ـ مهدية، مهدية.

كانت بالقرب منه، ولكنه لم يتنبه للأمر، بل ظل يكرر:

ـ مهدية، مهدية، تعالي وانظري.

فأرسلت له جوابها بِنَفَسٍ منها:

ـ إني بمحاذاتك تماماً. أستطيع أن أرى.

وراح يتأمل بنظرة فارغة، وهي كذلك، آلات الرمل الخفية والصغيرة جداً تتفتح بفعل التولد الذاتي على مستوى الأرض. وتظهر بمظهر أجنحة شفافة تُقلع مدفوعة في صعودها بنوع من دوّار. غير أنها لم تكن ترتفع كثيراً. فلا تكاد تعلو إلى مستوى أعقاب مهدية وعبد حتى تعود وتحطّ على الأرض من دون التوقف عن الدوران. وكانت بعض تلك العفاريت المتلاشية، تجد في نفسها بعد ذلك القدرة على الزحف لعشرة أو عشرين سنتيمتراً قبل أن تنفق من جديد، وذلك من خلال الانضمام إلى طبقة الرمل.

فتسلح عبد بتلك النبرة المتحفظة التي كانت على الدوام تزرع في نفس زوجته الاضطراب نفسه الغريب والمألوف للغاية، ليأمرها قائلاً:

ـ فلنعد.

فلنعد؟ ولكنه هو من بقي شبه مغروز في مكانه. وكأني به عاجز عن العودة على أعقابه، وعن انتزاع نفسه من رؤية الأشجار والأشباح المكسوة هي الأخرى بمسحوق رمل الصوان.

فارتأت مهدية أن تقول:

ـ هكذا إذاً. لهذا السبب بالتحديد، قامت العصافير بهجر طريف.

وانتظرت زوجها حتى يصمّم على العودة.

فجاء وهو مأخوذ بأفكاره بالكامل. فحذت حذوه، إنما حتى تتجه هي إلى المطبخ المنفصل عن القسم الرئيس من المنزل، وغير الممكن دخوله إلّا عبر الفناء.

وسارعت مهدية إلى الانهماك في الشغل. فوضعت الغلاية على النار؛ هذا أولاً. أتراهما سيتخليان عن قهوة الصبح لمجرد أنّ قليلاً من الرمل قد جاء ليركد أمام منزلهما؟ بالطبع لا.

فعادت من جديد إلى الفناء، وشرعت في سحب دلو ماء. فأصدرت عجلةُ البئر أنيناً، وكأنها تقاسي ألماً مبرّحاً.

وأكبّت مهدية حينذاك على التوضّؤ كالعادة، مرتعشة تحت مداعبات تلك المياه المجلّدة.

وانتقلت بعد ذلك إلى الغرفة، حيث بدأت بالصلاة، واقفة أولاً، ثمّ جاثمة وجبهتها على الأرض، وواقفة من جديد، ثم جاثمة وجبهتها على الأرض. «أنجز ما عليك، يحلّ السلام عليك».

وراحت الغلاية تثير صخباً في المطبخ كامرأة شرسة فوق المحرقة.

توصّل أخيراً إلى ارتداء سترته بالقوة فوق قميصه ماطّاً ذراعيه، ووجد في ذلك فرصة أكيدة للتمتمة:

ـ لم أرَ في حياتي أمراً مماثلاً.

وكان الولدان لا يزالان نائمَين.

ـ لم أسمع في حياتي أحداً يتحدث عن أمر مماثل.

إذا كان سائر سكان طريف قد تبينوا ما حصل، فلا بدّ من أن يكونوا في هذه الساعة مصابين بالذهول أمام الشر الذروري الذي ضرب غلالهم.

لقد بدأ يُصاب بالقلق بالتأكيد. ولكنه مجبر على ذلك حتماً.

ـ هل يتعاملون مع المسألة بجدية؟ وماذا عن الشيوخ؟ ربما يعرفون ما لم يكن رمل السنين قد أنهك ذاكرتهم.

إبتلع قهوته، وهي تغلي.

وخرج تواً.

مرّ بمحاذاة مساكن وحدائق تحاصرها حواجز تراب مدكوك، فمضى في هذه الطرق الضيقة المدعية بأنها شوارع فعلية.

إنما يمكن لفكرة واحدة أن تصدع الرأس أيضاً تماماً كما يفعل عطر المسك. إذ راح عبد يجتر ويعيد:

«ذرور بصقته تلال الرمل علينا؟ فليكن. إننا نعرف الصحراء، ونعرف تصرفاتها السيئة وتقلبات مزاجها. لا يمكن توقعها، ذلك إن كنا نفترض بأن ظاهرة طبيعية قد تتمتع بحرية الاختيار».

وكان بالإمكان رؤية ما كان الوضع عليه.

إذا انتصب في البساتين كلّ ما يمكن تخيله من شجر رمان وتين وبرتقال وعنب تكاثرت في ظل النخيل، وبدت شائبة في الصباح النيّر، بعدما شاخت تقريباً خلال ليلة واحدة.

فليكن.

ولكن هذا كلّ ما في الأمر: نقفة رشقنا بها الهواء. وذاك الذرور، يا لأهميته!

فضحك عبد خفية: أجل بالطبع، نقفة رشقنا بها الهواء. وذاك الذرور تطأه آنياً برجليك، ويكتم بدوره وقع خطاك ـ يا لأهميته!

ولكنه لم يدرك، بناءً على كلامه، أنّ الأمر شبيه بالرجوع إلى الوجه المحجوب من القمر: فالصحراء ليست إلّا عبارة عن رمل لا نهاية له.

رمل لا نهاية له اتّفق معه الهواء ليُجريا عملاً سوياً.

ولكنّ غمري قام بسؤاله من خلف سوره:

ـ بالنسبة إلى الجديد، لقد نلنا منه أكثر ممّا يلزم! أليس كذلك أيها الصديق عبد؟

فأجابه عبد في الحال، مستعيداً التحكم بحواسه:

ـ بحقّ الشيطان، ما زلنا بخير! ما زلنا نقف على رجلينا. نبقى واقفين في كلّ الأوقات.

ـ أعطني عشر نوق جانحات، وسأخضعها بالقوة والإكراه. أما أمّ الرماد المشؤوم التافهة تلك، فإني أتساءل بشأنها. أخشى من أن تكون أقوى مني، فأضطر إلى الرجوع في وعدي.

ـ لا يا مولاي غمري، لن يحصل ذلك.

كان غمري منهمكاً بجرف مسكباته بواسطة مكنسة من خشب المصطكا. فيكشف إلى مسافة معينة فسحات الأرض الزراعية الثمينة للغاية بشكل منتظم. ثم يتخلص من الرمل بضربات رفش متتالية، فيقذفه فوق جدار التراب الأمغر الصغير الذي يحمي حديقته.

حتى أنّ تلة بدأت تتكوّر فوق الرمل الوافد أثناء الليل واللّابد في الزقاق.

أدرك غمري عواقب المسألة، وأراد أن يتدارك الخطر المحدق به. فلم يؤجل كذلك البدء بعملية إجلاء قنوات الري في أراضيه.

ومع أنّ عبد لم يكن يملك شخصياً أي أرض، إلّا أنه تعاطف مع من يمتلكون بضع أربنتات من الأراضي. فالكل كانوا يلجأون إلى خدماته، ويعطونه نصيبه من الإنتفاع من الواحة.

فأسف لمصابهم متمنياً ألّا يكون لديه بعد ذلك أيّ دواع إضافية للأسف عليهم.

وبما أنّ أياً منهم لم يحتج في تلك الأوقات إلى استئجار قوة ساعديه، أفاد من وقته الفارغ للقيام بجولة في طريف. فأمضى الصبيحة يراقب ويضع قائمة جرد لوضع الأعيان إذا صحّ القول.

وما عدا ذلك، فلم يمضِ هو وعائلته الأيام التالية إلّا في متابعة العيش. وفي إحدى الليالي، رأى عبد حلماً غريباً.

كان يتحادث فيه مع الشيطان بشخصه. وكان الشيطان يقول له:

ـ كل هذه المساحة ملكي، ملكي أنا وحدي.

فسمع عبد نفسه يجيبه عن ذلك قائلاً:

ـ إنّ الله هو سيّد الأرض والسماوات، وليس لديه أيّ شريك.

ـ كيف ذلك؟ لديّ القدرة على القيام بما يلزم بحيث أصبح أنا وحدي العالم! ولا يعتمد ذلك إلّا على هواي.

ـ هل أنت أعمى، أو ماذا يحصل لك؟ ألّا ترى أننا هنا مقيمون ضدك وفي مقابلك؟

ـ أسجد! أسجد أيّها الرجل العنيد!

فأجابه عبد مستسلماً لنوبة من الضحك الصاخب:

ـ أن أسجد؟

وسمع ضحكته يستعيدها كذلك الصدى، ويردّدها عبر الفضاء بالآلاف. فهل حملته إلى التفكير عميقاً في تسوياتهم المعلنة، وغير المعلنة، هو وأهل طريف، وفي تواطئهم المبين وغير المبين منذ قرون مع صورة العالم المرئي وعجلته؟ غير أنّ الحالم كان يقول في نفسه إنه يعرف ما يعرفه. فاعترض الشيطان قائلاً:

ـ لا، أنت لا تعرفه، ولن تعرف عنه شيئاً إطلاقاً.

إجابة لم تكن مفعمة إلّا بصوت الصحراء.

ـ عَمَّ تتحدّث؟ ماذا عليّ أن أعرف بعد؟

ـ لن تعرفوا متى أيّها البشر.

ـ متى؟ ماذا تقصد؟...

ـ متى علينا أن نتلاقى.

وعند سماعه هذا الإنذار، رأى عبد بأمّ عينيه نور الصحراء يضمحل ويتلاشى في السواد.

صباح اليوم التالي.

تراهم مرتابين، وغير مستيقظين بالكامل، وفي عيونهم هلع صامت، وقد تملكتهم في الوقت نفسه رغبة واضحة في الضحك المتواصل. وراحوا جميعاً ينظرون: عبد ومهدية وبينهما الصبيان ناصر إبن الثماني سنوات، وماهي إبن الست سنوات، وقد أقحم هذا الأخير نفسه داخل فستان أمه، والإثنان يكممان كليهما فاهيهما بيد واحدة خوفاً من إطلاق العنان لنفسيهما إلى حدّ القهقهة في حضور الوالد. كانا يحبسان أنفاسهما حذراً من الانفجار، حافيَين تماماً كوالديهما على عتبة الباب.

كان الرمل يغطي من جديد الفناء أمامهم.

الرمل نفسه عاد للظهور؛ هو نفسه، فيما كانت مهدية قد أخلت المنزل منه منذ بضعة أيام غير محددة، وقامت، فضلاً عن ذلك، بشطف المنزل بكامله بالمياه بمساعدة ولديها. ذاك الرمل الأزلي قد أودعه نَفَس الصحراء، ويبدو أنه عاد بقوة هذا الصباح.

يبدو؟ لقد عاد بقوته الكاملة بحق الشيطان!

غمر الوالدين شعورٌ بالخزي والغيظ، ولكنهما كانا أقرب إلى الانفجار، والالتواء ضحكاً من الشكوى والنواح. ومع أنّ الوالدين اعتبرا نفسيهما ضحيتَي الدعابة نفسها، إلّا أنّ الولدين كانا ليبقيا هناك مصابَين بالدهشة حتى قدوم الليل لو لم تُعلن مهدية بنبرة مغرية بقدر ما هي صارمة، أو من دون رفع صوتها بالأحرى:

ـ هيا يا أعزائي، تناولوا ما يقع تحت أيديكم ممّا قد يصلح كمغرفة: من طاس أو إناء أو قصعة أو طبق كسكس. وهيا إلى الأمام.

فانكسر الرعب الذي أبقاهم جامدين على أرجلهم نوعاً ما، وبدأوا بالحراك ما خلا الأب. وفي ما يتعلق بالفطور، فلم يتم طرح المسألة على الإطلاق، ولم يتنبه أحد منهم لذلك، ولا حتى الصبيان.

أما عبد، فلم يبدُ متأثراً ولو قليلاً بالمهارة اليدوية التي تسلح بها كلّ من زوجته وولديه ليقلبوا المنزل رأساً على عقب، ويقطعوه إرباً إرباً، محاطين بهالة من السلام. بل أخذ يراقب شيئاً ما وهو يخترق الجدران بنظره، حتى أنه لم يكفّ عن النظر إليها

بعينيه؛ عينان بلون الزبرجد الصافي في أغلب الظن، ولكن لا، بل بلون الزمرد، إذا أمكن التصحيح، لا يرسلان إلّا بريقاً هادئاً وصافياً. لا يمكن حصر أي موضوع فيهما، ولا اكتشاف أي معلومة عبرهما، بل تراه يركّزهما ويحدّق بهما إلى حدّ ضمر وجهه وشدّ جلد فكيه ووجنتيه وما يقع بينهما لدرجة الانقطاع عن العظم وفصل المنخرين بدورهما إلى ذكر وأنثى منقوشَين داخل الأنف.

خرج من دون التلفظ بأي كلمة. فربُّ الأسرة ليس مضطراً إلى تقديم تقرير حول تحركاته على الإطلاق.

وسرعان ما اصطدم ببياض الكفن المتساوي المنبسط فوق واحة مذهولة أيضاً. الرمل والمزيد من الرمل. لقد حصدت طريف كمية هائلة من الثلج الوحيد المعروف في مناطق مماثلة بحيث أنّ مفاجأتها مغطاةً بهذا الشكل ورازحةً إلى هذا الحدّ تشبه إلى حدّ بعيد تلقي صفعة مؤلمة. وكأني بها مصدومة أمامك، ما يحملك بالتحديد إلى الضحك.

كانت كميات الرمل الهائلة تغطي المساكن والأشجار وأصغر النباتات، وترسم خطوطاً حتى على أرفع النتوءات، كالهوائيات البارزة فوق السطوح ومقارع الأبواب والحروف وعديد التخوم الهائل المساوي لعدد الجدران الصغيرة الممتدة على طول الحدائق، فضلاً عن الحجارة المنقورة المثبتة حول أحواض المياه، والأفاريز، والزخارف بشكل أكاليل.

من سواه قام مؤخراً بطلب البركة لهذه البساتين؟ وتمنى الحظ،

والكثير من الحظ لمالكيها السعداء؟ ومن ذا يكتشف الآن ما خلا هذا المنظر المرعب؟ أضف إلى ذلك أنّ الجفاف قد ضرب عند صياح الديك، فبات الجو خانقاً.

«إن كنت أنا أو قام أوّل رسول صالح وقد بيّنت بتمنّي الخير للناس، لغمرنا شعورٌ بالغبطة، ولكنه مجرد كلام لا نفع منه. وحتى لو لم نقله إلّا في أنفسنا، فنحن لا نعرف ما نقوله إطلاقاً. يا لها من عادة غريبة! فالحياة من جهتها تمضي في سبيلها خرساء وعمياء وصماء».

ورأى بعد قليل رجالاً مكبين على الهزّ ونفض الغبار والجرف. لا يدّخرون جهداً، كمجموعة نمل تَحَطَّم وكرُها الساعةَ، فَأَقْسَمَتْ أن تصلحه في أسرع ما يمكن. فانطلقوا في منافسةٍ قاسية أكثر مما هي محمومة، كلّ منهم يوجّه نظره إلى عمل جاره، وما كان أحد من هؤلاء ليدّخر قواه من أجل تحقيق مراده، حتى ولو أصيب بالإرهاق. حتى أنّ بعضهم، ويا للهول، قد توصّل إلى غسل النباتات، واستهلاك المياه. فمن سوى المجنون كان ليتكل على المطر، ذاك الزائر المتقلب والشحيح؟

فعاد عبد على عقبيه بقلب تتآكله حيرة حقودة. وذهب إلى منزل غمري متواطئاً مع صديقه القديم، وبذل جهده للعمل في أرضه المسوّرة من دون الافراط في كلام لا طائل منه، مكتفياً بفعل كل ما في وسعه.

مع أنّ ذلك المسحوق كان غايةً في الهدوء والوداعة.

كانوا يتناولون العشاء في الفناء تحت ضوء الشمس المنصهرة،

واضعين رجلاً فوق الأخرى تحت المائدة. لم يتناولوا سوى الطماطم والقثاء كمكمّل لخبزهم المدهون بزيت الزيتون. وكان الصبيَّان ناصر وماهي قد ألصقا كلّ على جبهة الآخر قشارة قثاء طويلة تمتدّ بين الصدغَين: فذاك كفيل ببثّ البرودة في نفوسكم والقشعريرة في أجسادكم. أما الثرثرة فممنوعة؛ وإلّا لكانا تعاقبا جرّاء ذلك! لا سيما وأن الوالدين يلزمان الصمت، باعتبار أن الجلوس إلى الطعام شكل آخر من الصلاة.

وكطبق أخير، تناولوا التمر. غير أن الصبييَن الوقحين كانا قد بدآ حينذاك باللهو واللعب في الجهة الأخرى من الفناء. إذ بات بإمكانهما الآن القيام بذلك.

وفي السماء، استغرقت الليفات الشبيهة بالصوف وقتاً طويلاً حتى تنسّلت بالكامل واختفت، فتحوّل الذهب الشمسي الباهت إلى ذهب مائل إلى الاخضرار. وتبعته إنارة صافية انتشرت فيها نسمةٌ خفيفة خفيفة قادمة من اللانهاية. ثم حان وقت تحوّل السماء إلى اللون الذهبي الأحمر.

وحينذاك، تكلم عبد وسط سواد الغرفة الكامل:

ـ لقد عادت النظافة في كلّ مكان. ولكنّ ذلك لا يحول دون شعوري كما لو أنّ ذلك الذرور لا يبارح ناظريّ.

فهمست مهدية الممدّدة إلى جانبه قائلة:

ـ أما أنا فأشعر كما لو أنه أصبح داخل عيني، حتى أني. . .

إنها كلمات وأفكار معلّقة يصعب عليها أن تعترف بها، ولكنها توصلت إلى المتابعة بصوت مضطرب:

ـ. . . أشعر كما لو أني أتمرّغ في داخله.

ـ كفى يا امرأة، توقفي عن التفكير في ذلك، ونامي.

كان بالإمكان الافتراض بأن الولدَين قد ناما نظراً لإيقاع تنفسهما.

أما مهدية فعادت إلى القول، باحثة عن كلمة يَنْطُقُ بها فَتَبُثُّ فيها الأملَ:

ـ لا نجد ما نقوله، على حدّ قول فلان. وأنتَ، ما رأيك؟

ـ لا رأيَ لي.

ـ ولكنك تنتظر.

فاعترف عبد قائلاً:

ـ نعم. ولكن كفاكِ كلاماً، ونامي.

ـ لا بدّ من الاعتراف...

وأضاعت مهدية نفسها حينذاك وراء حدود الكلمات، إلّا إذا كان صوتها بنفسه هو من أراد إضاعتها، وإقصاءها عن المكان المحفوظ والحافظ، وتسليمها إلى الظلمة الملتفّة على ما تخبئه لهم. وغطّ الجميع بعد ذلك في نوم عميق.

ـ لا شكّ في أنكم تجدون من الطرافة التّنزه كالعجائز طالما أنتم كذلك! ولكن لا بحق الجحيم! هذا مقرف ببساطة! هذا مخزٍ!

هل كان مرحوم يفيد من شدّة الملل للسخط بهذا الشكل؟ من المتوقع منه القيام بذلك، بعدما أصبح الملل جزءاً من حياتهم اليومية. أما في ما يتعلق بالمحافظة على جديته، فذلك ليس وارداً حتى! ومع أنه شبيه بها، إلّا أنّ لقاء تلك الوجوه المجصّصة بالطين الأبيض قد بعثت في نفسه الفرح، أربعة وجوه يعرضها أربعة رجال ما عادوا يافعين. لم يجد أي صعوبة في إيجاد إسم يعلّقه على رقبة كلّ من الهيئات الأربع: إذ كانوا توأمَين بن براهام والمدعو زيد والمدعو طاهر.

ـ عجباً! ماذا دهاك؟

كان طاهر أوّل من أجابه. وقصد النظر كذلك إلى سي حافظ الجالس براحة تامة عند باب مخزن بقالته ـ مقهاه حين تابع قائلاً:

ـ أنتما الاثنان تبدوان مضحكَين بالأحرى في جلستكما هنا، نظيفَي الجسم بالكامل!

فهلّلت لذلك الأقنعة الشاحبة كلّها معاً واحمرت داخل تجاويفها عيونُ تلك الوحوش الهاربة من السراديب الجهنمية، ونزفت أفواهها.

وبعد ذلك، أعاد طاهر تركيز انتباهه الكامل على مرحوم وحده، ليكمل كلامه المصحوب بحازوقة مستمرة وقهقهة متقطعة:

ـ مع احترامي لشخصك يا خليفتي، ولكن ألّا تسلّمون بأنّ النظافة تبعدنا عن بعضنا البعض، وبأنّ قذارتنا تقرّب في ما بيننا؟ وبأننا تعدينا مرحلة إثبات ذلك؟

لم يستطع رقيبهم إجابته، ولو حتى بإطلاق ثلث طَرَفِ ريح بسيط. فتسلسلت من جديد تشنجات الضحك الصاخب المفاجئة التي كانت قد سيطرت عليه، فمزقت وجهه. وانتزعت منه كرّة دموع. ولم ينطلق في مرحه ذاك بشكل قوي إلّا حتى يعطي المكان ببصقه المتكرر ورشاش لعابه المصاحب لضحكه.

ولكن أحد التوأمين ـ وحاولوا أن تحزروا أيّ واحد منهم ـ لم يهتمّ بالحصول على إجابة، بل أخذ دور طاهر بالمناوبة وقال:

ـ كل إنسان على الأرض يراعي قانون العمل المقدّس ويبدأ بالانتفاع منه. وهل من واجبنا، علاوة على ذلك، أن نجلب شيئاً ما إلى هذا...

فقاطعه سي حافظ من باب مخزنه ـ مقهاه، وبدا وكأنه يقي ذلك المكان من ولوج بطنه إليه، بطن مكوّر شبيه ببطن امرأة تضع وليدها، وبارز تحت صدار أبيض بلا كمّين:

ـ المسألة ليست متعلقة بجلب...

ولكنّ التوأم الثاني انتزع منه الكلام هو الآخر، من دون اللجوء إلى صياغات معقدة:

ـ مسألة جلب؟... لسنا سوى بلهاء بسطاء، مجانين يهيمون في الطرقات، ويعتاشون من الصدقات. فما مدى فهمنا نحن للمسألة؟ السؤال موجه إليك. إذا كانت الحياة والناس والأعمال تتطلب شيئاً من الجدية، فنحن نسأل أنفسنا عن ماهيتنا. فهذا السؤال أو ذاك لا يهمنا البتة إذاً، ولا نهتم به، مفهوم؟ سيدي ـ لقاروي، ذاك القديس الذي تزاوج مع أتان في الساحة العامة

لتجنب خطر فيضان كان يهدّد بغمر الأمة وسكانها، حاول أن تتذكره... لقد كان جدياً ـ ألم يكن جدياً بنظرك؟ نحن ممّن يرغبون في المشي على خطاه. ولكننا نعفيكم من الاقتداء بنا. يكفينا أن نتواجد نحن في جهة، وأن تتواجدوا أنتم في أخرى. فنعيش حياتنا وندع غيرنا يعيش حياته!

فتأوّه البائع بالمفرّق مستشيطاً غضباً إلى حد الاختناق:

ـ نتقيّد بشاذّين بائسين...

ولكن الشيخ باغتهم بالتعبير عن رأيه. بقي جالساً على حصير على الحياد، سانداً ظهره إلى واجهة المخزن ـ المقهى، وجعل المسكين ـ يبتلع مرّة أخرى رشقة شتائم كان يستعدّ لإطلاقها في وجه الواعظ المطلي بالمساحيق:

ـ حانوتي يعوي؟ آهٍ من هذا الزمن الحديث! آه!

وإذا بالرؤوس المزخرفة منها وغير المزخرفة، وبغض النظر عن هيئاتها، تدور كلها باتجاه إبن المئة عام. ماذا؟ ماذا سمعوا؟ دعامة من أجمل صنف من الصوان تتكلم؟ كان حتى أقل من شارك بآرائه في هذه المشادة ليدفع مسبقاً مبلغاً باهظاً ليشهد على تلك الأعجوبة.

وحينذاك، دمدم العجوز بصوت أعلى، مع أنه لم يكن من المفروض أن يكلّم إلّا نفسه:

ـ كثيرون ينسون أنّ السيّد هنا هو الصحراء، وأنها وحدها مهيأة لرفع نبرة صوتها. ولكن من الممكن أيضاً أن تنام الصحراء طويلاً، طوال قرون في بعض الأحيان، واستخدام لفظة قرون ليس

إلَّا مجرّد وسيلة تعبير. ثمّ تصحو وتستأنف مسيرها. كما أنها قد تبعث تعنيفاً عظيماً يتبعه إلتهام عظيم، وهذه ليست مرّة أخرى إلَّا وسيلة تعبير. وينسون أنها لم تقم قبل ذلك سوى بالاجترار: فَبِمَ تباشر، بهذا أم بذاك؟ إنها بحاجة إلى الوقت. إلى الكثير من الوقت حتى تقرّر. وبمجرّد انتهاء وقت إجراء حسابها حتى يصبح من المستحيل ردعها. هي نفسها يمكنها أن تتكهن إلى أي مدى قد تهيأت للوصول. إنما تكتفي بالسير.

ثم عاد أبو صمد مجدداً إلى صمته، إنما بات أقلّ حضوراً بالنسبة إلى العالم الخارجي من نظره الجامد تحت غابة حاجبيه. وبقي جالساً على حصير الحلفاء نفسه ذاك سانداً ظهره إلى جدار مخزن البقالة، رافعاً ركبتيه وضاماً يديه بين ساقيه. وما إن خرج ذلك الحديث من فمه، ولم يرَ أحد لأي ضرورة استجاب بشكل إجمالي، حتى عاد فوراً بعد ذلك ليصبح من جديد رسماً من حجر، صنماً صالحاً لصحراء. وبدا جلياً أن ما شرع فيه منذ الماضي البعيد من عملية تآكل وإكمال في عالم الغياب والنسيان قد بدأ يستولي على كيانه بالكامل مرةً أخرى.

ولم يعد يستوقف انتباه مجموعة الرجال إلَّا غرضٌ هو كذلك رجل يتمتع بنعمة الكلام. فماذا لو ساهمت رؤيتهم لهذا المنظر في فقدانهم واقعَهم هم الآخرين؟ إذ بدا وكأن البقال قد فقد صوابه! أما الممسوسون الأربعة فراحوا يقفزون ويلهون في البعيد كالأطفال، راكضين ليعرضوا في مكان آخر رؤوسهم المطلية بالكلس والأشبه لذلك بمؤخرات القردة.

إستمروا في النوم بسلام لمدة ثلاث ليالٍ أخرى. أما الأيام المتتالية فلم تأتِ إلَّا كردّ مشابه للأيام السابقة كافة. وفي إبان الليلة الرابعة، استيقظ عبد فجأة بشكل مباغت على دويّ زوبعات ضخمة وجلبة هائلة وهيجان عام: فالعناصر الثائرة كانت تخاصم الواحة، ولا تهاجم سواها، ولا تقصف سواها، ولا تنقضّ إلَّا عليها ـ ويبدو أنّ ذلك قد بدأ منذ ساعات، كما لو كانت الوحيدة على الأرض.

وظلّ عبد يستمع إلى هدير الصحراء ذاك، هدير الصحراء والليل، صحراء وليل خاضعين بنفسيهما لعنصر أكثر وحشية وأشدّ حقداً، يدفعهما إلى الضرب والسحق والخنق، عنصر مغاير يسبقهما ويناوشهما من الخلف في آن.

وراح عبد يفكر في بعض الأحيان مرهفاً سمعه: «عدا عن أنّ ذلك يسمح لهما بالتنفس والتراجع إلى المتقاطرات للسكون هناك. إنها مناورة فعلية: فالمعلم غير المعروف الذي يُخضعهما بواسطة الهراوة لا يدفعهما إلى الانسحاب إلى تخوم العالم، ولا يجذبهما إليها إلَّا ليدفعهما إلى الهجوم بشدة أكبر وبجنون أعظم».

ولم يكن عبد يسمع إلَّا تلاطم أمواج البّحر يعود بشكل أضخم

بفعل أمواج الفرقعة المسرعة. وبما أنه كان ممدداً، راح يباغت نفسه حينذاك برغبته في إخفاء رأسه تحت الأغطية. أما مهدية فكانت تنام من دون أن تشكّ في حصول أي شيء. والصبيان كذلك. ولكن ماذا يتطلب الأمر لإيقاظهم؟ أكثر من الضربات العنيفة تلك الموجهة بواسطة جهاز كوني لتحديد سرعتها. لو كان ذلك يقع ضمن إطار المعقول؟ فالهجمات المنتظمة كانت تزعزع الواحة حتى في أسسها.

تابع عبد إحصاء تلك الهجمات إلى أن بدأت العاصفة بهدهدته بهديرها إلى حدّ فقدان الوعي. وكان قد أوشك في بعض الأحيان تقريباً على هزّ مهدية. ولكن ما نفع ذلك الآن؟ لذا ترك الوقتَ يمرّ بسرعة بعدما استرخى بالكامل. كما أنه سيكون لديها في اليوم التالي الوقت الكافي لإطلاق الشيب في شعرها ولعن القدر.

وهكذا مرّت الدقائق كنيازك مظلمة، أم تراها كانت ساعات؟ ساعات قصيرة أو دقائق أقصر: لا فرق، فالأهم هو أنّ ظلمة الغرفة قد بدأت بالخضوع لما يُشبه الصقل بالخفان مع البقاء من معدن. فاستشعر بذلك عبد الخارج من غفلته مفكراً: «أجل، هذا مؤشر أكيد على بزوغ الفجر»، وهو يسمع السكون المطبق التالي للضربة. إذ يبدو أن الشيطان وقطاره ما عادا يردان موسيقاهما الرديئة، ويملآن بها المكان في الخارج.

فنهض متلهفاً لرؤية ما في الخارج. وحين أصبح عند مرحلة دفع الباب، رفض الأخير الحراك، لأنه كان مسدوداً. فضغط عليه ليفتحه، وهو مصاب بالذهول. وإذا به يتسع بما يكفي لمجرد

فسح المجال أمامه للمرور عبره. فاندسّ عبر الانشقاق، وألقى نظرة على الفناء، فيما كان النهار العكر يواجه صعوبة في البزوغ. ورأى ما في الخارج.

كانت كتلة من الرمل تُثقل على الباب.

فتعثّر في كل ذلك وهو يمشي قدماً. ولم يكن الهواء الكثيف سوى رماد معلّق؛ أما السماء فمن المستحيل تمييز ما فيها.

فعاد على عقبيه ليغطي رأسه بشاش لفّه حول فمه وباقي وجهه، غير تارك إلّا تقويرة لعينيه. وخرج مرة ثانية بقناعه ذاك.

إتّضح أن مصراعَي البوابة الخارجية الضخمين كانا مربوطين كذلك، مسدودين بالرمل. فلم يستطع أن يزحزح واحداً منهما إلّا بمشقّة بالغة، وتوصّل بقوة قبضته وركبته إلى تحريكه. ولكنه لم ينجح في فتحه بشكل واسع إلّا بعدما عَبَرَ إلى الشارع وأزال عنه طبقة الرمل الهشة بواسطة قدمه.

وسار هائماً في مختلف أنحاء الواحة. ولم يستطع إلّا أن يعاين استقرار الصحراء في طريف براحة تامة كما يحلو لها. فراح عبد يتذمر داخل قناع القول: «إنها في منزلها، ولا تنوي القبول بأي قسمة على الإطلاق، مهما كانت صغيرة».

إنها الصحراء. لم يعد الأمر مقتصراً على الدقيق الراقص المتردد والمتفرق الذي دعا نفسه بشكل مفاجىء منذ بضعة أيام. بل إنها الصحراء الكثيفة الجبارة والمنفرجة. جاءت فجأة بغزوها بهيةً بتموّجاتها الشقراء. واستملكت الأرض والهواء والسماء ثقيلةً مسلّحةً بوزنها الضخم: فغلّفت الأرض بالطيات والمتموجات

والضمات العذبة والسائلة، كما اجتاحت بسحاباتها أعلى طبقات الهواء، وجعلتها تهبط من جديد كالبرغل على كل ما يتنفس.

يا للمصيبة، فقد انتشرت في كلّ مكان تلالُ رملٍ كاملة ونصف تلال بشكل ربوات شهوانية؛ فتلة الرمل لا تحتاج إلى دعامات حتى تتشكل، وأي شيء قد يصلح كنقطة ارتكاز ونواة لها. تبدأ كعقبة بحجم حبة بازلاء، ثم تتنامى بسرعة كبيرة وتقدّم لنفسها استدارات مختلفة. ولم يكن عبد في وضع يمكّنه من معرفة سرها بشكل أفضل أو أسوأ من غيره.

فأنهى حلقة نزهته بعدما جالَ في كل أنحاء طريف، وأكمل استعراض الحدائق المستحيلة إلى مدافن، بعدما دُفنت أراضيها المزروعة تحت طبقة متساوية من الرمل. وقد يراهن البعض بأنّ ذاك الرمل الملعون قد حاول في بعض الأماكن أن يتسلق جدران المنازل نفسها. وكان بإمكان النخل أن يتأمّل هذا المشهد من فوق بالتأكيد، ولكنّ ذلك لا يحول دون إدّثار جذوعه هي الأخرى بنوع من الفرو الشبيه بفرو القاقم المغطى بالسنباذج.

لم يجد عبد أحداً في صحن الدار، حيث يعيشون في العادة، تحت السماء مباشرة ككل سكان طريف. ولكنّ المكان بات يخصّ الرمل بعد ذلك. لذا التجأت مهدية والصبيّان إلى غرفتهم. فالرمل لم يستطع الدخول إليها. وكانوا في غياب عبد قد تمكنوا من فتح الباب بشكل أوسع ممّا كان قد فعل وهو مغادر. قاموا على الأقل بذلك الجهد. ثم راح الولدان يلتصقان بوالدتهما على جلد الخروف نفسه، ويقوم الأصغر بمصّ إبهامه ليشكلوا معاً كتلة صامتة، بدت وكأنها بانتظار وصوله ـ أو حصول أمر يجهلونه.

وإذا به يرفع الشاشة فوق جبهته ليعرّي وجهه كما يسلخون الأرنب، ونظر إلى ما هي نظرة شكّاكةً، ذاك الولد الطويل القامة، إنما الضعيف والرخو، المأخوذ بحاجته إلى إعادة مصّ إبهامه، حاجة قد تبدو جـهنمية للوهلة الأولى. ثم قال:

ـ سترحلون.

نادراً ما كانت مهدية ترفع عينيها إلى مستوى عيني زوجها. ولكنها قامت بذلك هذه المرة، فنظرت إليه وقالت:

ـ ماذا تقصد بالرحيل؟

ـ أجل، الرحيل. هذا ما أقصده بالتحديد.

ـ وماذا عنك؟

ـ أنا سأبقى.

ـ أنت تبقى، ونحن نرحل؟

غابت حينذاك ملامح الحياة عن وجهه، فالتزم الصمت.

ولكنّ مهدية تمكّنت من القول:

ـ ومتى ذلك؟

ـ ما إن أتدبّر الأمر، وأسأل غمري ما إذا كان يستطيع إعارتنا إحدى نوقه. منذ الغد.

فتمتمت مهدية بصوت خافت، وهي تهزّ رأسها مغمومةً:

ـ حسناً، إن شاء اللّه ذلك...

وانتظرت لبرهة، ثمّ بحثت من جديد عن نظر عبد وقالت:

ـ لقد أخرجت من البئر كمية رمل أكبر من كمية الماء هذا

الصباح. فوضعتُ بعضاً منها في البرميل الكبير حتى تصفو. فنحن بحاجة إلى الماء في كلّ أمر.

ـ سأهتم بذلك.

جازف حينذاك الصبي الأكبر بالسؤال:

ـ هل بإمكاني سوق الناقة يا أبي؟

فانفرجت أسارير عبد، وسالت مادّة معدنية من عينيه.

ـ لِمَ لا يا ولدي؟

يا لابتسامة الوالد تلك! لقد جعلت ناصر يرتمي بين رجليه بوثبة ويعانقه.

وضمت مهدية الولد الآخر إلى صدرها. إنما نظراً للظروف، لم يستطع عبد البقاء إلّا لوقت قصير جداً في المنزل.

وبعدما أدار ظهره، نهضت مهدية كما لو قام زنبرك بتحريكها. وخرجت من الغرفة، يرافقها ابنها الأكبر، فيما يتمسك الصغير بثوبها. فراح الرمل الحامي يُمسك بعقبيها وهي تحفره في الفناء برجليها الحافيتين، متجهة بكل خطوة تخطوها نحو البوابة المفتوحة على الشارع.

فأرعبت مهدية رؤيةُ ما كشفه الفلك من الواحة الرازحة تحت الصحراء داخل ضبابة محبّبة.

وبحثت عن يد تُمسك بها. فلم تجد سوى يد صغيرها ماهي، ما جعله يقوم مكرهاً بنزع إبهامه من فمه. لقد أفحمها التغيّر الطيفي ذاك، وأصابها بالذهول. ولكنها لم تكن تريد سوى

التعرف إلى الأشجار التي تعرفها منذ فترة طويلة تحت مظهرها الشبحي ذاك لا أكثر. لم تكن تريد سوى التعرف إلى الأزهار والنباتات المألوفة داخل الحدائق، التعرف إلى تعرجات زقاقهم والنخل المزروع في جوارهم. بدأ ذلك النخل يفقد أوراقه الآن بين نفاية النخالة، حيث تغرق الشمس مائلة إلى الحُمْرَةِ. فأكبّ المسكين على حماية ما يمكن حمايته بعد من وهيج تلك الشمس الملهب الذي يُشيع ظلّه الشاحب على نباتات مدعّمة بالتراب.

ثم ما لبثت أن تلاشت الرؤية الفظيعة. وانبسطت تحت عيني صبيّة شابّة في المكان والموضع نفسه بساتين فائضة وأوراق وافرة بشكل أثواب وملابس داخلية خضراء حبكتها انقلابات الريح المفاجئة، فتقوم الأشجار بالاحتجاج، وتضحك الفتاة الصغيرة، وقد نفّش النسيم وجهها وشعرها في دفء عصر ليس ببعيد. وكانت السواقي المحفورة داخل الأرض الصدئة تضحك هي الأخرى ناقلةً مياهها المتغيّرة دوماً. ولكنّ الفتاة لم تكن تعرف شيئاً عن سخريتها، فتتابع جريها من شجرة مشمش إلى شجرة تين، ومن تلك إلى نبتة سنط، ثم إلى عناب، ثم إلى شجرة رمان، لاهيةً معها في كلّ أنحاء البلدة. وكانت مأخوذة بالحماسة نفسها التي تغمر بستان النخل. ويحيط بها النعناع وإبرة الراعي البرية ورقيب الشمس والكمون واليانسون، فتنخز لها أنفَها ما لم يكن النسيم يُسكرها بضوع الياسمين زهر العسل وزهيرات شجر الليمون الحامض: فكيف عساها تتصرف وهي محاطة بكلّ تلك

السعادة، وبأي طريقة تواجهها؟ وهل من يعلم بأن تلك الفتاة المحتالة مهدية تغطس قدميها في قناة الري، وتدك ماءها إلى أن تصبح ساقاها وتنورتها القصيرة مبللة بالكامل، مع أنهم قد أنهوها عن القيام بذلك لمرات عديدة؟ يا إلهي. إنها محققة في اتخاذ حذرها حتى لا يفاجئها أحد. ولكنها تفعل ذلك في ساعات القيظ حتى لا يكون أحد حولها سوى أشجار فرحة، لدرجة أنها كانت تهزّ أوراقها بمكر، وتهمس: هس، هس س س س...

غاصت مهدية في ذكرياتها. لا يمكن أن تكون قد مرّت عشرون سنة على ذلك، ولا حتى عشر سنين، ولا حتى أشهر معدودة. بل كان ذلك يحصل في الحاضر. كانت ترى نفسها تقوم بتلك الحركات في الحاضر من دون التوقف عن الركض، من دون التوقف للاستراحة، ويدها ملأى ببتلات إبرة الراعي، قبل أن تصطدم بوالدتها، وتصرخ:

ـ إنحني يامّا، إنحني بسرعة، أرجوك!

ـ ولكن لماذا؟

ـ أرجوك يا أمي الصغيرة!

وبعدما امتثلت الأخيرة لالتماس مهدية، سحقت لها ابنتها الجسور بتلات إبرة الراعي على وجنتيها، ثم راحت تفرك وتفرك.

ـ كم أنتِ جميلة يا أمّي! كم أنت جميلة يا أمي!

ـ ولكنكِ تريدينني أن أكون ملطخة بالألوان كعروس شابة! لا، لا! سيضحك عليّ الكلّ بمن فيهم جدك.

ـ نعم، نعم، أنتِ عروس شابة يا أمي!

وبعدما تجنبت صفعة كانت ستتلقاها بالتأكيد، راحت مهدية تتخلّع في المشي على بعد بضع خطوات، وهي تغني:

ـ يا للعروس! يا للعروس!

كان يتوافد كل ليلة، فتتسرب منه كمية أكبر بقليل من تلك الوالجة في الليلة السابقة، ويظهر ذلك بشكل جلي في الصباح! فيكتشف المرء كمية راكدة أمام بابه، ليست بالكمية الصغيرة.

ثم تتوقف كل تلك العملية في النهار. إذ يستريح الرمل، وينام على ما يبدو.

ولكن كيف يمكن الكفاح ضدّ عدوّ ينام؟ بأي نوع من الأسلحة؟ وبأي طرف الإمساك به؟ تراه أمامك ينام جامداً وهشاً. وبما أنه من المتعذر الإمساك به، يسيل منك، ويفيض من بين يديك، وهو ينام كجثة هامدة بوداعة وعناد. ولقد تجاوز سكانُ طريف في الحقيقة مرحلة التساؤل حول ما ينبغي فعله. ماذا يفعلون، يرفعونه من جهة، ليكدسوه من الجهة الأخرى؟ هل سيتقدمون ولو قليلاً إن قاموا بذلك؟

وماذا لو يعترفون بهزيمتهم؟ لا. عندما يحصل أمر من هذا القبيل، لا دخل لهم فيه على الإطلاق... لا.

في طريقه إلى منزل غمري، راح عبد يوسّع خطاه في شوارع طريف الصغيرة، محيطاً نفسه بذاك الإيحاء بالصلابة الذي تضفيه على المشية الكتفان المرفوعتان. فمن المؤكد أن يقوم صديقه القديم بإعارته إحدى نوقه، وسيرحب بأي ناقة يعرضها عليه. وأخذ يفكر عدا عن ذلك في الروائح المفلتة في هذه الجهة من نطاق الإدراك الواضح؛ ما عاد يشتمّ ولو رائحة واحدة. إن كان من تلك الصادرة عن النباتات العطرية أو عن غيرها، أو عن الفاكهة الآخذة في النضوج أو عن القرفة المختلطة بالكاز والفائحة من متجر سي حافظ، ولا حتى رائحةً غنية أو بعيدة أو بيتية، من مثل ذلك الغوصان المنبعث من الشورباء والحمل المشوي الذي كان يتسلل عبر الجدار ليلازم حياً بكامله؟ ولكن من تراه كان يتنبه للأمر؟

كلما أثقل الرمل على العالم، كلما تحول العالم إلى الخفة والفراغ، أو إلى الهزل بالأحرى من دون الشعور بأي ألم.

من دون أي ألم؟ إنه لمن الحماقة أن يظنّ المرء ذلك. فالألم لا يقبع بعيداً أبداً. وتابع عبد اجترار أفكاره قائلاً في نفسه: «إن مسألة البقاء مسألة لا يطرحها أحد. إنما سيتم طرحها بالتأكيد». هكذا يكون الألم مثقوباً كإبرة البرادعي.

وكانت الصحراء قد بدأت في الواقع بتشكيل مزروعات وأشياء غير محددة ثانية في أماكن متفرقة داخل الرمل، وبصنع أشكال وأحجام متنوعة من محاولات المحاكاة الساخرة الممكن والمتعذر التعرف إليها. كانت تلك طريقتها في أكل واحة وهضمها حية،

مع أي شيء آخر تكتشفه داخلها في الواقع، فترممه متظاهرةً بأنها لا تقصد إلّا الإشراف على الزينة والزخرف. ومع ذلك، كان ينام ممدداً على طريق عبد، وتغمره رعشة لطيفة.

وبعد وقت قليل، أصبح صاحبنا قريباً بما يكفي ليلمح سي حافظ البقال وصاحب المقهى والمزارع كذلك معسكِراً ومستريحاً في جلوسه عند عتبة محله، راخياً بطنه أمامه، موحياً كالعادة بأنه يحظر الوصول إلى الداخل. ولو تأملتم أن تكتشفوا ولو ظل تغيّر في هيئته، لكان خاب أملكم قبل مرور وقت طويل. وإذا راقبه المرء لاحظ أنه يلزمه أكثر من مجرّد محنة ظاهرية للتأثير فيه.

إذ كان حصير الحلفاء محدوداً كالعادة تماماً أمام متجره، إنما هذه المرة على سماكة شنيعة من الرمل متخذاً شكل أمواجها؛ ولا يمكن أن يكون أحد سواه قد قرر ذلك أو أمر به. لم يبدُ أيٌ من الزبائن الثلاثة الراسين عليه حالياً بمؤخراتهم متضايقاً منه أو متحملاً عذابات غير محتملة. وكان اثنان منهما محنيَين بمواجهة بعضهما البعض إلى حدّ تصادم جبهتيهما، ويتجادلان بشأن لعبة ضامة: هما المهووسان باللعب يوسف وسيد علي. فيما يجلس السلف الكبير أبو صمد على الحياد.

وعند اقتراب عبد، أفلتت منه الفكرة التالية:

ـ تلعبون بالضامة إذاً في وقت مماثل.

فلم يقم لا يوسف ولا سيد علي برفع ناظريه لشدة استغراقهما كليهما في تأمل لوح الخشب المسودّ والمشقق المقسم إلى تربيعات. ولولا قليل، لكان نظرهما قد نقل البيادق لشدة تركيزه.

وكانت الخرق المفتولة على عمامة سيد علي تتفكك شيئاً فشيئاً مهددةً بالسقوط على عينيه، ولكنه لم يكن يبالي حتى بذلك.

وفيما كان يراقب اللاعبَين، أحسّ عبد بأنّ الموظف لدى سي حافظ يقترب منه ليدسّ بين أصابعه قدح شاي. ولكن ذلك لم يمنعه من الانتفاض، فتراجع خطوة إلى الوراء ورفض الشاي مقدّماً العذر التالي:

ـ إني مار من هنا فحسب.

وعليه، ناداه البقال ـ صاحب المقهى من باب عرينه قائلاً:

ـ هيا، هيا، إنه مقدّم مجاناً!

فقبل عبد مكرهاً ورشف من شفة القدح أوّل جرعة غالية، ولكنه لم يظن نفسه ملزماً بإضافة خطاب، فذلك أمر من المستبعد جداً أن يقوم به.

بل راح ينظر بطرف عينيه الثابتتين باتجاه واحد إلى لاعبَي الضامة اللذين لم يتخليا بنفسيهما عن فترات الجمود الطويلة، والطويلة جداً، إلّا لنشل قطعة أو اثنتين أو حتى ثلاث بهدوء تام بيدين أشبه بمخالب صقر، واستئناف فترة الاستراحة في الحال، والتسمر من جديد. من كان ليذرف دمعة هنا على الزمن المنقضي؟ أو على الصحراء الراقدة في الجوار؟

الصحراء... الزمن! يكفي النظر نظرة واحدة إلى أبي صمد الخالد، ذاك التكثف الغامض الساند بمؤخرته واجهة مخزن البقالة ـ المقهى. لم يكن أحد يعرف ما إذا كان نصب أميال الرمال،

إبن طريف البالغ من العمر مئة سنة يشهد على الزمن أو على الصحراء أو ما إذا كان هو وحده يعرف علامَ يشهد.

حينذاك ظهر ذوو الأشكال الغريبة عند زاوية مخزن البقالة ـ المقهى. هل هم أعضاء في أخوية دينية؟ قل إنهم بالأحرى مشعبذون مضحكون. إلّا أنهم لم يتوانوا عن الضرب في طريف بسحنات مطلية بصلصال ملوّث بالغائط، فزرعوا الرعب في قلوب الناس.

وبما أنه أوّل من رآهم، قام سي حافظ بإنذار الجميع: فنادى من بعيد موظفه الشاب الذي أتى وأحنى رأسه تحت ذراعٍ كان معلمه يستند بها إلى إطار الباب متخذاً وضعية الآغا. ثم صاح سي حافظ وكأنه لا يكلم شخصاً معيناً بالتحديد من دون إخفاض عينيه للنظر إلى رأس المراوغ:

ـ قدحٌ أيضاً لكل من هؤلاء الصبية الشجعان!

فتساءل عبد، وهو يسرع في شرب شايه: «أتراه يبتاع ودهم؟ وإلّا، فبأي مناسبة يحتفل؟».

وسرعان ما أخذ كل واحد منهم قدحاً، وصرخ ذلك العدد الضئيل من المهرجين كله في آن:

ـ حياة مديدة لصاحب المقهى ـ بقالنا!

«من المؤكد أن الكارثة هي في الوقت نفسه احتفال بطريقتها الخاصة، بما أنها تقرِّب ما بين الناس». وهكذا راح عبد يفكر ملياً في نفسه، هو من لا يكشف عما في قلبه إلّا نادراً، ولا يفكر في أن الشيطان له حصة دائمة في تأملاته.

فانتهى إلى التحري وسؤالهم، وهو يُشير بيده إلى خرابيش هؤلاء، ويجول بها من واحد إلى آخر:

ـ وهذا؟ لماذا؟

فأراد أحد التوأمين معرفة ما يقصده، لذا قال له:

ـ ماذا تعني: هذا ماذا، هذا ماذا؟ ولكن أوضح!

ـ هذا الوحل على وجوهكم. تلك الإهانة بحق سمعتكم ككائنات بشرية. رؤوس الأوثان تلك التي تستهزئون بها.

فتعجب التوأم الآخر قائلاً:

ـ ولكن فكّر قليلاً يا سي عبد! لقد تمّ جبلُبا بالطين، أليس كذلك؟ وكيف سيكون شكل رؤوسنا عندما تتم إعادتنا إليه؟ ألّا يعني لك شيئاً التذكير بذلك؟

يا للمحتال الكبير! تركه عبد يتغرغر بخطاباته الرنانة وأعاد قدحه الفارغ وسارع في الفرار خفيةً، إذ كان لديه أمر أهم ينجزه في مكان آخر.

وجد غمري سانداً ظهره إلى منزله، متربعاً على عقبيه، ويداه متدليتان بين ركبتيه، لا تقومان بفعل شيء. هاتان اليدان نفساهما لا تقومان بفعل شيء، يا للتعاسة! نظر الرجلان إلى بعضهما البعض لبرهة. وبقيا كذلك أيضاً لبرهة أخرى. إذ كانا يوفران على بعضهما سماع أي كلمة لا جدوى منها.

وفي النهاية أفلت غمري الكلمة التالية:

ـ القدر.

فأيده زائره قائلاً:

ـ القدر.

ـ القدر حين يكون هو من يتكلم.

ـ حين يأمر.

ـ من ستقاتل؟ الرمل، ستزيله. وماذا بعد ذلك؟ أين ستضعه إذا كان كل شيء يتحول إلى رمل، إذا كان كل شيء قد أصبح رملاً؟

ـ يمكننا أن ننتظر رحمة العلي العظيم.

فقال غمري:

ـ فلننتظر.

هل قام ذلك المتكلم بالنقيق؟ إستمر عبد بسؤال صديقه الهادىء الأعصاب بنظره. ولكن عيونهما باتت فجأة فارغة، وشردت في التلال الرملية الناعمة المنتفخة حولهما ـ مشهد لم يرياه يوماً طوال حياتهما.

ثم عاد عبد إلى تأمل غمري، وأبلغه قائلاً:

ـ لقد أتيت لأستعير إحدى نوقك.

ـ هكذا إذاً.

ـ سأرسل المرأة عند شقيقها الساكن في المدينة، مع الولدين.

ـ نعم، بالطبع.

ـ لذا أتيت لأستعير...

ـ خذ، خذ يا عزيزي.

ـ أي واحدة؟

يبدو أن غمري لم يفهم إذ بانت على وجهه ملامح الحيرة. ثم عادت الفطنة لتجتاح عينيه من جديد، فقال مازحاً:

ـ أي واحدة؟ ولكن أي واحدة تريد!

فذهب عبد ليأتي بواحدة. إذ كان يعرف أين يزربها غمري؛ لقد كان يعتني بتلك الجمال الرائعة والقوية بحنان كبير، ذكوراً وإناثاً.

بقي غمري كما كان متربعاً، وذراعاه ترجحان بين ركبتيه، وهو يشاهده يبتعد دافعاً البهيمة بضربات على ردفيها، ثم قال له في اللحظة الأخيرة:

ـ رعاهم لك العلي العظيم!

فتساءل عبد، وهو يركض وراء الناقة: «أكان يقصد الولدين ومهدية؟ العلي العظيم؟ الخيار لله!».

الصحراء؟ قال عبد، إنها تتقدم بشكل عشوائي وتعيد اتباع المسالك نفسها. إنما يبدو أنها تنسى ذلك، أو ربما لا. فإذا كانت تتصرف بتلك الطريقة، فذلك لأنها ربما ترى الأمور وتفهمها بتلك الطريقة. إذ تعيد ترتيب سريرها ليلة بعد ليلة حيث رتبته في الليلة السابقة من دون إبعاد أو إزالة شيء من أمامها، لا سيما ما تركته من نفسها في ذلك المكان. ثم يأتي دوماً صباحٌ يفاجئكم بعض الشيء حين تكتشفون أنها سلكت مساراً أعلى لترتب سريرها في مكان أبعد. فيا لنا من واهمين!

إن الرمل يترك في الواقع فراشه القديم من دون تردد لآخر جديد يهيئه في مكان أبعد، غير مرتاح لأي واحد منها بالتحديد، كما لو كان كل واحد منها يتحول بعد مرور وقت قصير إلى خشبة تعذيب. والحقيقة أنه لا يتوقف عن الحراك على الإطلاق، حتى ولو كان يعطي انطباعاً بالجمود لمن يراقبه حتى عن كثب.

والغريب. . . قال عبد، أنه في بعض أجزائه يزين نفسه بأوراك وأكتاف واستدارات صدرية، تجعل منه مادة حية إذا ما اكتست بالنور، تجعل منه آيةً من الجمال، آيةً يمكن للأرض المشتعلة بنيران الإغواءات كافة أن تتحول إليها تحت سماء حائرة؛ وأن تبقى كذلك إلى الأبد إذا ما حزمت الصحراء أمرها بشكل نهائي.

أجل، قال المتنزه على مهل، الآن وقد أصبحت الواحة ملكي، وقد أصبحت حديقتي، وقد نجحت فيها ورود الذهب والماس.

وتنتشر هيئة المنتَزَه تلك في كل مكان، قال عبد، وبشكل أكبر وأكبر منذ رحيل الناس. ولكن إذا كان المنتَزَه ينتقل، ويوسّع نطاقه منفرداً، إلَّا أنّ الزمن، على عكسه، لا يفعل ذلك إطلاقاً.

فبعدما اصطدم بالرمال، لم يعد الزمن هنا إلَّا بهيمة عطشى خارت قواها، فراحت تلهث تعباً. وذلك منذ يوم رحيلهم، قال عبد. رحل البعض أولاً، ثم تبعهم في النهاية كل من سبق رغم ذلك وأعلن جهاراً، وبحسن نية، أنه لن يحرك ساكناً. حتى أن بعضاً منهم قد أقسم على ذلك. ثم رحلوا هم الآخرون. ومن قد يفكر في حفظ ضغينة تجاههم؟ فقد قاوموا، بل قاومنا جميعاً

الصحراء. غير أن الصحراء من جهتها تقتل الجميع ولا تترك لأحد خياراً آخر. إنصرفوا واحداً تلو الآخر. حتى أن البقال ـ صاحب المقهى بنفسه ـ من كان ليتصور ذلك ـ كان من بين آخر من رحلوا. أما أبو صمد إبن المئة عام، فرفض التحرك مستنكراً ما يحصل.

وراح يبحث عن كلماته، إلّا أنه لم يجد ما يقوله سوى:

ـ أن أترك طريف! أن أترك طريف!

فحذره بعضنا قائلاً:

ـ ولكن لا يجوز أن يبقى شيخ بسنك لوحده!

عليك ألّا تفكر في ذلك حتى. لن يسامح أحد من نفسه على ذلك.

غير أن لسان الشيخ الجليل لم يلبث أن انطلق صائحاً:

ـ وحدي سأبقى! فالأمر سواءٌ بالنسبة إليّ، هذا أكيد! صِبْيَةٌ يُملون علي سلوكي، يقولون لي ما عليّ فعله!

هؤلاء الصبية كانوا نحن، رجالاً لديهم زوجات وأولاد.

ولكننا لم نكترث لاعتراضه، بل تصرفنا مع كيس العظام ذاك كما يتصرف المرء في العادة مع حزمة تمر: حمّلناه في قفة بردع وأرسلناه صائحين: حا! دي!

أما أسرتي فكانت قد انطلقت قبل نفاذ العاصفة إلى روحي كما يُقال. حتى أني اضطررت إلى إرغام أسرتي نفسها على الرحيل.

حتى إبني الأصغر، قال عبد، ماهي الذي رحل وهو يجرّ نفسه باكياً خلف والدته. حتى ناصر الأكبر سناً، مع أنه كان بمنتهى

السعادة لكونه سائق الناقة. واضطر ولدي البكر أن ينتظر وأمه إلى أن يصبحا خارجَين عن متناول نظري حتى يُطلقا العنان لدموعهما.

وبقيت أنا. بقيت لأني تخيلت أني سأنقذ طريف. عليَّ القيام بذلك إذاً.

إنقاذ طريف بكل ما فيها حتى شجرة التين تلك بطول إبهامي المولودة في قدم أرض مربعة بمحاذاة منزلي. هل كان من داعٍ للتحدث عن ذلك إلى الآخرين؟ أي نفع كان تأتّى عن ذلك؟ أما الآن فقد رحل كل من مهدية وولديّ، وكل الباقي.

لا يمكن أن أكون مخطئاً: إنها شجرة تين، وما من شجرة تين في العالم أكثر تينيةً من فَرخ الخضار ذاك. كما ينبغي على المرء أن يكون على قدر معين من المكر حتى يتنبه إليه ويقرّ بوجوده. ولكن الجَسور يتمسك بالحياة ويصرّ على النموّ. فأنا هنا من أجله أيضاً.

قالت لي زوجتي:

ـ أَنْجِدْ الأقارب وَلُذْ بهم يا عبد، ولتتضاعف النعمة الممنوحة لك. ماذا لو أتيت معنا؟

ـ إذهبي يا رفيقتي المخلصة. النعمة التي تتحدثين عنها قد تكون تلك المعطاة لي حتى أبقى.

ـ كيف تجرؤ على قول أمر مماثل؟

ـ وإن قلتُ لك إني لستُ من يقول ذلك، بل شخص آخر، أكان ذلك ليرضيكِ؟

ـ لا، تعالَ.

ـ لا، إذهبي.

كانت تلك الكلمات الأخيرة التي تبادلتها مع مهدية قبل أن أعهد بها هي والصغير إلى ابنه البكر. ذلك الرجل الذي سيبلغ قريباً عامه التاسع؛ كان بإمكاني الاتكال عليه حتى يوصلهما إلى برّ الأمان من دون أي حوادث. وهكذا أقلعوا نحو طريف ـ المدينة.

نحن هنا في طريف ـ الواحة، ولكن الغرباء يخلطون ما بيننا. إستدارت مهدية على نفسها مرة أخرى ونظرت إليَّ قبل أن ترحل...

طريف ـ الواحة، قال عبد. إنها تحتضر. يبدو أنها على شفير الغرق تحت الرمال. معاذ الله أن تعود إلى الذرور من دون ترك أي ذكرى، فستكون في تلك الحال أقل سعادة من الحيوان الذي تَعْرِضُ له الصحراءُ هيكلَهُ العظمي المبيضّ!

وفي تلك الحال، عارٌ عليّ لو رأيت في ذلك من جهتي حجّة حتى أخلف بوعدي لشجرة التين صغيرتي. فهي صامدة تحرك أوراقها الحطاطية عند مرور ألطف نسمة هواء، شجاعة مع أنها لا تملك سوى مسارب ثلاث. إنها طريقة تلك النباتات في التعبير عن نفسها. إذ أنها تكلمني في الواقع. وأفهمها تماماً! ما الذي تقوله لي؟ تريدني أن أصمد بما أنها تعيش هي الأخرى. يا لَكَمِّ الدهاء الذي تهمسه في أذني! ولكن المشكلة هي أنني أغبى من أن أتمكن من نقل أقوالها بأمانة إلى لغتنا. ولكن ما أهمية ذلك في الواقع؟

فمن كمية الماء الضئيلة التي ما زلت أتوصل إلى سحبها من بئرنا الممتلىء رملاً، أخصص الجرعة الكبيرة الأولى لها دوماً.

وكما يتضح، فأيامي باتت قصيرة للغاية رغم تعطلي الواضح عن العمل. أهو أمر لا يصدَّق؟ لا، فبحكم التطورات، اضطررت أن أتفحص بدقة سلوكي ونمط عيشي ومبادئي، وأن أتبنى مجموعةً أخرى منها تتناسب أكثر مع الوضع الحالي. وهكذا تسير حياتي نحو الأفضل.

ألوم نفسي قبل كل شيء لو نسيت صغيرتي شجرة التين الصغيرة جداً، لو نسيت إعطاءَها ماءً للشرب، ورشها بثلاث قطرات لترطيب أوراقها الصغيرة جداً. وأقضي من جهة أخرى أوقاتاً طويلة في خدش ملء صحن طعام من الرمل، وفي الأمل بعد ذلك بفك رموز الإشارات التي رسمتها بيدي تماماً كما كان يفعل طالب طريف المعلم في ضرب الرمل لكشف الغيب. ولكني لا أُخرج منها أي أمر لا إيجابي ولا سلبي؛ لا سيما وأني لا أجيد لا القراءة ولا الكتابة. ورغم ذلك، أنفخ على تلك الخربشات، ويختفي كل شيء. فنادراً ما أقع في حبائل الحلم برؤية المستقبل ينكشف فيها. المستقبل؟ إنه نصب عينيَّ. إني أعيش في هذا المستقبل.

وبناءً عليه، فلتحاول الصحراء أن تكشف لي شيئاً، وسترى كيف أني سأتجنب نفيه. إني أحسّ بذلك.

وأُجري كذلك تفتيشاً، مرةً أولى عند الفجر ومرة ثانية عند هبوط الليل. فقد أوكلت هذه المهمة إلى نفسي من تلقاء نفسي.

أُكثر من أسفاري إلى طريف، إذاً، أسير من دون هدف معين في مختلف زواياها وخباياها وشوارعها وأستكشفها عن كثب. إنما ماذا تريدونني أن أكتشف حتى أعلنه أو أخشاه أو أحميه؟ فالسلام والثقة سائدان في كل مكان. ولكنني أذهب من وقت إلى آخر لأبحث عن طعام. ويمكنني أن أجد كل ما أريده في أي منزل من تلك المنازل، الآن وقد سكنتها الصحراء بشكل نصفي بعدما هجرها البشر، وبقيت تفيض بكل الخيرات. وفي العودة إلى الكلام عن شجرة التين أقول: إن النظر إلى النبتة باستمرار ليس ما ينميها بالتحديد. إنما الأفضل أن يغضّ المرء الطرف عنها. ويقضي خلوته في مكان آخر.

إنما كان يلزمني في سني أن أختبر المسألة، قال عبد، حتى أفهمها واستخلص منها العبر. لأني قبل ذلك لم أكن أجرؤ أن أشيح بنظري عنها ولو لدقيقة واحدة. ولم أكفّ عن القلق: ستنمو أم لن تنمو؟

كنت أعاينها بين لحظة وأخرى. ولكن الأمر يكفي.

فلقد ارتقت درجة بين تلك اللحظة والأخرى، وهكذا استعدتُ نشاطي. وأصبحتُ خليّ البال، وانتهت همومي حين تنبهت إلى المعجزة: إنها تنمو.

إذا لم أكن مخطئاً، قال عبد، فلقد تخطى طولها طول إبهامي، وأوشكتْ أن تبلغ حدود الشبر الواحد. إننا ننمو بشكل جيد بمفردنا. وهي أيضاً تنمّي عنقها بمفردها، وكذلك جذعها، فقد

أصبح بضخامة إصبعي الصغير. أضف إلى ذلك أنها بدأت تلتقط ذاك اللون الأخضر الممزوج بالأبيض، وتلك الليونة الخاصة بالنباتات المتسلقة، صفتين ستلازمانها طويلاً في ما بعد. كما أنها تنشر بتحفظ تام رائحة ذاك الحليب الحرّيف الساري في ضلوع شجرة التين. في الأمس زارتها نحلتان بريتان. أما اليوم فلم تأتِ أي واحدة منهما. من أين تراهما قد جاءتا مسرعتين؟

أفتخر بكوني خادمها، قال عبد. وأفتخر كذلك بكوني الخادم المسؤول عن طريف وعن ذاكرتها أيضاً، حتى ولو كان عدد أولادها الذين عاشوا فيها ضئيلاً جداً.

في أثناء إحدى جولاتي، ظهرت عليّ أشباح تتجول بين أشجار النخيل، أقسم بشرفي على ذلك. وأوشكتُ للوهلة الأولى أن أُصاب بسكتة قلبية. فهل ترون أن اكتشافاً مباغتاً مماثلاً أمرٌ يمكن فهمه، خصوصاً إذا وقعتم عليه وأنتم على بعد ألف فرسخ من التحسب له؟ أو لأي أمر آخر بالأسلوب نفسه؟ وفي نواحٍ يسطع فيها المرح والأمن إلى حدّ مماثل؟

واستطعتُ أن أتعرف إلى مرحوم وأسرته، والده ووالدته وأولاده يستكشفون طريقاً مسدودة في الواحة يبدو أنها تشكل مركزاً متقدماً بالنسبة إلى الصحراء. لم يكونوا إلّا هم في النهاية. إنما كنت لأخنقهم جميعاً لما ضربوني به من صدمة انفعالية.

لم يتراجعوا في السابق مع الآخرين، هؤلاء الأشرار! إلّا أني لم أكن على علم بذلك. لذلك احترست ولم أقترب منهم لعدم ثقتي بهم.

ولم أحييهم إلَّا من بعيد؛ كما بادلوني بالمثل من جهتهم. والحقيقة أني سارعتُ في نسيانهم.

نسيانهم! منذ ذلك الحين وأنا أتساءل ما إذا كان كل صباح يجدهم يعاودون مهاجمتهم الرملَ للمرة الألف متشبثين بقطعة أرضهم البائسة. إنهم في مقدمة الجبهة عند حدود التلال الرملية. ويواجهون لذلك خطراً متزايداً. ولكن مهما كانوا شرسين في عزمهم على القتال، إلَّا أنهم يخوضون معركة غير متكافئة تتجاوز قوة البشر. حتى هم أنفسهم سيخسرونها وسيرغمون على إفلاتها. وسيتنازلون عن قطعة أرضهم لصالح الصحراء، وسينتهون مشرّدين على الطرقات.

إنما لم أقع مجدداً على زمرة المتوهمين تلك، على أولئك المجانين الأشبه بالضباع.

في بعض الأحيان، قال عبد، أمشي بكل بساطة لمجرد الاستمتاع بالمشي. وأجول في كل أنحاء ما كنا ندعوه طريف منذ فترة ليست ببعيدة. أجول، ثم أرجع وأتفحص في طريقي آثار الأقدام المطبوعة في الرمل سابقاً. إنها بالتأكيد آثار خطابي بعدما رَحَلَتْ وتحوّلتْ إلى خطى شبح. إلى أي مكان رَحَلَتْ أو بأي هدف حتى تعود من جديد؟ كيف أجيب عن سؤال مماثل؟ وماذا لو كنت أنا شبح واحة خالية، مكانٍ لم يعد موجوداً تقريباً.

ولكني أبذل كل ما في وسعي لمحاولة نسيان المسألة. ولأُلهي نفسي، أفكر في شجرة التين الصغيرة التي تعلو وتعلو.

غير أن الشبح... إذا كان في كل مكان في الجوار، قريباً مني

وبعيداً عني، فهل سينساني هو أيضاً؟ وماذا لو تبعني حيثما أذهب واستمرّ في ملاحقتي؟ إلّا إذا أفرط في إقدامه وراح يتكلم بلغة غير مفهومة، ويسعل سعالاً خفيفاً من وراء ظهري. ويضاف إلى سكون طريف حينذاك سكونُ ذلك الصوت. فهل أستدير في تلك الحال وأجابهه؟ لن أفعل ذلك لأني أعرف أنه هو المعني. وليقم بذلك إذاً، فأنا أرثي لحاله.

أختبرُ كذلك لحظات، إن لم تكن لحظات صمم: فهي بالتأكيد لحظات صمت كوني أكون فيها محمياً فوق شجرتي أراقب نفسي وأسجل انطباعاتي، فأدرك فجأة حينذاك أن ثمة من يختلس النظر من فوق كتفي. ولكن إذا بقيت جاثياً على ركبتي والتفتُ إلى الجهة المقابلة ونظرت لأعاين الأمر، فماذا سأرى عندئذ؟ مجرد آثار أقدام تندمج في الرمل، ولا يمكن أن يكون شخص سواي قد خلّفها وراءه.

من البديهي أنّ أفضل ما يمكنني فعله هو إلقاء كل تلك الأفكار وراء الكتف نفسها، والذهاب للإغتراف من مؤونتي من الماء مجرد كمية بسيطة، ما تحتاج إليه شجرة التين الصغيرة. فما زلنا على الأقل نملك ذلك: الماء. وبعدما أرشها بالماء، أعيد غسلها من ذرور الرمل الذي يغطيها. وبعد ذلك، تكون يداي ما تزالان مبللتين، فأمررهما على وجهي. إذ أني أريد الاحتفاظ بوجه بشري. وبعد ذلك... بعد ذلك، أتمدد بالقرب من شجرتي. ولعجزي وعدم قدرتي على تلاوة صلاتي، أستسلم لاستدعاء ذكرى من هم اليوم بعيدون عني إلى حدّ أنهم أشبه

بالأموات؛ ربما ما خلا ظلالهم غير المتصالحة مع ذاتها والمتعلقة بطريف إلى حدّ أنها خانتهم ولم تتبعهم قط. إنما بقيت تطوف في مختلف أنحاء هذا المكان المغمورة بالحنين.

أفكر فيهم بوجه نظيف. وإن لم يكن ذلك صلاة. فما عساه يكون؟ وفي إحدى الأمسيات، سألبس قناع الرمل. إنه ليس قناع الطين على الإطلاق بما أن بعض المضحكين ممن عرفتهم كانوا يتباهون به بعينين يشتعل فيهما الجحيم.

وأكون بذلك استأهلتُ مكانتي في طريف وأنا ممدد بالقرب من شجرتي. ومع أنها لا تظللني الآن، وهي لا تزال فتية جداً، إلَّا أنها ستظللني في يوم من الأيام، ولا بدّ من أن يحلّ ذلك النهار.

كان عبد يقول: «لا تحسب ولا تهتّم بما هو مقدّر أن يحصل»، فيما كانت لطمات ريح مفاجئة وشريرة ومشؤومة تنقض وتنصب عليه.

وبعدما سئم من جلدها لظهره، استجمع قواه وواجه السماء بقفزة شبّوط. فهو لم يعد ينام منذ زمن بعيد إلَّا في العراء، بما أن منزله قد سكنه الرمل. ولكنه في الحقيقة كان يشعر براحة أكبر في الخارج. وهل بقي من فرق بين الخارج والداخل بعد ذلك؟

تجمّع الكل وراح يتفكك معاً إبان تلك الليلة التي راحت تتفحّم بعدما أصبحت منهوكة وأشرفت على النهاية: حتى أن تلك المحلقة فوق عبد، وهي تنعقد وتنحلّ، والمفترض فيها أن تكون سماء وليست واحدة، لم تكن سماءً على الإطلاق، ـ بل لا بدّ من أنها كانت حتماً الصورة المائية الجوية المنكشفة عند الفجر منذ بضعة أيام؛ وتلك المصدرة صفيراً يُتعب رئتيها، كانت تجلد الرمال على مستوى التلال، ثم تتشتت ضمن سحابات قاتمة.

كانت تلك السماء تبهر عبد: كما لو كانت جزة كبش مثقلة بمصالة صوف ورمل بألوان الصحراء نفسها، هي إجابة قدمتها الصحراء المستعدة لمجابهة قرينتها.

وكانت شجرة التين الصغيرة الحذرة ترتجف بجانب الرجل، فتدب في نفسه القلق.

والرجل ينتظر بحواسّ يقظة حالياً. ينتظر... لا يعرف ماذا. ينتظر أن يحصل ذلك، أن يمزق شيءٌ ما في الأفلاك العليا صهبة الصوف التي راحت تزيد توَرماً وسمنة بشكل متصاعد وتمتلىء ببطون حبلى وحدبات مَرَضية. ينتظر أن يخرج منها في النهاية شيء ما.

وحينذاك قال عبد:

ـ سنرى متى سينشق كل ذلك.

وراحت الحصى الممزِّقة والجارفة المقذوفة برشقات خاطفة تلفح وجهه، ولو استطاعت شجرة التين، لكانت هربت كالمجنونة بعدما أصيبت أوراقها الكفّية الشكل بالإرهاق.

إنما لم يدم ذلك إلّا لبرهة، فسرعان ما تساقط عليهم وابل ضخم من العوائق القادرة على سحق جبال. ما لبثت أن مزقتها الزوابع.

وواصلت تلك الزوبعة القاتمة المصوِّتة بلا توقف على الفور على الأطراف الأخيرة. إنها غضب زوبعي بالفعل، ولكنها ليست من تلك المكتفية بالدوران في مجال ضيق. لا بالفعل. إذ لم تبشّر أي إشارة بنهاية عاجلة. حتى أنها باشرت باقتلاع أشجار الواحة بشكل غزير، كل الأشجار: الكسيحة منها والكبيرة والهزيلة والضخمة على غرار النخيل، ولم تتغاضَ عن أي واحدة، بل أرسلتها لتتشتت بشكل مخالف للصواب عبر دخان شبيه بدخان حرائق لا موقد لها.

ثم انتقلت تلك السيول التي تحمل رمالاً بقدر ما تحمل مياهاً لتهاجم كل ما كان لا يزال منتصباً، هاجمت مساكن الناس، وأغرقت ترابها المدكوك في الماء، ثم هدمت جدرانها تباعاً، مسقطة منها شقات كاملة. فراح عبد يقول:

ـ منازلنا.

ولم يكد ذلك النهار يبدأ بالبزوغ والانجلاء بجوٍّ كثيف وفجر غائم حتى انسدلت عليه في الحال الظلمات الجديدة.

إبتسامة الأيقونة

ثم مشيت بعدما دخلت إلى المدينة، ومررت عبر ساحاتٍ.

واجتزت بخطاي المتساوية نفسها جاداتٍ أعادت واحدةً بعد الأخرى تأليف جادات أعمدة وقناطر وممرات كبيرة بفضل استقامتها الثابتة. وتوصلت إلى بلوغ أدراج ضخمة يتعاقب فيها اللونان القمري والشمسي.

وكان أهل ثيبة يظهرون علناً في أماكن عدة منفردين أو ضمن ثنائي أو حتى ضمن مجموعات كما لو أرادوا إظهار خط ذلك المشهد.

وبعض من توقّفوا في أمكنتهم كانوا يتحادثون في ما بينهم.

لا بدّ لهم من أن يكونوا قد لمحوني بما أني مررت على مرأى منهم.

ولكني لستُ سوى الملك المتغير دوماً.

هذا أنا راسّك، راسّك البائس. وهذه قصتي أيضاً حتى نهاية

العار، حتى نهاية الرعب مع أن نينا قد سبقتني في ذلك. إلّا أنها في الوقت نفسه قصة وَجَدَتْ نهايتها. فهل ستنطفىء مع موتنا؟

ولكن إذا كانت القصة منتهية منذ لحظة بدايتها، فهل تبقى قصة؟ أوديب، أيها البطل الساذج والجدير بأقصى درجات الشفقة، لقد تلقيتَ مقابل إجابتك عن السؤال البسيط يا أوديب مصيراً كان سيدمرك ويدمرنا معك.

كان المسمى بالسفنكس في صحرائه، في مقره الثابت ينتظر زيارةً من أوديب، ثم... ثم؟ مَن المختبىء تحت قناع أوديب والمعتبر نفسه أوديب الذي قد دخل إلى ثيبة؟

كان الغسق أحمر كالدم والليل يمشي على خطاه، ولكن ذلك كان البارحة. فالصباح عند النافذة وفي هذه الساعة هو اليوم. يوم كسول أشرق سدىً وراح يتخامل، إنما رغم ذلك أقول له صباح الخير.

وأنتِ أيتها المدينة بكلّك الكبير، يا مَن تتسكعين من جهتك أيضاً بقميص حمّامك وحذائك القديم، ومَن لا تريدين ما عدا ذلك أن تسمعي أو تري إطلاقاً ماذا يحصل في حضورك رغماً عنك، صباح الخير لكِ أيضاً. أليس صحيحاً أنكِ لم تري ولم تسمعي شيئاً مما حصل ذات ليلة منذ خمس عشرة سنة؟

يا غابة الحجارة حيث تتشتت الكلمات ما إن تخرج من الفم، ويا أدغال القناطر والممرات المنتفخة الفم بقدر سمعك الثقيل، صباح الخير وعسانا نقبض مكافأتنا لكوننا صممنا جميعاً إلى هذا الحدّ. وصباح الخير أيها الموقع المحصّن، أيها الحجر الصحّي

المؤمّن الحماية لنفسك في حال غياب الأسوار. وأنتَ أيها العمى المفروض فرضاً، أيتها العين المجردة من جفونها والملتصقة بالنوافذ، صباح الخير.

صباح الخير أيتها الأيقونة الساحرة في الأعمى، في زاوية الغرفة. أنحني قبالتك يا مَن يحترق سراجك مثل قلب صموت. ألقي عليك التحية قبل أن تظهر نينا، نينا الممددة والنائمة بعد.

أما الآن فقد برزت نينا عند باب المطبخ بشكل يعيق النفاذ إليه، وهي مستعدة تماماً بكامل جسمها وبعينيها المحفورتين كوجهها داخل الصخر للتخبط في سعي طويل.

لقد تخلّت عن التدخين منذ ذلك الحين ـ بعدما فكّرت من دون شك في مثالِ إنكليزيٍّ أعلن عن عدم قدرته على الرقص والسفر بحراً في آن معاً عندما دُعي إلى الرقص خلال رحلة بحريَّة. أضف إلى ذلك أن سجائرها كانت تتطلب أولاً أن يتمّ لفّها قبل إشعالها.

ولكني كنتُ أول من تساءل: هل انتهيتُ من العودة من هناك؟

قلت لها:

ـ ماذا لو نخرج قليلاً؟ ونقوم بجولة صغيرة؟ وانتظرتُ. ولكنها لم تجبني لا سلباً ولا إيجاباً. فاستنتجت قائلاً:

ـ أنتِ تفكرين في مسألة ما.

أرادت أن تصرخ، واضطربت وراحت تُنكر بكل ما فيها من قوة. وبصوتها المرتعش قالت لي وهي تنعق بشكل فظيع:

ـ لا أفكر في شيء! لا أفكر في شيء!

ـ إهدأي. هيا، هيا...

وكنت سأضيف فكرة رحت أتساءل ما يمكن أن تكون، إلّا أنها تأخرت في الوصول. ثم أدركتُها وتنفست الصعداء. فأنا بخير ولا أعاني إلّا من نقص في الكلمات بحسب الظروف. قلت لها:

ـ نعم. ماذا نفعل الآن؟

كل جملة نتبادلها لديها الوقت الكافي لتتجمّد عند ملامستها الهواء وتسقط صريعة لصعقتها. ولكن مهما يكن، فنينا باتت بعيدة الآن، على بُعد ألف فرسخ من سماعي.

إنما إذا كان على المرء أن يقوم بدورية في الجحيم ويضطر لذلك إلى عبور حقول مظلمة، فهل يعلم علم اليقين أي طريق يسلكه؟

حاولتُ أن أشرح لها:

ـ لم أقل: ماذا تفعلين؟ قلت: ماذا نفعل؟ أنتِ تفكرين في مسألة ما... الكل يفكر رغماً عنه في مسألة ما.

نجحت تلك الكلمات الأخيرة بشكل خاص في إثارة أعصابها مرة أخرى، إذ أغضبها الاحتجاج العنيف نفسه. وراحت تنوح من جديد! تُطلق نواحاً يُطلقه المرء أثناء نومه في الليل.

ـ لا، لا أفكر في شيء!

ـ عليكِ أن تنسَي.

أصيبت حينذاك بالحيرة فقالت بتردد:

ـ أنسى؟...

لو خطر في بال غرض داخل الغرفة أن يتكلم، لما تحلّى بصوت أقلّ خشونة.

ولكننا اكتفينا بهذا القدر في نهاية المقاومة. أن ننسى.

أما الصمت المتغلب علينا دائماً والمشحون بصياح يحتفظ به لنفسه، فلم ينسَ على الإطلاق، إنما بدأ بفرض تعبير دهشة على وجه نينا وعلى كل ما يحيط بها من أغراض. بدأ حزيناً ثم أصبح لامبالياً وسرعان ما تجرّد بعد ذلك. واستولى عليها بعد مدة قصيرة تعبير يصلح ليتمّم لها قناعها الصنمي غير البشريّ، القناع نفسه الذي لا يحصل وراءه أي شيء.

إستجمعتُ قوة إقناعي كاملة وقلت لها:

ـ عليكِ ألّا تفكري في الأمر بعد الآن. عليكِ أن تنسَي.

غير أن نينا بقيت جالسة إلى الجانب الآخر من الطاولة حيث يتمّ دفع كل الأثاث وحشره قرب الجدران، محشورة مثله تنشر صمتها وهي توجّه انتباهها نحو إطار النافذة.

ماذا ترى من مكانها، هذا إذا كانت ترى شيئاً؟ عموديةً مذهلةً مؤلّفة من قرميد وكوّات رمادية تزيّن الإسمنت وتشقه؟ ذاك القرميد وتلك الكوات داخل إطاراتها المعدنية الفاغرة الأشبه بكهوف متوالدة إلى ما لا نهاية؟ إنما ليس السماء.

فمن السماء لا نلمح سوى بريق حدقات رصاصية ميتة يعكسها زجاج النوافذ المقابلة.

دامَ السكون لبرهة.

فرحت أمشي هائماً، ضائعاً بين تلك الجدران، غير قادر مرة أخرى على إتمام أي إجابة وأنا أتساءل كيف كانت ليلةٌ كتلك التي مرّت منذ خمس عشرة سنة ممكنة بحق الجحيم: تلك الليلة

تحديداً أو الليلة التالية أو السابقة لها، لا فرق، على افتراض أن واحدة أو الأخرى قد وَجَدَت مكانها داخل الزمان، وتذكرت أين والى أي حدّ تقع على ممر ظروف مؤكدة وطارئة مفاجئة. رحتُ أمشي تاركاً فيها ذاكرةً مفلسة، دون أن أفقه شيئاً من المسألة.

وعللتُ النفسَ بحلم أعترف أنه يفوق إمكانياتنا، الحلم بنعمة حتى ولو كانت دنيوية. فمن دون أن نلتمسها ترانا نروم إلى النعمة لانعدامها.

أجابتني نينا بهمسة أتت من حدود ضائعة:

ـ ماذا؟ أنسى؟

فقلت لها:

ـ كل شيء.

ـ كل شيء؟

كل شيء، فكرة أجترها إلى أن أتمكن من رؤية الأمور بشكل أوضح قبل أن أقدم تتمة مناسبة:

ـ كل شيء مرّ قد مرّ الآن وبات ميتاً.

وبعدما انطلقتُ بالكلام انطلاقة جيدة تابعتُ قائلاً:

ـ علينا ألّا نتكلم عن المسألة ثانيةً. فحياةٌ جديدة تبدأ الآن. أقصد أننا نبدأ من جديد، نستعدّ لانطلاقة جديدة.

فردّدتْ من روائي اللازمة التالية:

ـ. . . نبدأ من جديد. . . إنطلاقة جديدة.

لم تستطع أن تتخلص من عادتها الجديدة المستهجنة القاضية بتكرار كل كلمة تُفلت مني؛ كلمة أو اثنتين في كل مرة، إنما ليس جملة تامة أبداً.

وأشك في أنها تبكي في سرها؛ تبكي لأنها مضطرة إلى التخلي عن الباقي داخل الكهف حيث تُتلف وجهها لشدة ما تذرف من دموع.

إلّا أني رحتُ أقول في نفسي:

«من دون أن تعود إليها حرفياً، تعود لتكرر بصمتها تلك الركائز، تلك الكلمات الغائبة والحائرة غير العائدة إليها بمعظمها، إنما المقتبسة مني بكل بساطة».

تأملتُها لبرهة، ثم أكّدتُ على قولي انطلاقاً من حقي المطلق:

ـ أجل، الحياة تبدأ من جديد.

فبلغني مرة أخرى الصدى المرتدّ المثير للشفقة:

ـ الحياة تبدأ من جديد.

حينذاك صرختُ:

ـ أجل!

وأصررت على كلامي:

ـ تبدأ من جديد! نستعدّ لانطلاقة جديدة!

ـ انطلاقة جديدة. . .

ـ حياة جديدة تنتظرنا وتنادينا. عجباً، كل ذلك يعيد إلى ذهني أغنية أعرفها.

فانتصبتُ ونفختُ صدري وأخذتُ نَفَساً عميقاً استعداداً لـ. . . ولكني لم أتوصّل سوى إلى تجشؤ مهروسٍ من الأصوات بصعوبة كلية. أنا من ظننتُ أنه ليس عليَّ سوى أن أفتح فمي حتى أتذكرها! ثم خرج رغم ذلك لحنٌ لم يشقّ عليَّ يوماً أن أخرجه

من داخلي. خرج ولكنه ارتدى من جديد طابع الإرتباك الرهيب المليء بالريق والتنغيم اللزج غير المرتبط بكلام معيَّن.

وأصغيتُ إلى نفسي أتنحّم بالأحرى أكثر مما أغني:

وردة واحدة لا تبشّر بالربيع
ولكنّ قطارين من الضاحية
قطارين من الضاحية...
قطارين من الضاحية...

حين يكفّ الغناء عن كونه غناءً، فيحملكم بابتعاده الكلي عن نطاق الجمال إلى ما هو أبعد مما يحتمله البشر، ويستحيل شكوى وحازوقة وحشرجة من قصبة الرئة ومنقاراً قديماً يعاند على السقسقة والتعطل في آن، فأنا من جهتي أكبّ عليه بحماسةٍ وأتابع. وأتابع حتى تخور قوى الكلام ويتوصّل إلى الاستغلاق عليَّ ولا يبقى أمامي وسط فشلي التام سوى أن ألجأ إلى عينيّ، ليس لأبكي إنما لأحملقهما في الفراغ.

في الفراغ من دون تفكير.

من دون تفكير؟ لا. فلقد احتفظتُ بفكرة واحدة ما زلتُ أراها منتصبة أمامي: «سنتنازل عن غنائمنا ونرحل».

ومنذ ذلك الحين، كان علي أن أكشف من جديد عن طبقة الضعف المنسحقة والنوّاحة حتى أتمكّن من الكلام، عن صوتٍ يُسرع في تقديم الايضاحات لا ألتقطه إلّا عندما لا أتوقعه على الإطلاق، صوتٍ أمقته: فما من شيء أمقته بحق الجحيم أكثر من ذلك الصوت وإيضاحاته التي لا يرغب أحد في سماعها ولكنها رغم ذلك تظن أنه من واجبها أن تقدّمها. إنما لمن تقدمها هنا

سوى إلى نينا؟ الأفضل في تلك الحال إذاً التوجّه بالحديث إلى الأثاث.

فبحتُ لها بتلك النبرة المشكوك في دناءتها إنما الصادقة في آن:

ـ ها إني قد أصبحتُ عاجزاً عن استعادة التتمة. أصبح رأسي مصفاةً تَدَعُ كل ما فيها يمرّ عبرها.

هل سأذعن لعجز يبدو أنه سيطر عليّ؟

قلت:

ـ لن أتوصل أبداً إلى استعادة التتمة.

غير أن نينا لم تكن تصغي إليّ. أعرف ذلك والأمر عندي سيان. إلّا أني صحتُ في أذنها:

ـ تصوّري أنني كنتُ أتذكرها دوماً هناك، تلك الأغنية. كنت أدندنها في سري كلما... عفواً، ليس هذا ما قصدتُ قوله. قد لا تحبذين أن... أتسمعينني يا نينا؟... نينا!

أشك في أن تكون قد التقطت أوّل كلمة من ثرثراتي. أما أنا، فقد فَقَدْتُ حبل أفكاري في كل حال. إنها الهزيمة. خيانة أخرى بعد تلك التي حصلت منذ خمس عشرة سنة تَلَتْها كل يوم منذ ذلك اليوم.

كريهةٌ وقذرة تلك الليلة العائدة من دون توقف بوجعها الذي ينخر العظام. ليلةُ خزي ما إن أفكر فيها من جديد حتى تستيقظ عادتي المستهجنة وتخلع فمي. أقاسي ألف ميتة حتى أُبعد عني كابوسها، ولكن ميتة واحدة تكفيني حتى أهضم ذكرى ما كان كابوساً آخر: حياتي هناك.

أما الآن فقد بدأ زمنٌ جديد بالبزوغ على ما يبدو. ويسود حولنا اليوم عالمٌ كل شيء فيه أصبح ممكناً، ابتداءً من البؤس، وكل امرىء فيه يلبس قناع الآخر ضمن كرنفال مستمرّ طوال الوقت يرقص فيه الملك مع المتسوّل رقصة أوكرانية تقليدية، ويمدّ استعطاء العجزة يده لاستعطاء الشباب الأنيق. أما في ما يتعلق بالأقنعة، فلا حاجة لنا إليها لا أنا ولا نينا، فما علي سوى أن أنظر إلى نفسي وأنظر إليها. إذ بات كل واحد يرى نفسه في الآخر ومن عاد أحد يستطيع أن يحسد الآخر على أي شيء ولا أن تكون له الكلمة الأخيرة.

يبقى فقط أن يشرحوا لنا كيف نجد لنا مكاناً داخل هذا الخبيص. نجد لنا مكاناً نُلقي عليه مؤخراتنا، وكيف يمكن للخير أن يجلس على مقعد الشر وهو لا يزال ساخناً. لا أريد سوى أن أرى. ففي الرؤية ما يسلّي نوعاً ما.

أنا مجادل؟ لا أسعى سوى إلى إقناع نينا بشيء من القوة الحية، هذا صحيح:

ـ بما أن حالة جديدة تسود في العالم، من المهم أن نعرف من أين نتموّن ونحترس من الأفخاخ المحفورة مسبقاً في مكان ما بين الكلمة ومعناها، وبين الاسم وما يُشير إليه، ومن رسوم خداعة ليست في النهاية سوى كلمات هي الأخرى، كلمات أخرى تخفي أفخاخاً للذئاب. نعم، ماذا قلتِ؟

أصختُ سمعي. ولكنه كان إنذاراً خاطئاً. فتماماً كما كانت غارقة في حلمها، ما زالت نينا الآن على حالها. لذا استأنفتُ الكلام من دون استياء:

ـ أفخاخ للذئاب. ما زال الأمر سارياً تماماً كما كان البارحة أو في أي زمن آخر إذا أردتِ أن تعرفي رأيي. وما زالت سكور الخداع مفتوحة على مداها تماماً كما كانت على الدوام. نينا، هل تسمعينني؟

لم تتأثر على الإطلاق بكلماتي الفارغة والرنانة. كما أني فقدتُ كل أمل بإقناعها بالخروج.

لذا لمحتُ أعضائي واحداً واحداً ونهضتُ طوعاً أو كرهاً لأقوم بجولة حول الطاولة وأنا أتّكىء عليها بيدي. وما إن أصبحت قرب نينا حتى قبّلتها من دون الكفّ عن الاتكاء إلى الطاولة. فأحسستُ بنسيج ذلك الخدّ الرخو وبذلك اللحم المائع بتجويفاته الضاربة إلى اللون البنفسجي وكأنّ أصابعَ قد تركتها على وجهها، أما البشرة فألفيتها ناعمة وليّنة إلى أقصى الحدود. وبعدما مسّتني خصلة الشعر المتمرّدة الممتدة على طول جبهتها مسّاً خفيفاً، شعرتُ بمجموعة نمل تركض على صدغي.

يمكن للمرء أمام الجمال البهيّ وتحت سحر روعته أن يختبر كذلك الشعور بالرعب. ولكن الأمر لا يصحّ مع نينا، ولا معي في حركتي تلك التي ستبقى سراً بيننا لن يتمّ إفشاؤه. لم يرتعش الخد بالطبع تحت تأثير ما طبعتُه عليه من قبلة، غير أنّ دمعةً عَبَرَتْهُ بطوله في اللحظة التالية.

وبعدما استعدتُ توازني ووقفتُ مستقيماً على رجليّ، تفرّستُ في وجهها ثم مضيتُ لأستقرّ أمام النافذة.

كانت تلك قبلة الوداع. فأنا عائد إلى ثيبة.

دخلتُ وعاينتُ الزخارف المثلثة الشكل فوق المداخل، والواجهات المؤلّفة من أعمدة، وتراصف الجادات الكبيرة المتعالية، كلها ثابتة في أمكنتها؛ أي كل ما هو منظَّم من قبل الذكاء ومنظِّم بدوره للمكان المحيط به ناكراً الطبيعة.

لقد بقيت مدينةُ المدن حاكمةً طوال عصور العالم الأربعة بما أنها مسرحٌ شاسعٌ للروح وانعكاس مهيب للكون. ولا يهمّ ما إذا كانت الساحات والقصور والمنازل المؤجّرة المتعدّدة الطوابق ومنافذ الينابيع والأحواض مهجورة اليوم لا يتردّد عليها أحد.

ويعبر المدينةَ ويشقّها طنينُ قفير خفّاق غامضٍ ومبهم، وتبدو الآن مستعدة بعدما أصبحت ناضجة تماماً لخلق الإلّه الأخير المستعدّ بدوره لفرض قانونه. والسرّ الخفيّ يعقد جلسته ويلتمس الانتظار والصمت. ما عادت المسألة متعلّقة بالذاكرة، فقد أُلغيت نهاية الإنسان الرابعة؛ أما الثلاث السابقة: الوفاة والحساب والجنة، فقد سَبَقَ أن سقطت كلها واحدة تلو الأخرى.

وأنا واقفٌ على شرفة أشرف من أعلاها على كل تلك العجائب بعدما أصبحتُ سيّدها الآن، رحتُ أستمع إلى أرواح الموتى تدور حول نفسها كفرق نحل.

يحاول تصور ماذا سيحصل لصديقهم، الآن وقد بقي بمفرده. وتخبطوا في ضباب كثيف، في ضرب من مادّة لزجة قذرة وبائسة قطعوا الأمل من قدرتهم على الخروج منها. فَكفّوا عن تشاطر الآراء نفسها وفقدوا نهجهم المشترك.

حينذاك راح العالم كله يغرق شيئاً فشيئاً في الغسق وفي لونه

الحبري الذي كان لا يزال باهتاً حتى ذلك الحين. إلّا أنّ ذاك المنظر أفسح المجال فجأةً أمام ضوء مرعب. لم يتمكنوا من تحديد مصدر ذاك التوهج السامي عن الماديات، إذ بدا أنّ غايته الوحيدة لم تتمثل إلّا في إغراق الأبنية المشتركة المقابلة بسيل من حليب الوابائين من أجل تنظيفها؛ أو بالأحرى: في تغيير حالتها وتحويلها إلى آية عجيبة؛ وقد تحقق الكل من ذلك.

ولكن ما إن لمحوا ذاك العالم المولود من الضياء والخالي من الظلال والمنذور للصمت حتى اضمحل بعد ذلك بالسرعة القياسية نفسها. إنفتح شق بين نطاقين فلكيين لمجرد الانغلاق من جديد ومواجهة سوادٍ مدلهمّ، سواد انتظار خانق، إنتظار عاصفة على وشك الإندلاع.

إنما يبدو أن الانتظار لم يأتِ بأي نتيجة. فالسماء بقيت غائمة ومكفهرة، لا تُخفي أي نذير أو تهديد.

حينذاك قال النبي ـ المتعكز مطالباً بانتباه الصبية:

ـ أنظروا إلى تلك الغيوم الضخمة. لا تستطيع إلّا أن تتكدّس وتتراكم في الأعلى. وهي بذلك تُحسن صنيعاً. وما إن يأتي مبضع ويشقها بعرض خيط واحد حتى يبدأ كل ما هو أزرق ومختبىء وراءها بالصراخ ولعن الناس. ذاك الأزرق ليس إلّا عين الموت.

لم يستقبل كلماته إلّا صمت لم يكفّ عن الترصّد. فما كان منه إلّا أن كرر كلامه:

ـ إلّا عين الموت. ومن المستحسن أن تبقى مُغمضة لأطول وقت ممكن، لا بل مُغمضة طوال الوقت. ونفضّل...

بقيت جملته معلقة في الهواء؛ والإصغاء كذلك. إلّا أن الرجل بدأ يُفرغ ما في قلبه:

ـ غير أننا نحلم بولوجها. ونحضّر أنفسنا للقيام بذلك بواسطة صواريخنا. أتكلم بجدية.

ـ للذهاب إلى هناك أيها النبي ـ المتعكز؟

ـ للذهاب إلى هناك عن حق، بالفعل؟

ـ متى؟!

فاحت من ازدحام الشباب ضمن دائرة رائحةُ العجينة الصرف المختمرة؛ وبدأ الانذهال والانبهار. واشتعل هيجان تتخلله موجاتٌ ذبذبية لا يهتم لمعاينة البواعث التي قد تدفعه إلى التحرك.

أما الرجل، فقال ساخراً:

ـ ماذا تقصد بمتى؟

ثم تدارك الأمرَ قائلاً:

ـ ستعرفون ذلك في الوقت الملائم. فالأرض تسخن، كما يؤكد العرافون البارعون في التنبؤ لا في الشفاء. كلنا موافقون على ذلك. لقد باتت المشواة مشتعلة تحت أقدامنا، وبقليل من الصبر سنتعرض جميعنا للشيّ. إنما رغم ذلك فلنحيِّ على الأقلّ جحيمنا هذا أثناء مرورنا. فهو لن يحسدنا على مصيرنا وسينال كل واحد منا حصته بالتساوي. حينذاك فقط سيبدأ عصر الديموقراطية. ويمكننا أن نعتمد على الشيطان ليرافقنا والسطام في يده، أو أي غرض آخر من هذا القبيل. إلّا أننا ما زلنا عند بداية النيران.

سيبقى هؤلاء الصبية عنيدين دوماً، إن كانت ترافقهم البنتان أو الثلاث بنات أم لا. النبي يعرفهم خير معرفة! فالترقب اللجوج والمرتاب التابع من تكالبهم مع بعضهم يرفض الاستسلام وإخلاء الجو.

لذا كرر المتعكز اللبق كلامه مرتين:

ـ السطام في يد المعلم إلّا إذا...

فقاطعه صوت صاخب لم يأتِ إطلاقاً في وقته:

ـ إلّا إذا؟

إما أنه لم يأتِ إطلاقاً في وقته أو أنه لم يصدر إطلاقاً من الشخص الملائم، إنما من الفتى غريلو أو من أي أحد سواه قد يطرح هذا النوع من الأسئلة.

إلّا أن المتعكز أجابه:

ـ إلّا إذا كان سبيل الاسعاف هو الفضاء، الفضاء الذي يمدّ لنا ذراعيه، إذا حصل أن نظرتم إليه في ليلة صافية، إذا لهوتم بتعداد النجوم داخل رؤوسكم الصغيرة. النجوم فيه بالمليارات! ما أدراني كم يبلغ عددها، فلا أحد يعلم. ولكن ذلك ليس سبباً لحرمان النفس من أن تقصدها، بل على العكس! فمن بين عديدها الهائل، لا بدّ من أن تتواجد واحدة تصلح لنا. وطالما أننا نعلم أنه لا بدّ من الذهاب إليها، علينا أن نتدبّر أمورنا ولا نظنّ أنها ستنتظرنا. فهي تجري بسرعة هائلة تجعل صواريخنا الحالية تبدو كسلاحف مقارنةً بها.

ـ إستسلم يا رجل! إن المسألة فاشلة من بدايتها إذا كنا لن

نتوصل إلى اللحاق بالنجوم بالصواريخ الموجودة! لقد بدأتَ تتلفظ بالحماقات من جديد.

ـ من الذي تكلم؟ تيكلو؟ إن الرجال يا بنيّ يتدبرون أمرهم بسرعة حتى يتحاشوا الخطر ما إن تفوح رائحة الاحتراق. هل يريد أحدكم أن يسأل سؤالاً آخر؟

ساد الصمت داخل القن. فلهذا السبب لا يتكلم أحد منهم سدىً حين ينطلق النبي في حديثه من جديد بسرعة وبقوة:

ـ حتى المجرات نجهل عديدها، طالما أننا نجهل عديد النجوم في المجرة الواحدة. أقصد أنه إذا توفّر لنا مكان، فالأمر متوقف علينا وحدنا حتى نعثر عليه. فضلاً عن... أن الفضاء ينادينا. وإذا كان بين الناس صمّ لا يسمعون، فأولئك يستحقون التعرض للشَيّ كالدجاج في منازلهم. تلك المساحات اللامتناهية تنادينا! لأننا بالتأكيد ذرور نجمي. والجزيئات التي نتألف منها والممكن إيجادها في كل ورقة وبرغوث وعظاية ومفتاح إنكليزي مسطح وصخرة وحذاء وواقٍ ذكري ومسجلة متنقلة ومزلج ببكرات موجودة كلها في الكون. والهواء الأولي الذي انطلق لدى ولادة الكل الكبرى ما زال يسري في شعرنا كنسيم البحر أو كنسيم الأرض حين تنعكس.

وأفلت في النهاية فكرةً سرعان ما بدت رديئة:

ـ الحنين، اللعنة!

ـ نعم، ولكن أيها النبي ـ المتعكز...

تيكلو هو من فتح فاه من جديد، فأذناه تلتقطان كل ما يخرج

من فم المتلكم. لم تخص الطبيعة بنعمها تيكلو، ربع الحصة ذاك الأشبه ببنت وردان بيضاء لها قرون لا تجيد إلَّا تحريكها، وصوت يخرج مبحوحاً وضعيفاً كما لو كان صادراً من فونوغراف قديم، إذا كنتم قد سمعتم صوته.

حاول الرجل الاكتفاء بتقليده أولاً:

ـ نعم، ولكن أيها النبي ـ المتعكز؟.

ـ نعم، ولكن إذا كنتُ سأرحل لأجد نفسي في وضع مماثل في ضاحية قذرة، فلن أحرّك مؤخرتي عن هذه الأرض العجوز اللعينة. ما دمتُ سأبتلي بكهف آخر، فلديّ ما يلزمني هنا، شكراً.

ـ عالم جديد هفّاف ينتظرنا في الأعلى، فيه كل ما يلزم لنا جميعاً!

ـ هذا ما تقوله! سترى إن كان سيبقى جديداً وهفّافاً لحظة نصل إليه. جديد وهفّاف وفيه كل ما يلزم لكل واحد منا: هل من يراهن؟

ـ إذا بقي عجز فاشل يتمسك بهذه الأرض الساقطة، فلن يرغب أحد في الرحيل يا أرنبي.

ـ ما هذه الترهات!

ـ النذل!

وراح تيكلو يُصدر صفيراً من أنفه:

ـ ستجعلني أؤمن ببابا نويل أيها النبي ـ المتعكز!

ثم توقف عن اصدار الصفير من أنفه، وتابع:

ـ وماذا لو بدأنا بالاهتمام بهذه القذارة النتنة إلى أقصى الدرجات، ماذا لو بدأنا بتنظيفها وحقّها، ما رأيك؟

لم يخطىء الآخرون لا بكلمة ولا بحركة غريبة. وكأنهم تخدّروا بحكم اللياقة، أو لأن المصابيح المركزة عند الزاوية كانت ميتة طالما أن أنابيب الصوديوم تطير منها بشكل شظايا ما إن يتمّ استبدالها؟

قبعوا وسط السواد جالسين أو ممددين لا يعيرون انتباههم إلّا للسماء. ينتظرون أن ينكشف، ولكن ماذا بعد؟ لم يهتموا للنجوم يوماً. أما الآن فوحدها رؤوس الدبابيس تلك تشغل بالهم. أتراهم يستطيعون الوصول إليها؟

أما تيكلو فراح يُخطر نفسه: «أنت تيكلو لا يعنيك كل ذلك. فإذا ارتحلت تلك الغيوم فجأة، ستُلقي أنت أيضاً نظرة إلى الأعلى، ولن يقول الشبان عنك في ما بعد إنك صبي خبيث. وعند ذلك تهرب؛ إلى الملتقى! أفهمهم تماماً، ولكن حتى لو كانوا سيسافرون غداً، فأنا لن أصدق ذلك أبداً».

لا بدّ من القيام بما ينبغي فعله حتى ولو تطلب ذلك قضاءُ الليلة في النظر إلى السماء بطرف العين.

ورغم السكون المسيطر على الجو قام بالسؤال:

ـ والجهاد أيها النبي ـ المتعكز، متى سيبدأ؟

ـ ماذا؟ آه، نعم، الجهاد!

ـ لقد انتقلتَ إلى الجهة الأخرى، إعترف بذلك.

ـ إنتقلتُ إلى الجهة الأخرى؟ بدرجة أقل بكثير مما يظهر.

عندما تتعلم كيف تتمخّط، ستدرك أن أحداً لن يتمكّن من مناقضة الآخر عندما نصبح في السماء!

إن تيكلو لم يولد البارحة: بل كان يشك في الأمر. ولكنه أقفل فاه وراح ينتظر مع الآخرين. ولكن تباً، فماذا لو أضاع الليل كله في الانتظار!

سلسلة

التراث

أجهل على ماذا أو على من أتكل من الآن فصاعدا. لقد رميت بنفسي في كابوس ومنذ ذلك الحين، رحت أظن أن شيطانا تهكمي الضحكة لا وجه له يلاحقني ويلازمني كظلي. (عزيزي نعمة، ألا تظن بالاحرى أنها ليست سوى سلسلة من التهرب يرثى لها، وعليك من الآن فصاعدا أن تختار: بين التصرف بشكل أفضل منذ هذه اللحظة، أو البقاء عبدا إلى الأبد، فلا يبقى أمامك في هذه الحال سوى أن تعود أدراجك ؟).

ISBN: 9947-21-228-9